ولا زالت الجميلة تحيا

الرِّحلَة

أحمد شوقي شعبان

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

ليس إهداءً؛ بل حقيقة

المكان .. قلبي

الزمن .. دائمًا وأبدًا

البطل .. أبي

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

تَهْيِئَة

أرَاك قد أتَيت إليّ طواعيةً، فلا أعتقدُ أنّ أحَدٌ قد أجبرك على قراءة هذه الكلمات. حسنًا ؛ إن كنت تنوي أن تُكمل قراءة الصفحاتِ التالية فيجبُ عليك معرفةُ التالي:

أولًا، لا تَلومني، هذا وقتك الذي أنت على وشك إهدائي إياه !

ثانيًا، أتمنى أن تكون قد دَفعت ثمنَ الروايةِ بالفعلِ وأنك تقرأ هذه الكلماتِ مُستلقيا في فراشك بَعد أن تيقَّنت أن لا مفرّ من إكمالها، فرغمَ حرصك يا (عزيزي / عزيزتي) قد خُدعت !وفاتَ أوانَ إرجاعها.

ثالثًا، هَنيئًا لك، فأنت لن تقرأ روايتي عن لساني ولن تلقاني كثيراً بعدَ هذهِ المُقدّمة، أراك تبتَسِم ! كم تمنيتُ أن أستمرَ بدور الرّاوي فقط كي أمحوَ عنك تلك الابتسامةِ الآن، ولكن للأسف ؛ فقَد كُتبَت الرواية بالفعل، ولن يتعّدى دوري كرَاوٍ أكثر مِن توضيح رقم الفصلِ واسمهِ بينَ الحين والآخر ؛ أما عن الروايةِ بأكملها فهي تُحكىَ على ألسِنَة الشخصياتِ الرئيسية (جميلة - كريمة - أماليا - حياة - الطفلة جميلة، وأخيراً ؛ الجميلة الثائرة، أجملَ مَن حَكم مصرَ مِن النساءِ، الملكة نفرتيتي)رحلة ستقطعها مُصاحبًا إياهن في أزمنتهن، فستُحلق معَ (حياةٌ) بداخلِ عقلها، بينما تحاور (كريمة) نفسها هربا مِن ضعفها، ستسخرُ معَ (أماليا) مِن كافةِ الرجال، وستبحثُ معَ (جميلة) عن أسرارِ مقبرةِ الملكة في مزيج من الإثارة و الفانتازيا.

سترحلُ نحو الجنوب، نحو العاصمة، لا ! ليست (القاهرة)، بل (طيبة)، حيثُ بدأ كلّ شيء، حين بدأ كلّ شيء ؛ أربعةِ آلافِ عامٍ مضت عليها وظلّت بكامل سحرها، سترحلُ إلى زمنٍ حكمَت خلاله (الجميلة) مِصرَ في أزهى عصورها..

حكمَت رغمَ أنفِ الجميع..

سترحلُ ولَكِنّني سأجعلك تبدأ الرحلة بجزءٍ مِن الفصل (الأخير) !

فلتبدأ رحلتك، إذهب الآن !

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الفصل الأخير

البَعْثُ

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الملكة

المكان ـ العاصمة (أخيتاتون)

الزمن ـ مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

إنهار كلّ شيء، كل شيء بنيته خلال أعوام حُكمي، كانت النيرانُ من حولي تُحيطني من كل اتجاه، أهذا هوَ غضبُ الآلهة أم هوَ انتصارٌ مؤقتٌ لكهنة المعبد البائس !

كنتُ أركضُ مع ابنتاي بينَ الحطام المشتعلة، حتى السُفن الملكية لم تسلم منهم وطُفقت مشتعلة بالنيل جوارنا، لا يمكن أن تكونَ هذه هيَ النهاية، وحتى إنْ كانت! فيجب أن أتأكد أنها ليست نهايتي، بل مجردَ نهاية لحياتي الحالية الآن !

تصاعدت الأدخنةُ من كل ما طالتهُ النيران، وأنا أعلمُ أنها طالت كلّ شيء، وأول ما طالتهُ هوَ قلبُ زوجي الخائن، قلب الملك الذي جعلتهُ يحكمُ مُنفرداً، ووعدني بالحكم بجواره منفرداً، ظللتُ أركضُ حتى نجحْتُ بقايا القصر من بين الأدخنة، فدخلنا عبرَ البوابة الخالية بعدَ أن هربَ الحرسُ، لعلنا نستطيعُ أن نتخطّى به، ولكن جزءٌ منهُ سقط ليحول بيني وبين ابنتاي اللتان ظلتا بالخارج تصرخان باسمي، شعرتُ بيدٍ تجذبُني بقوة إلى الداخل لتُنقذني ممّا تبقى من تساقطات الرُكام حولي، كانت حارستي، تلك الأمينة التي ظلّت معي للنهاية، نعم، يبدو أنها النهاية، أعطيتها بردية في يدها كأمانة لتتناقلها الأجيال، أمانة لشرح المطلوب كي أعود، فعلى الرغم من كل شيء ..

سأعود : هذه هي الخطة منذ البداية، سمعنا طرقٍ صاخب يحاولُ أن يدمر ما تبقى من الجدران حولنا، كان عنيفًا ولكنهُ لم يكن يعلو فوق صوت دقات قلبي المُنكسر

- " سيستطيعون الدخول يا مولاتي، يجبُ أن نهرب من خلال السراديب "

قالتها حارستي والدماءُ السائلةُ على وجهها تعكسُ صورتي، أرى نفسي وأنا أدفعها بعيدًا لتهرب بالأمانة التي في يدها ؛ رغم محاولاتها المستميتة لتسحبني معها إلا أنني قررتُ أن أنهي هذه الحياة بشموخ كما بدأتها وسأعودُ في حياةٍ أخرى لأكمل ما بدأت.

** فأنا صاحبةُ الألف وجه **

والروح الواحدة

أنا مَن بُعثت وسأبعثُ في كل عصر

سوف أعودُ رغم أنف الجميع

** وسوف أبعثُ من جديد ! **

Visual Watermark

والآن

(لنذهب معًا إلى البداية)

الفصل الأول

بداية

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

المكان .. العاصمة القديمة (طيبة)

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

النيلُ يتلألأ .. يلمَعُ بشدة .. يلمَعُ حتى تَحسَب أنه ينظر إلى ملامحي بلَهفه العُشّاق بألف عَين براقة

يلمَعُ وكأن (إيزيس) قد أرادت أن تُبارك حضوري، فنَثرت عُقدًا من اللؤلؤ النفيس ليطفو على سطحه، ويَرق.

أم قد تكون الشمس قد مَلّت من مشاهدتي من خلف ستار السماء ؛ فتركت مكانها لتدنو وتتجسد بقطراته، لعلها حينها تستطيع أن تأنس بملامحي عن قرب.

أرى ماؤه يتمايل بخفة تَقلّب بها على أبرع راقصات البلاط الملكي، وكأنها يحاول أن يتفوق على الجميع في الإحتفال بوصولي، يتموّج في رقة ملحوظة تاركاً مسارًا آمنًا لسفينتي لتبحر برفق حتى تصل إلى مَرساها.. مَرسَى القصر الملكي بطيبة.

طيبة : عاصمة (كمت) !

لا أحد كان يعلم أن يؤول بي الحال إلى هنا !

أسمعُ صوت الماء والمرسى وهما يداعبان الجوانب الخشبية للسفينة الملكية في تلاحق، لا يعلو فوق صوتهما سوى صوت دقات قلبي وهي تتزايد مع كل خطوة أخطوها في المسار الذي طالما رجوت تحقيقه، سُورٌ خشبي مصقول ببراعة أتحسسه بأصابعي بينما أنزل سلم السفينة بثقة لتطأ قدمي تلك الأرض المقدسة، حضر العوام لاستقبالي، أعدادٌ إن تزاحمت دقاتِ قلوبهم لَسُمِعت أصواتها من أقصى بحر الشمال، أراهم بعيني ولكنّني لا أشعر بهم، لا أسمع لهم صوتًا على الرغم من هتافاتهم بالترحيب بي.

لا أرى ولا أسمعُ الآن سوى، أنا، نعم، أنا !

أنا مَن أنت في صمتٍ، ومعَ صمتي صخت الأفق بأفكارِ مَن حضروا ليشهدوا لحظةَ وصولي

أخطو ببطء وثبات على ذلك الممر الحجري المتوجه إلى قصر الحكم، نسمة باردة أخذت تُغازلني كي تُخفف عني عناء الإبحارِ بعض الشيء، فأشعرُ بأطراف ثوبي الأزرق وهي تتساب لتنافس خصلات شعري في حريته، رحلةٌ استمرت طويلاً حتى أنت بي إلى هذا المكانِ المهيب المعالم، ربما هيَ ساعات، ربما أيام، ربما شهورا أو أعوام تفصلني عن لحظةِ بدئي هذا الطريق، لا أدري !

حضرَ الجميعَ - بسبقهم فضولهم - مِن شتى أركانِ المملكةِ ليحظوا بشرفِ النظرِ إليّ، أكادُ أسمعُ تساؤلاتهم التي لا تجرؤ أن تتجاوزَ حراسَ شفاههم، ولكن ترسمها أعينهم في لهفة، فحَرّاس أعيُنِهُم لا يَستَطيعُونَ صدَّ سِحرِ إطلالَتي.

فأنا هنا، لقد أتيت، لقد جئتُ لأرض من سبقوني بهذا العالم لَتُخلّد أسمائهم

- "ها هي"

جملة قصيرة ترددت كثيرًا بأعداد من قدموا من سائر البلاد لرؤيتي، بالكادِ شقت أصواتهم الخافتةُ حاجزَ الفراغ المحيط بي لتصل إلى مسامعي، ترددت كثيرًا ومعَ ترددها ازدادت ثقتي بنفسي وكأنما كانَ في تعدادها أوزان تثقل قدمي وأنا أسيرٌ في هذا البهوِ العملاقِ من الأعمدةِ على مرأى ومسمعٍ من الجميع، كان الموقف أكبر من إحتمال أي امرأة ، ولكنّني، لست أي إمرأة ! أنا القوة في جَسَدِهَا الفاني، أنا من تُبطِلُ مرور الزمن بحضورها فتحسبه سَاكِنًا، أنا التاريخ في سُطُورٍ من ذهب، أنا الجمال الأسمر، أنا من سَتُنحَت صورها على هذه الجدران لتُخلّد.

أشعرُ بالقوة وكأنما أنعم عَلَيّ "أمون" بِجُزءٍ من روحه.

ها هوَ الملكُ يقفُ أعلى درجِ القصر في انتظارِ وصولي، عيناهُ تسبقانِ خطواتي، فتَحِلّ محلَ قدمي كي يستعجل لقائنا، لم يحيدَ بنظره عني، وكأنما يخاف أن يمرّ عليهِ الوقتُ دونَ أن يأنسَ بصورتي التي وهبتني إياها الآلهة، لا يحولُ بيني وبينَ ما ابتغيه الآنَ سوى هؤلاءِ الكهنةِ المصطفّينَ خلفهُ، يراهم في بنيانهم كالحصنِ يحتمي بهم، وما أراهم أنا سوى بعضِ العقباتِ التي ستذلّل تحتَ قدمي في سبيلِ الهدفِ الأسمى.

جئتُ بكامل أنوثتي وعتادي مَعًا، فاليومَ أنا مستعدةٌ للمعركةِ الجامعةِ بينَ ملامحِ القلوبِ التي تعشقني، وذَوِيُّ السيوفِ والدروعِ مِن حولي، لن يقفَ شيءٌ بينيْ وبينَ ما أسعى لتحقيقهِ وستكونُ أولُ المعاركِ هيَ طقسُ البدءِ في مراسمِ التتويجِ (مصارعة الثيران) !

جئتُ بثوري وجعلتهُ يسيرُ بجانبي، فقد قمتُ بتربيتهِ بيدي وسيُصارعُ لأجلي اليومَ ليضعَ تاج (كمت) على رأسي، وكأنما يكافئني على رعايتي لهُ منذُ صغره، خطوة تلوَ الأخرى تجعلني أقترب، ومعَ اقترابي يرتفعُ رأسي لأرى عرشي، فارتفاعهُ دليلٌ على مكانتهِ وقوتهِ، تلكَ القوةِ المفرطةِ التي يتحكمُ بها كهنةُ آمون مِن خلفِ ستارٍ مغزول مِن أكاذيبِ المعبد

اليوم هو اليوم المنشود ! يوم جلوسي على هذا العرش بجوار الملك، يوم تتويجي ملكة لأقوى حضارات العالم، فقد أتيتُ، أتيتُ لأتوج نفسي ملكةً.. ملكة ل (كمت) ...

- "يا وزير (أي)"

التفتَ الوزيرُ إلى الملكِ ثمّ بدأ في التقدم إليهِ في خطواتٍ ثابتة، فبينَه الكبيرِ وصلةُ القرابةِ بينهما تُخول دونَ أن يُبديَ اهتمامًا زائدًا في تلبيةِ النداء، كانت هيبةُ الوزيرِ تطغى على مَن حولهِ من الحاشية فمَن لم يكن يهابهُ كانَ يرتعدُ خوفًا مِن ملامحهِ الحادةِ التي تَنمُّ عن حكمةٍ لم تأتِ من حياةٍ بسيطة الأحداث

- " نعم، سيدي "

- " فلتعلن مراسم التتويج "

قالها الملك وهو يتابعني في طريقي اليه في ذلك الموكبِ المهيب

- " سيدي، ألا يجبُ أن نشاورَ كهنةُ المعبد ؟ "

لم يلتفت الملكُ إلى ما قالَ الوزيرُ بل ولم يبدِ أيّ تعبيرٍ على الإطلاق

- " سيدي، لا يجبُ أن نعاديَ مَن يملكونَ قلوبَ الشعبِ بأيديهم "

أثارت الجملة الأخيرة إهتمام الملك فنظر إلى وزيره وهو يشير إليّ بهدوء، وزهو مَعًا

- " أنظر إليها يا وزير، أترى ما أرى "

Visual Watermark

- " نعم سيدي، أرى أجملَ من رأت الأعينُ، إنها الجميلةُ بلا مثيل "

- " أكثرُ من ذلك يا وزير، أترى كيف ينظر الناس إليها ؟! لقد عشقوها، هي من ستملك قلوب الشعب إن لم تكن قد ملكتهم بتلك الإطلالة بالفعل، فلْتُعلن مراسم التتويج يا وزير وسيشهد عليها الكهنة رغماً عنهم، فهذا الجمال الأسمر الهادئ في صورته بمثابة ألف سيف في قلوب من سيحاول كسب عداوتها، فلْتُعلن مراسم التتويج فإنّ جميلتي قد أتت "

في تربّصٍ بالغ اقترب الكاهنُ الأعظمُ من الملك فلم يعتدْ منهُ ذلك الثبات في اتخاذ القرار وكأنّ الملكَ قد استمدّ قوةً خفيةً باقترابٍ منهُ

أنا تلك الثائرة السائرة نحوَ البلاط الملكي !

- "مولاي (أمنحوتب الرابع) قد أمر ببدئ مراسم التتويج يا وزير"

قالها الكاهنُ الأعظمُ مخاطبا الوزير بنظرةٍ غائرةٍ، لا أعلمُ إنّ كانت مرأةً لما يخفي في باطنهِ من قلقٍ وتربصٍ مع اقترابي، أم هي مجردُ محاولةٍ منهُ في إخفاء غضبٍ عينيهِ لتفادي إيصالِ أي شعورٍ بالتحدي إلى الملك، فذلك قد يبطلُ خطتهُ التي بدأ في حياكةِ ثوبها بخيوطٍ من سم الأفعى (وادجت) ابنة (رع) وحاميتهُ

فالخطةُ قد بدأت منذُ أن عَلِم من غَصَبه في القصرِ باختيار (إمنحوتب) لي لأكونَ ملكتَه.

نظر الكاهنِ إلى الملكِ مُستجديًا ثقتهُ قائلاً

- " سيدي، لقد اعددنا حلية المصارعة منذ أن أعلَمتنَا بقدوم سموها "

لم تنطلِ تلكَ الحيلةِ القديمة على الملكِ ولم يكن يريدُ أن يُعكّرَ صفوَ تلك اللحظةِ لأي سببٍ، حتى وإن أدى ذلكَ إلى إغضابِ كهنةِ المعبد فكانَ يعلمُ جيدًا ما يضمرُ الكاهنُ لهُ من غضبٍ، فتعمّد تجاهلهِ ليؤجل أي نقاشٍ بينهما إلى ما بعدَ التتويج، لم يَلقَى الكاهنُ من الملكِ الاستحسان المتوقعِ، وتيقّنَ انّ سيطرةَ المعبدِ على العرشِ أصبحت مهددةً، فكانَ يرى إمامةَ بذرةِ عهدٍ جديد غير مسبوق في تاريخ (كمت)، عهدٌ بلا معالمٍ واضحة بالنسبةِ إليه سوى أنّ حُكم (كمت) بدا أبعدَ مِمّا سبق، ذلكَ الحكم الذي يزدادُ ابتعادًا في خياله معَ وصولي لأعلى درجِ القصرِ، فعندئذٍ سيتلاشى آخر خيط يربطهُ بما تبقى لهُ ولكهنةِ آمون من قوة في هذا البلدِ الغزيرِ الخيرات

استفاقَ الكاهنُ على صوتِ نفيرِ الأبواقِ دلالةً على وصولي بجوارِ الملكِ، حينها علمَ أنهُ يجبُ عليهِ أن يجدَ نقطةَ البدءِ المناسبةِ لتنفيذِ خطتهِ طويلةَ المدى لسحبِ مقاليدِ الحكمِ مُجَدّدًا مِن بينِ أيدينا وارتسمت تلكَ الابتسامةِ على وجههِ الأملسِ، ابتسامةٌ أفعى بلا شفاهٍ، ومعَ ابتسامتهِ التفتَ إلى باقي الكهنةِ ليأذنَ لهم بتقديمِ الهدايا إليّ : أنا ..

ملكة (كمت)..

مؤقتا ..

Visual Watermark

الطفلة جميلة

المكان .. العاصمة باريس

الزمن .. عام ١٩٩٠

- " الجميلة أنت "

قالها وهو يُهَلِّل فَرِحًا رَافِعًا زِرَاعَيه، كأنما يحاول أن يُمسك قرص الشمس بيديه ليهديه إليّ، فطالما كانَ للشمسِ ذلكَ السحرِ الخاصِ عليهِ، أكادُ أجزمُ أنهُ كانَ ينظرُ إليها أكثرَ مِمَّا كانَ ينظرُ إلى أمي التي أنا على يقينٍ بحُبه الشديد لها

- " الجميلة أنت "

يقولها لي في كل مرة أدخل عليه غرفته، فهو دائمًا يسعى في بث السعادة بقلبي عن طريق وصفي بالجمال المطلق، لم أكن أعلمُ حينها ماذا كانَ يقصدُ بهذا الوصفِ بالتحديدِ فكنتُ أعتقدُ أنهُ يحاولُ مداعبةَ إحساسي الطفولي بالأنوثةِ أو أنَّ هذا ببساطةٍ أسلوبهِ في التعبيرِ عن فرحتهِ برؤيةِ ابنتهِ الصغيرة، أما أنا - فكأي طفلة صغيرة - دائمةُ الغيرةِ عليه !

فيصلُ بي الأمرُ أحيانًا إلى أن أصاحبهُ إلى عملهِ بالجامعةِ الفرنسيةِ بهدفِ خبيثٍ ؛ وهوَ أن أجعلَ تلميذاته يرونني أسيرِ بجوارهِ وأنا املأ صدري بالهواءِ وأرتقي إلى أطرافِ أناملي في تخيلٍ مِنيّ أنني بذلكَ قد أبدو أقوى مِن حقيقتي، لعلهنَّ تخافنَّ مني وتنصرفنَّ عنهُ.

وفي يومٍ أثناءَ توجهي إلى غرفتهِ بالمنزلِ، سمعتهُ يتحدثُ إلى شخصٍ ما في خلوتهِ !

كنتُ قد بلغتُ مِن العمرِ ما يؤهلني لتصورِ أنَّ أبي يتحدثُ إلى امرأةٍ أخرى غير أمي، مِمَّا أثارَ في قلبي الغيرةَ والغضبَ، وكادَ هذا أن يحطمنيَ ولمْ أستطيع الاستمرارِ في العيشِ بضبابِ عقلي الخصبِ، فباغتهُ في غرفتهِ صائحةً:

- "أبي !"

وفي لحظةٍ تحطّمت أوهامي كالموجِ الهائجِ على صخورِ جَرفٍ قديمٍ، فكانَ هناكَ يجلسُ وحيدًا في مواجهةِ نافذةِ غرفتهِ المطلةِ على إحدى طرقاتِ العاصمةِ الفرنسيةِ العريقة، لَم يلتفت إليّ وكأنه لمْ يسمعني.

اقتربتُ منهُ بهدوءٍ وأوشكتُ أنْ أوجهَ أسفي إليهِ بسببِ مباغتتي لهُ بهذهِ الطريقةِ الغيرِ معتادةٍ منيّ، ولكنهُ تكلمَ قبليّ في شرودٍ ملحوظٍ قائلًا:

- " الجميلة أنت "

- " أبي، لقد سمعتك تتحدث "

كانَ أبي ثابتَ النظرِ باتجاهِ قرصِ الشمس، لَم تكن الشمس حارقة، بل كانت في أضعف حالاتها، كانت تكتُب السطور الأخيرة لها في هذا اليوم المُنقضي، فتُرسل لمن يراقبونها آخر نبضات قوتها لعلها تستطيع مدهم بالطاقة اللازمة لإجتياز الليل من دونها، بدأ القلقُ بداخلي في التهام ما تبقى لديَّ مِن صبر، فسألته مرة أخرى

- " أبي، إلى مَن كنت تتحدث ؟ "

ظلَّ مُحَدِّقًا في قرصِ الشمسِ حتى وهِمتُ بأنهُ لَم يسمع سؤالي، لكنهُ باغتني بالردِ

- " أتعلمين لِما سميتك (جميلة) ؟ "

لَم يكن في حالتهِ المعتادةِ، لا أعلمُ لماذا لكنَّ التوترَ كانَ قد بدأ ينالُ مني حينَ سألتهُ

- " أبي، هل أنت بخير ؟ "

نظر تجاهي وكأنما يراني لأولِ مرةٍ وقال

- " لقد سُمّيت أسوةً بجدتك "

ارتفع حاجِبي في دهشةٍ عارمة لَم أكن أحاول إخفائها، فقد كانت إجابته غامضة ومحاطة بتساؤلات كثيرة لَم أكن في حاجة للنطق بها، فقد رُسِمَت جميعها على ملامحي، فأكمل هو

- " نعم، جدتك يا جميلة .. جدتك .. الملكة ! "

قالها بقوةٍ وعشقٍ ممتزجين، فاقشعر لها بدني حتى حَسِبتُ أن هذه اللحظة لن تنتهي !

وقد كانَ ما حسبتهُ صحيحًا فهيَ لَم تنتهِ، بل كانت بمثابةِ إشارةِ البدءِ في طريقٍ كانَ مُمهدةً لي أبي طوالَ سنواتِ طفولتي

طريق البحثِ عن جدتي، طريق البحثِ عن الملكة !

Visual Watermark

جميلة

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

مطارُ القاهرة، لم أكن أتخيلُ كلَ تلكَ الأعدادِ بصالةِ الوصول..

أراهم كعُقدٍ مفروط لا تعداد لحباته، أحلامٌ مُتناثرةٌ يسعونَ إليها كُلٌ منهم في طريقهِ، فلا أجدُ مَن يلتفت إليّ سوى طفلةٌ صغيرةٌ تتشبثُ بيدِ أمها بقوة، فهذا حقها المشروع في التصدي لهذا السيلِ الغاشمِ من البشرِ المبعثرون.

تتشبثُ لتأمنَ غدرَ العقباتِ التي تتربصُ بها، حتى تصلَ سالمةً إلى أحضانِ أبٍ يقفُ بعيدًا متلهفًا فاتحًا ذراعيهِ ليحتضنَ بهما عالمًا لا نهايةَ لهُ

نعم، فهي عالمُه، هي كُل شيءٍ لديه، هيَ مَن سيتبقى منهُ بعدَ رحيلهِ عن هذا العالمِ، تصلَ إليهِ بعدَ تعثُرٍ ليجلسَ لها هوَ أرضًا مُستجيبًا للهفتها عليه..

أتابعُ المشهدَ في صمتٍ وأتذكرُ أبي، كم أتوقُ إلى رؤياكَ يا أبي !

مازالَ صوتكَ يتخللني وأنتَ تعتقلُ بدخولي عليكَ في محرابِ أبحاثكَ بقولكَ المعهودِ (الج...)

- " دكتورة جميلة ؟ "

لا أستطيعُ أن أقولَ أن السؤالَ قد فاجأني، فقد كنتُ في انتظارهِ ولكنَ توقيتهُ المباغتَ أرغمني على سحبِ نفسي بصعوبةٍ من مجلسِ والدي في ذهني إلى واقعي

استدرتُ لأجدَ ذلكَ الشابَ الطويلَ ينظرُ إليّ بابتسامةٍ زائفة تحاولُ رسمَ نفسها بصعوبةٍ على وجههِ الشاحبِ، مراوغةٍ مدروسة يتعلمها مَن عاقَ في هذهِ الدنيا متحصنًا بمبادئهِ ليُنالَ لقمةَ عيشٍ شريفة

- " نعم، أنا هي "

- " حمدًا لله على سلامتك "

قالها وهوَ يمدُ يديهِ إلى حقائبي ليحملها عني لكنني سرعانَ ما لاحظتُ ضعفَ بنيتهِ فتمسكتُ بإحداها لأخفف عنهُ بعضَ الشيء

- " ما اسمك؟ "

- " محمود يا دكتورة "

قالها متوجهًا إلى موقفِ السياراتِ حيثُ توقفت سيارةٌ فارهة تدُل على اهتمامٍ واضحٍ بالاحتفاءِ بي من قِبَل مُستضيفيتي، فطالما تخيلتُ تلك اللحظةَ مرارًا وتكرارًا، لحظةُ عودتي إلى وطني الأم بعدَ مرورِ كل تلكَ الأعوامِ في الغُربة

تحركت السيارةُ ومعها تضاربت مشاعري ما بينَ حماسِ العودةِ إلى الوطنِ والخوفِ من الفشلِ فيما أتيت سعيًا إليه، قررتُ أن أتناسى تلكَ المشاعرِ للحظاتٍ، فلديَ وقتٌ كثيرٌ للقلقِ فيما بعد، وكانَ محمود بمثابةِ المهربِ الوحيدِ لكسرِ حاجزِ الصمتِ المطبقِ على السيارة، فسألتهُ:

- " من أين أنت يا محمود "

- " من القاهرة "

- " أتعلم مَن أنا ؟ "

رمقني بنظرةٍ خاطفة في المرآة وكأنما يحتاج إلى أن يتأكدَ مني مرةً أخرى قبلَ الإجابةِ على سؤالي، لكنني لم أترك لهُ الوقتَ ليفكرَ كثيرًا فأكملت

- " هل تعرف معلومات عن كيف وجدوها ؟ "

لم يُظهر محمود أيَ بادرةٍ توحي بأنهُ على مشارفِ الرد، كلُ ما فعلهُ هوَ أن استمرَ في القيادةِ بمنتهى الجيطة، كالآلةِ التي تنفذُ تعليماتٍ ثابتةً بعدمِ تخطي حدودهِ بالاختلاطِ معي، فما كانَ مني سوى أن التزمت الصمت، فالرحلة مازالت في بدايتها

فلنكن هنا ..

البداية ..

Visual Watermark

الفصل الثاني

الحارسة

جميلة

المكان .. القاهرة - قاعة المؤتمرات

الزمن .. الآن

ظلام. لا أرى شيء سوى الظلام بعيناي مغلقتان، أحاول إسترجاع أدقّ تفاصيل البارحة للمرة الأخيرة، لا أعلم إن كنت جاهزة أم لا، ولكن لا مفر الآن، لقد جاءت اللحظة المناسبة، جاءت غير مدعوة، جاءت فارضة نفسها على الجدول الزمني للأحداث، وكأنها هي مدفوعة علينا لكشف ما حاول الزمن إخفاء أعيننا عنه لآلاف الأعوام

- " دكتورة "

جاءت الكلمة من بعيد جدًا حتى أنني ترددت في أن أعير قائلتها انتباهًا

- " دكتورة، لقد إكتمل الحضور، نحن في انتظارك "

إصراره على إبلاغي نيهي بأنّهُ ليس سوى مرسال مَسؤول أمام رؤساؤه بأن ألتزم بميعادي، لازمني (محمود) منذ وصولي إلى مصر، وكانَ على قدرٍ كبيرٍ من عزّة النفس، حتّى أنّ كبرياؤه يأبى أن أُوَجِّه إليه أي أمر فكان دائم المحاولة في إستنتاج احتياجاتي دون إشارة مني.

كعادته حملَ حقيبتي وبدأ في السير أمامي في ذلك الممرِ الضيق ذو النهايةِ الواحدةِ، أرى مَن يقفونَ في استقبالي ولكنّ عقلي مازالَ يحاولُ إدراك رهبةِ ذلك المشهدِ، فمازال بداخلي تلك الفتاةِ الصغيرةِ التي هاجرت معَ أهلها إلى فرنسا، وهناك تعلمتُ بالطريقةِ الصعبةِ، تعلمتُ التكيفَ معَ الظروفِ المحيطةِ بها، فمنذُ وصولها وملامحها الشرقيةِ كانت تشكّلُ عائقًا بينها وبينَ من أحاطوا بها، فكانَ قرارها أن تتغلبَ على ذلك بأن تكونَ هيَ نفسها صلةَ الربطِ بينَ عالمي الغربِ والشرقِ

طفلة جميلة، ليس الجمال الملفت للأنظار وإنّما جَمَال من نَوعٍ آخَرَ، جمال سحري، ذَلِك الجَمال المَمزُوج مِن سِحر وغُموض وجاذبيّة مافِي الشَّرق وقُوَّة ولانهائيّة احتمالات حاضِر الغرب، جمال طالَما ذكره والدها عَلَى أنَّهُ هِبَةٌ لها مِن وطنها وهديّةٌ لها مِن جدّتها ليُخَلِّد ذكراها، لا لَن يكونَ جمالها وسيلة لِاستمالة قُلُوب مَن حولها، سيَكون عقلها، سيَكون بحثًا في أصولها، سيَكون في عِلمِها رَدّ الاعتبار المُناسب لكُلّ امرأةٍ مِصريّة، تِلكَ المَرأةِ التِي حكَمت هذا الكوكب مُنذ بدء الحضارات.

طفلة جميلة أخَذت على عَاتِقها أن تُقَدِّم رسالة إلى كل مَن يَنظر إلَى الشَّرقِ بدونية، رسالة في قُوَّةِ يَضابِها تَحتَسِبُها مبنيّة بِأحجَار مَعابِد أجدادها، فلا جدال حول مضمونها، رسالة تقول أنا (جميلة)، حفيدة نفرتيتي وإخناتون، أطالِب بِإستعادة مكانتي بَينَ المُلوك، لَيسَ في حُكم أو نُفوذ، بل في الإمارة، فلتَتَوَجُوني بينَ النِّسَاءِ أميرة، فأنا أُنثى مِصريّة !

استفقتُ من ذكرياتي مع إقتراب نهاية الممر، فَلَا مَهرَب الآن سِوَى اجتِيَازه إلى مَا قُدِّرَ إِلَيّ، تَزدَاد أصوَات هَمهَمَة مَن حَضَرُوا ليستمعوا إلى مَا أعددت لَهُ مُنذُ البَارِحَة، لم يكن لدي الوقت الكافي لإتقانه، ولكنه سَيَفِي بالغرض مؤقتا

- " أيها السادة الحضور، يُشَرِّفُنِي أن أقدّم لكم عالمة المصريات، دكتورة (جميلة إبراهيم) "

قالها مُقَدِمي ونظر إليّ مبتسما، لا أعلم هل هي إبتسامة تهنئة على ما حقّقته من اكتشافات في تاريخ الأجداد، أم هي ابتسامة استغراب كَوني لم أتجاوز الخامسة وثلاثين عاما في حين أن أغلب الحُضُور قد يتجاوزون ضعف عمري.

خُطُوَات ثَابِتَة أخدَع بِهَا مَن يُتابِعني قادتني إلَى مِنبَرِي، كُنت في مُنتصفِ دائرَة الضوء المسلطة عَلَى المَسرَح وكَانَ كُلُّ شيءٍ أمَامِي مُعتِم، لا أستطيع أن أرى من أتحدث إليهم ولَكِنّني أحسست بفضول يتكاثر في أذهانهم، فكُلّ منهم رسم في خياله رِوَايةً مُختلِفة أنا بطلتها، فما كان أمامي سِوَى أنْ آخذ نَفسًا عَمِيقًا وأتحدّث إلَيهم

***

" من نحن ؟

سُؤال فَلسفي لا تَكفِيه محتويات مَكتبة الإسكندريّة القديمة كاملةً لإيجَاد إجَابَة مُقنِعة له، هل لهذا السؤال إجابة تُشبِع نَهَم عُقُولنا في التَطَلُّع إلَى المزيدَ مِن المَعرِفَة ؟!

لَم يَكُن أمامي سوَى أنْ أضيق نِطاق السؤال في إطار بَحثي ليكون أكثر دقة وموضوعية فكان بَحثي في أُصُولي، وكانت أسئلتي هي.. من هم المصريون ؟ إلى أي مدى أستطيع أن أقول أنني أنتمي الى العِرق المصري القديم ؟ إلى أي زمن يتسلل العِرق المصري هاربا من هجمات العصور المختلفة لتغيير هُوِيّته ؟ أساتذتي الأجلاء،

على مر العصور كان الفضول هو المحرك الأساسي لكل البحوث، لطالما سعى الإنسان إلى إكتشافات جديدة يُعَضِّد بها سيادته لهذا الكوكب الذي نعيش به، بَحَث في الأرض والبحر والهواء، شَمِل بحثه كل ما تستطيع أن تطاله حواسه، ولكن كانت أصعب تحدياته هو أن يبحث فيما أخفاه الزمن عنه، عن ماضيه، عن حاضر من سبقوه، عَن فِصَص أجدَادٌ وطأت أقدَامِهِم نَفس هَذِهِ الأرض الَّتِي لَم تَبخَل علينا بشيء"

***

كُنتُ كلماتي وعقلي يضع بيني وبين الحضور سَيلاً من الصور المُتتالية، صور لأحداث لا أستطيع أن أضع تَفسِيرًا مَنطِقِيًا لها، فما حدث بالأمس يفوق إدراك أي إنسان !

***

المكان .. المنيا - الزمن .. اليوم السابق

لم أكن أعلم إن كان قراري صَائِبًا أم لا، كنت أدرك أن الطريق من المطار إلى هنا سيستغرق ساعات، لَكِنّني رفضت أن آخذ ولو بضع دقائق لأنفض عن نفسي إرهاق السفر،

فمنذُ أن وصلتني النتائج الأخيرةُ للبحثِ لم يغمض لي جفنٌ، فكيف لي أنْ أنام وأنا بصددِ اكتشافٍ أنري قد يكونُ هوَ الأهمّ في القرنِ الحالي

Visual Watermark

كانت تلك النتائج نتاجَ سبعة أعوام من الأبحاثِ والتنقيبِ المتواصلة، حتى فقد البعض الأمل في أن نجد شيئًا، ولكنّني لم أفقد الأملَ يوما، فكنتُ دائمًا ما ينتابني ذلك الشعور الغريب بأنني على الطريقِ الصحيح، لم يكن شعورا نابعا عن ثقةٍ بالنفس أو ممن هم قائمونَ على البحث معي، بل كانَ شعورا دخيلاً عليّ، كأنّ شيئًا ما بيننا بداخلي ليحثني على الاستمرار.

أخرجني من تفكيري بعض الاضطرابات في حركة السيارة نتيجةَ السيرِ في طريقٍ غير ممهدٍ بعد أن تركَ (محمود) الطرقَ الرئيسيةَ، التهبتْ إلى الطابع المعماري الفريد للمكان، كان يتميز بروح صعيدية مصرية مُشبّعة برحيق التاريخ القديم، كم تمنيتُ أن أتوقّف أمام تلك التكوينات الحجرية الأثرية المتناثرة على جانبي الطريق، ليسَ تعجبًا، ليسَ تعبدًا، بل تساؤلاً !

ما الذي أبقاكِ على ضفافِ ذلك النهرِ الخالد بصعيد مصر!

هل هيَ إرادةٌ منكِ أن تظلي حتى ألقاكِ، أم هيَ إرادةٌ من قاموا بتحنيطكِ على صورتكِ لتكونيَ شاهدًا على قوتهم منذُ فجرِ التاريخ !

هل أنا هنا صُدفةً أم بدعوةٍ منكِ لآتي إليكِ وتسردي لي حقائقَ حجبها الزمن عن أعيننا !

- " دكتورة، لقد وصلنا "

قالها (محمود) وهو يبرز تحقيقَ شخصيته إلى رجُلِ الأمنِ العابثِ الوجهِ أمامنا فأجبته قائلة

- " يالها من طريقة ليستقبلنا بها! "

- " لا تعيري الأمرَ انتباهًا يا دكتورة، فهُم هنا لحمايةِ المقبرةِ، فمعَ أي كشفٍ جديدٍ يتربصُ اللصوصُ بالمكانِ في محاولةٍ للنيلِ من كلِ ما خفّ وزنهُ وغلا ثمنهُ كما يقولونَ "

أشارَ رجُلُ الأمنِ إلى باقي أفرادهِ بالسماحِ لنا بالمرورِ، ولم تمر سوى لحظاتٍ حتى توقفت السيارةُ أمامَ أحدِ المنازلِ الريفيةِ البسيطةِ.

كانَ غبارُ الطريقِ مازالَ يعلو جانبيْ السيارةِ فلم أكن أستطيعُ تبينَ تفاصيلِ المكانِ، ولكنّني على الرغمِ من ذلكَ ومن الإجهادِ الذي بدأ يصيبني، لم أستطيعَ أن أصبرَ حتى تهدأ الأتربةُ ففتحت بابَ السيارةِ بصعوبةٍ ووطأت قدمي لأولِ مرةٍ أرضَ الصعيد، يا له من شعور ! لا أدري ماذا حدث لي ! هل لامست قدمي الأرضَ أمْ مازلتُ أُحَلِّق !

كل شيء حولي أصبح مختلف، فما أن لامست أقدامي الأرضَ حتى شعرت بتلكَ الطاقةِ الغامضةِ وهيَ تسري في جسدي، شعورٌ غريب بالقوةِ والنشاطِ الغيرِ مبرر، فكيفَ أشعرُ بهذا النشاطِ وأنا في سفرٍ منذُ بدايةِ اليومِ دونَ راحةٍ !

قُرصُ الشمسِ ساطعٌ للغاية، لا يمكن النظر إليه ؛ يمكن فقط الشعور بالدفء المنبعث منه، تتخللُ أشعتها مسامَ وجهي ناجحةً في أن تعيدَ إنشائي من جديدٍ

إحساس لا يوصف بأي لغة أتقنها ! فوصفه الوحيد غير منطقي بالمرة، وصف قرأته كثيرًا ولم أستوعبه قط، هل من المعقول أن أكون قد بُعثت من جديد !

كان في إنتظاري على بابِ المنزلِ رجلاً قصيرًا يرتدي جِلْه صيفية فاتحة اللون، وكان واضح عليه محاولات كثيفة لتغيير هيئته الأصلية، فكان سمار وجهه وملامحه يؤكدان على معيشته قاسية التفاصيل، لا يلائمان هذا المظهر المخادع ذو الأناقة المزيفة، خطا نحوي وهو يمدُ كفّه لمصافحتي قائلًا

- " (مصيلحي)، يا دكتورة، مرحبًا بكِ لقد كُنا في انتظارك "

إبتسمتُ له بصورة توضّح أنني لست هنا للتعارف، فطالت وجهه ملامح الحرج وإن كان من الصعب أن تجد تغييرًا واضحًا مع ذلك الشارب الكثيف الدال على تمسك شديد بملامح الذكورة الصعيدية.

استطرد قائلًا في تردد

- " تفضلوا من هنا، يا أهلاً ومرحبًا "

تبعته إلى غرفة داخل المنزل البسيط، لم يكن بالمنزل أي من دلالات الرفاهية، وكأن المنزل نفسه قد مَلّ من فقرهم فقرر أن يهديهم كنزًا ليكافئهم على اعتنائهم به، أشار (مصيلحي) الى تلك الفجوة في الأرضية قائلًا

- " ها هي "

اقتربتُ منها بلهفة تنافي توقعات من حولي، ثم إزدادت دهشتهم بنزولي إليها دون تردد، ممّا جعل (محمود) يستوقفني قائلًا

- " دكتورة، أليس من الأفضل الانتظار حتى يقوم فريق التأمين بعمله ؟ "

لم أستطيعَ تحجيمَ فضولي فأكملت طريقي إلى الأسفلِ، ولم يستطيعَ محمود أن يتركني وحيدةً معَ جرأتي، ففي لحظاتٍ كنتُ أنا ومحمود بداخلِ تلكَ الحفرةِ التي شقت طريقها من باطنِ الأرضِ إلينا

وعلى الرغمِ من صوت (محمود) المتوترِ نتيجةَ الظلامِ المحيط، إلا أنني شعرت بأمانٍ لم أشعر بهِ من قبلُ

فمنذ أن وصلت إلى مصرَ منذ بضعِ ساعاتٍ، كانت تلكَ أولَ لحظةٍ أشعرُ بها أنني بالفعلِ وصلت إلى وطني، إلى منزلي !

بدأتُ في تحسس الجدران المحيطة بنا، كان ملمس النقوش الهيروغليفية واضحًا كأنها كُتِبَت البارحة، وكانت تستمر في التوغل داخل الحفرة، ومع استمرارها استمر فضولي ينهش في عقلي، ممّا دفعني للاستمرار رغم تحذيرات (محمود) المستمرة

اشتدَ الظلامُ من حولي أكثرَ فأكثرَ في حينِ أنارَ لي الفضولُ الطريق

امتدت يدي إلى ما بعدَ النقوشِ الهيروغليفيةِ لأجد لغةً أخرى لا أعرفها، ومنها إلى أخرى، ثمّ إلى الفارسيةِ، ثمّ إلى أخرى، ثمّ إلى ال ...

- " (مصيلحي) "

صرختها حتى ظنّ الجميعُ أنني أصبتُ بشيءٍ

جاهَد (محمود) خوفهِ حتى وصلَ إليّ وأنا أوجّه سؤالي إلى (مصيلحي) بلهجةٍ حادة أحاولُ بها إخفاءَ اضطرابي

- " هل أدخلتَ أحد إلى هنا قبل وصولنا "

جاءني رد (مصيلحي) جازمًا بالنفي، ومع رده سرت في جسدي تلك الرعشة ؛ رعشة طفلة صغيرة تفتقد والدها وهي مذعورة، فما كان على الجدار هو جملة تعرفها تلك الطفلة جيدًا

Visual Watermark

جملة طالما قرأها لها والدها، تركتها معلقة في إطار خشبي في مكتبة والدها بفرنسا، لتجدها محفورة بعناية هنا على هذا الجدار بالرموز الفرعونية !

فتواجدي هنا الآن لا يمكن أن يكون صدفة

لا يمكن مطلقًا !

***

المكان .. القاهرة - قاعة المؤتمرات - الزمن .. الآن

*** |

" (ستعيش حياة جديدة لكل لغة جديدة تتكلمها، إذا كنت تعرف لغة واحدة فقط، كأنك تعيش مرة واحدة فقط) طريق طويل بدأ في فرنسا منذ خمسة وعشرين عامًا، بدأ عندما قرأت تلك جملة التي كانت معلقة في لوحة موضوعة خلف والدي في صومعة أبحاثه، فمنذ ذلك الحين أدركت أهمية الإكثار من اللغات التي يجب أن أتعلمها وعلى رأسها اللغة الهيروغليفية، لغة أجدادي.. ها أنا الآن في مُنتَصَف خريطة مصر، أقف في المنيا عاصمة الصعيد، عاصمة مصر في عهد إخناتون، أقف بمنتهى التواضع والدهشة أمام هيبة تلك اللحظة التي وجدت فيها تلك الجملة محفورة على جدار قُدِّر أن يتجلى لنا بعد أربعة آلاف عامًا من العُزلة "

(***

جاءني الرد مباشر من الحضور، ليس بالكلام ولكن بصمت مُطبِق على المكان دالًا على القبول.

فضول قوي لمعرفة تفسيري للحدث، وكيف لي أن أفسر ما عجز عن تفسيره فريق كامل متخصص في تحليل عمر الآثار، فبيدي الآن تقرير الفحص المبدئي للنقوش وهو يؤكد أن عمر تلك الجملة لا يقل عمرًا عن أي حفر آخر مجاور له.

فهو بالفعل يتجاوز عمره الأربعة آلاف عاما !

***

المكان .. المنيا - الزمن .. اليوم السابق

بدأت أعمال الفريق تُؤتِي ثمارها، فبعد أن إنتهينا من إنارة الحفرة كان الذهول يسيطر علينا، فكان المكان مُختلِف عن أي شيء رأيته أو درسته من قبل، كانت جميعُ النقوش ملونةً كأنها دهنت البارحة، وكانت منقوشةً بتلك الخطوط المتشابكة التي كانت تمرُ من حولِ العبارات المختلفة لتلتقيَ جميعها على حدودِ ذلكَ الجدارِ الأملسِ الشديدِ السوادِ أمامنا، جدار شديد النعومة بطريقة تعجز أكثر مُعِدَّات صقل الصخور تطورًا أن تنفذها!

كان لونه الأسود يوحي بعمق خادع للمكان، فكان يجب عليه نتيجة لونه الداكن ودرجة نعومته أن يكون بمثابة مِرآة تعكس تحركات كل من حَوله، ولكنه كان نقيض ذلك، فلم يكن يعكس أي شيء، بل وعلى الأكثر من ذلك، كان يقف ساكنًا مُرتقبًا كأن شخصًا أو شيئًا ما ينظر إلينا من خلفه.. ما الذي آل بكل تلك اللغات الغير معلومة إلى هذا المكان لتجتمع على جدار واحد شُيِّد منذ آلاف الأعوام ؟ إلى أين تقودنا تلك الخطوط المارة إلى ما بعد الجدار؟ ما الآليةُ التي كانت بحوزةِ من صنعوا هذا المكانِ ليضعوا ذلكَ الثقبِ الأسودِ المتمثلِ لكلِ شيءٍ في منتصفِهِ ؟!

مرت لحظات قليلة ثم غَلَبَنِي فُضُولِي ودَفَعَنِي بقوة نحو الجدار، أردت أن أتَحَسَّسَه بشدة ولم يمنعني خوفي لحظة، فما أنا بِصَدَدِه أكبر بكثير من بعض المشاعر الزائفة التي تدعوني إلى التَّمَسُّك بالحياة

- " كيف هذا ؟! "

قُلتها وأنا أكاد ألمس الجدار، فبمجرد أن لَمَسته بدأ في التحرك للخلف، أكاد أجزم أنني رأيت أكثر من شخص من فريقي يَلمِسه ولم يتحرك قط، وكأنه كان ينتظرني أنا لأدفعه حتى يستجيب طاعةً لي !

تحركتْ بعض خطوات لا أعلم إن كانت صامتة أم أن صوت دقات قلبي كان يعلو فوق صوتها، ممر قصير خلف الجدار يصلني بتلك الغرفة شديدة التكعيب لتكتمل بها تلك الخطوط المتشابكة في تلاحم يدعوا إلى الرهبة، فكانت تلك الخطوط تشرحُ تكويناتٍ نجميةً مختلفةً، بينها أرقامٍ كثيرة مكتوبة بماءِ الذهب، أرقام كتبت بالهيروغليفية وبعض الرموز الغريبة في تناغمٍ ملحوظٍ

لم يشغلني كثيرا تحليل تلك الأرقام فما كان يحيرني أكثر هو تلك المومياء المتواجدة في منتصف الجدار الذهبي المقابل لنا، فلم تكن كأي مومياء !

لم تكن نائمة ساكنة في تابوت مُرَصَّع بالنقوش والجواهر تنتظر أن تُبعَث في ثوبها الأبدي، بل كانت جالسة مُتَّكِئة على سيفها، مرتدية كامل عِتَاد الحرب وأنها في إنتظار قتال قريب، تجلسُ في تَحَفُّز وبيدها بردية تَعتَصِرُها بقوة، ومِن خلفها وفي مُنتصف الجدار تَجَلَى قرص الشمس بقوة مَنقُوشًا بِدقة مُتَنَاهية حتَى ظَنَنته سَيُضيء الغُرفة كاملةً، إقتربتُ منها ومع إقترابي إزدادت دَهشَتي، فكان واضح للجميع دون الحاجة للدراسة أن مُومياء المُحارب التي أمامنا ليست لمُحارب، بل لمُحارِبَة !

***

المكان .. القاهرة - قاعة المؤتمرات

الزمن .. الآن

*** |

"KV٣٥YL"

هو الرقم الكودي للمُومياء التي ظَنَّ البعض منذ زمن أنها المُومياء الخاصة بالملكة نفرتيتي، وبعد إجراء الإختبارات اللازمة عليها تأكدنا أن مازال البحث عن الملكة مُستَمِرًا

بالأمس ظَنَنت أنا أيضا للحظة أنني وجدتها مُتَّكِئة على عرشها كمحاربة، لَكِنَّني كنت مُخطئة، فَمَن وَجَدتها بالأمس كانت حَارِسًا أمِينًا لِرِسَالَة لَا تُقَدَّر بِثَمَن

إسمحوا لي أن اقتبس من كتاب (نظرية جديدة للتطور) للسير (آرثر كيث) حيث قال (المصريين الذين نراهم يؤلفون جسد الأمة المصرية اليوم هُم النسل المُباشر لمصريين عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد، وأن المصريين ليسوا فقط أُمَّة، إنما هم أقدم أُمَّة سياسية في التاريخ، وأنهم أيضا جِنس بَشَري مُستقل بكل معنى الكلمة)

أساتذتي الأجلاء، قد يظن البعض أنه بعدَ أكتشاف الأمس أننا انتهينا، أود أن أحيطكم علمًا أن ما وجدناه هو بالفعل نقيض ذلك.

Visual Watermark

أيها السادة، لقد ترك لنا أجدادنا رسالة، ظلّت في غياهب الظلام لا ترى نور الشمس لآلاف السنين، وكانت حارستها الأمينة معها مُمسكة بها بيدها لِتُسلِمها إلينا، كُتب بها ما يفيد بأننا على أول الطريق لإكتشاف جديد.

لا أعلم كيف، ولا أعلم لماذا ! ولكنني أعلم ما قرأت، لقد قرأت التاريخ المواقف البارحة مكتوب بوضوح على رسالة تجلّت لنا بيد حارسة تمّ تحنيطها في مقبرة منذ حوالي أربعة آلاف عام مَضت، نحن لم نتفهم، لقد بدأنا للتو! "

(...

صَمت الحُضور ومع صمتهم صَرخ عَقلي مُتسائلًا، فأنا لم أشارك أحد في مضمون الرسالة

لم أكن قد حَللت رُموزها بعد، لكن في قرارة نفسي كان لَدي ذلك الشعور الغريب بأن مَضمون الرسالة مُوجه إليّ ..

شخصيًا !

Visual Watermark

الفصل الثالث

بحر الليمون

جميلة

المكان .. الأسكندرية

الزمن .. الآن

سماء صافية ..

هي مَهرَب لي من سَجنِ أفكارٍ وتساؤلاتٍ كثيرة، أسرح بخيالي و أنا أنظر إلى قرص الشمس، ذلك الكيان المهيب المضئ في منتصف السماء، أراها و أتغزل بها كما كان يفعل أبي، أشعر أحيانًا أنها تنظر إليَّ بطريقتها الخاصة حينما تجعلني أشعُر بسحر حرارتها على جبهَتِي.. أتَتَّبِعينَني ؟! أم أنك فقط مُلتزمة بدورك ؟! ذلك الدور الذي رأى فيه العديد على مر العصور قدرًا كبيرًا من العظمة التي ارتقت أحيانًا إلى تأليهك، أنزلتْ نافذة السيارة لأحظى ببعض من رحيق البحر، فلا أستطيع أن أشعر به وأنا أراه من خلف ذلك الساتر الزجاجي الشفاف في ظاهره، والمانع لباقي الحواس في باطنه، كانت أمواجُ البحرِ هادئةً، لا أعلمُ إنْ كانَ احتفاءً بزيارتي الأولى إلى الإسكندريةِ أم هدوءِ الترقبِ لما هوَ قادمٌ من أحداث

توقفت السيارةُ أمامَ مبنى قديم اكتسب حقه في البقاء، ظلَّ يواجه قسوة البحرِ وعواملَ الزمن لأعوامٍ كثيرة تجاوزت سنواتِ عمري، حاولت الشقوقُ الخبيثة خلالها كسر عزيمته في أن يظل صامدًا، في حين نجح هو في التمسك برحيقِ التصميم اليونانيِ القديم كدليلٍ ملموس على أصالةِ هذهِ المدينةِ التاريخيةِ واستقطابها لعاشقي السحرِ على مختلفِ العصورِ، بابٌ مدخلٍ مرتفعٍ جدًا أعبرُ من خلالهِ إلى بهوٍ صغيرٍ بهِ سلمٌ مطعمٌ ببعضِ المشغولاتِ الحديديةِ والخشبِ القديمِ المشبعِ برائحةِ البحرِ المالحِ، فتخالهُ سلمُ سفينةٍ قديمة زهدت الترحالَ وجنحت لترسوَ هنا، ثلاثةُ أدوارٍ صعدتها خطوةً بخطوةٍ لأجد نفسي على أعتابِ بابٍ أولِ الخيطِ، بابٌ لا يقلُ عمرًا عما يحيطُ بهِ حتى توجستُ خيفةً من أنَّ اطرقهُ بقوةٍ فأكسرهُ، فما أن هممتُ أن أفعلَ ذلكَ حتى فُتحَ بابٌ آخرُ بنفسِ الطابقِ فجأةً باعثًا إضاءةً شمسٍ قويةٍ من خلفهِ كانت السببَ في إخفاءِ معالمَ من وقفت ثابتةً في منتصفهِ وهيَ تدعوني للدخولِ قائلة:

- " اعذريني، لم أتعمّد اخافتكِ، فقد سمعت خطواتكِ على السلم "

قالتها وتحركت خطوةً إلى داخلِ شقتها ومعَ تحركها كشفت الشمسُ معالمها

ذلكَ الشعرِ الأبيضِ الناعمِ الكثيفِ المصففِ في أناقةٍ واضحةٍ بعدَ أن عقدت جزءً منهُ وأطلقت ما تبقى لتعكسَ تلكَ الطفولةِ الشقيةِ الكامنةِ في خفاءِ خلفَ هيبةِ عمرها، بدأت تتقدمني في هدوءٍ بعدَ أن طلبت مني إغلاقِ بابِ الشقةِ خلفيّ، لم أستطيعَ أن أقاومَ فضولي المعهودَ، فأخذتُ أدرس معالمَ شقتها بعيني طوالَ رحلتي خلفها إلى الشرفةِ المطلةِ على البحرِ، كانَ الطابعُ اليونانيُ القديمُ قد شتتَ انتباهي عن عواملِ الزمنِ المؤثرة بالمكانِ، مزيجٌ من الألوانِ البسيطةِ الزاهيةِ معَ صورٍ ومتعلقاتٍ قديمةٍ لأشخاصٍ رحلوا عن عالمنا تعبرُ عن تمسكِ صاحبتها بماضيها، أشخاصٌ أنا أعرفُ بعضهم، فقد كانت (ماريز) رفيقةَ والدي في أبحاثهِ في مصرَ وكانت من أكثرِ المؤرخينَ تمكنًا لسردِ قصصِ الأجداد.

كانت الشرفةُ ذاتُ السياجِ الحديديِ المشغولِ نموذجٌ مصغرٌ لحديقةٍ متناسقةِ الألوانِ استطاعت أن تجعلَ منها ملاذٍ آمن للخلوةِ بالنفسِ بعيدًا عن عالمٍ ضمرت بهِ الحواسُ، يحركُ نسيم البحرِ شجيراتها ليطلقَ رحيقَ زهرِ الليمونِ مداعبًا مشاعرَ كل من يجلسُ بها، فتعودُ بهم الذكرياتُ إلى حيثُ يريدون

- " لم أتعجب كثيرًا عندما أخطرني مندوب البعثة برغبتكِ في لقائي "

قالتها وهيَ تمررُ لي كوب من الشايِ الساخنِ كانَ مجهزًا من قبلُ وصولي، ثمَ أكملت

- " فعندما سمعت بما دار بالمؤتمر علمت أنك قد تحتاجين إلى مساعدتي "

نظرتُ إليها في دهشةٍ حاولت إخفاؤها وأنا اسألها

- " وبم تفسرين أمر الرسالة "

- " أيمكنني الإطلاع عليها ؟ "

قالتها دونَ أن تبدي أيَ اهتمامٍ زائد، فكلُ ما فعلتهُ هوَ أنَ ظلَّت ممسكةً بكوبها وهيَ تفركُ قمرةَ ليمون بيدها الأخرى، ثم نظرت إلى عيني مباشرةً وهي تستنشقها برفق، حينها تنبهت إلى ملامح وجهها، لقد كانت غريبة الملامح شرقية اللون ! أعينها بلونِ البحرِ من خلفها معَ لونِ بشرةٍ خمريّ كلون القمح

- " بكل تأكيد، ولكن لا أعلم ما قد تستنتجين منها، فمضمونها يضاهي ظروف إيجادها في الغموض "

تركتُ حقيبتي أمامي ومددتُ يدي إلى جيبي مخرجةً صورةَ صورتها للرسالة

فلن أخاطرَ بأن أتجولَ بهذا الكنزِ المجهولةِ قيمتهُ، ولا أعلمُ أينَ ومتى قد يزاحُ الستارُ عما يخفيهُ، لذا وجبَ الحفاظُ عليهِ آمنا

وضعت (ماريز) نظارتها الطبيةُ لتقرأ ما تناولتهُ مني، وما هيَ إلا لحظةٍ حتى لمعت أعينها كأنها فنديلًا مضيء ! فمن المؤكدِ أنها رأت شيء مألوف لها، شيء لم أستطيع استنتاجه وحدي

عادت لتُحَدِّق بي بأعينٍ مشبعة بالحيرة والدهشة

Visual Watermark

- " نفرتيتي ! "

أصابني الاسمُ بالرهبةِ للحظةٍ ولكنّني تماسكت جاهدةً لكي أدفعها لتكمل ما توصلت إليه، فأكملت هيَ ولكنّ هذهِ المرة كدت أرى دموعًا تتصارعُ لتبقى بداخلِ عينيها

- " يا إبنتي، إن نفرتيتي .. تستغيث ! "

الملكة

المكان : العاصمة القديمة (طيبة) - قصر الحكم

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

أجولُ في تلكَ الأروقةِ المترامية الأطراف.

كم من أيامٍ مرت عليّ وأنا أنحيلُ نفسي هنا، لم يطرق الشكُ بابَ قلبي قطّ، كنت دائمةَ الثقة بما ستؤولُ إليهِ مجرياتُ الأمورِ لتصنعَ لي مساراً إلى حكمِ (كمت) وها أنا، ملكة (كمت)، جاء دوري لأكتب سطوراً جديدة في التاريخ، لا أدري من أين بدأت السير أو إلى أين سيؤول مطافي، أسيرُ وأنا أنظرُ إلى من لا يجرؤونَ على النظرِ إليّ، أشعرُ ما يشعرون به دون أن تنطق به ألسنتهم، أعلمُ ما ينهشُ في عقولهم من تساؤلاتٍ لن يجيبَ عليها سوى الزمن، فمنذُ أن توجت كملكةٍ تجسدُ ذلك الحاجزُ الشفاف بيني وبين من حولي، حاجزٌ شيدوهُ هم بأفكارهم، فوامةُ ليسَ الرهبةَ مني بقدرِ ما هوَ الخوفُ عليّ، لا أعلمُ لماذا لكنّني رأيتها في أعينهم جميعًا، رأيتُ تحذيرٌ مشحونٌ وحارسةٌ غيرُ معلومِ الهوية، من أين يأتي الخطر، أهيَ الملكةُ الكبرى والدةُ زوجي، أم هوَ ذلكَ الوزيرُ ذو الملامحِ المنحجرة، أم هم كهنةُ آمونَ ما يحسدون من آلهةٍ بسلطاتٍ تزهقُ من يخالفهم؟!

يدركني ذلكَ الشعورُ القويُ بأنني مراقبة، وكأنّ من يراقبني هو تلكَ النقوشُ المحفورةُ على الجدران، ظللتُ أسيرُ حتى وجدت نفسي أمامَ مكتبةِ القصر، توقفتُ لحظاتٍ وأغمضت عيني، وددت أن استنشقَ رحيقَ الماضي المنبعثَ منها، ذلكَ المتمثلُ في مخطوطاتٍ من رسموا لنا الدربَ لنصلَ إلى ما وصلنا إليهِ من علومٍ وأدب، كم هائلٌ من أعظمِ العقولِ التي حاصرت مختلفَ الأزمنة، إجتمعت جميعها في مكانٍ واحد، أكادُ أسمعُ تلكَ المخطوطاتِ تتهامسُ فيما بينها لتتناظرَ ما تحملُ من دررٍ ونقود، فتحتُ عيني على أطفالِ القصرِ وهم يخرجونَ من المكتبةِ بهدوء، عقولٌ بيضاءُ لم تلوث بعدُ، ابتساماتٌ صادقةٌ تنمُ عن نقاءِ قلوبهم، أراهم مستقبلٌ يحاولُ دراسةَ ماضيه، يحاولُ التشبثَ به ليتحصنَ ممّا سيواجههُ حينَ يدوسُ عليهِ الزمنُ، فيصبحُ هوَ نفسهُ ماضٍ، حينها سيمارسونَ خلاصةَ رحلتهم على تلكَ الأرفف بجوارِ من سبقوهم، ما هي إلا حظواتٍ حتى أصبحتُ بداخلِ المكتبة، ألفُ عاقدةٍ يدي خلفَ ظهري في تأملٍ لتلكَ المخطوطاتِ الانسانيةِ المرصوصةِ بترتيبٍ مدهشٍ في دقته، تتعكسُ أشعةُ الشمسِ من الأرضِ الحجريةِ لتنسابَ في رقةٍ على الجدرانِ فتُظهرَ روعةَ تصميمها

لا تخجلُ الشمسُ من إظهارِ إصرارها القويِ على أن تظلَ المكتبةُ مضيئةً لأطولِ فترةٍ زمنيةٍ ممكنة، فمنحَ انقضاءِ الوقتِ تُحركُ أشعتها من ركنٍ إلى ركن، حتى يحينَ الوقتُ الذي تأذنُ لنفسها فيهِ بالانصراف، بعد أن تكونَ ساهمت في تغذيةِ أيِ عقلٍ نهمٍ للمعرفة، وإعطائهِ وقتَ أطولَ في الاستئناسِ بما يدرس

- " سيدتي "

قاطعتني الكلمةُ، ولكنّني لم ألتفت، فلم أكن قد رسمت على وجهي ملامحَ الشدة بعد، كنتُ مازلتُ متأثرةً بروعةِ الأطفالِ ورهبةِ المكان

- "سيدتي، لقد أرسلتِ في طلبي"

قالها الوزيرُ بنوعٍ من الحدةِ التي جاهدَ في إخفائها، فلم يكن يُجيد التصنعَ بالطاعة، كانَ يعلمُ أن مبرلتهُ عندَ زوجي تكفلُ لهُ ألا يمتثلَ لأوامري

ظللتُ أنظرُ أمامي دون أن ألتفتَ إليه، ثم قلت

- " بالفعل "

استدرتُ في هدوءٍ بعد أن ارتسمت ملامحُ القوةِ على وجهي، كانَ بينيّ وبينهُ تلكَ الطاولةُ الخشبيةُ الكبيرةُ التي يستخدمها روادُ المكتبةِ من باحثينَ وطلبة

كانَ واضحًا بأنهُ تعمدَ تركَ حرسهِ بعيدًا عندَ وصولهِ للقائي مع الإبقاءِ على كبيرِ الحراسِ على مرمى بصرهِ في مبادرةٍ منهُ لإعطائي بعضَ الأمانِ تجاههُ

نظرتُ في عينيهِ الحجريتينِ حينَ أكملت

- " فأنا أحتاجُ إلى مشورتكَ "

ارتفعَ حاجبهُ في دهشةٍ تنمُ عن عدمِ توقعهِ لما قلت ! ثم أشارَ بيدهِ إلى قائدِ حرسهِ بما يفيدُ أن يخرجَ ويؤمنَ بابَ المكتبةِ من الخارجِ كي لا يقاطعنا أحد، ثم قال

- " فيمَ تحتاجُ ملكة (كمت) المشورة؟ "

Visual Watermark

- " أشعُر بخطر قريب "

ازدادَ ارتفاعُ حاجبيهِ لحظةً قبلَ أن يقول

- " سيدتي، لقد أمرتُ منذ توليكِ الحكم بألا يرافقكِ حراسة، اتأمرينَ بأن يتولى الحرس مهام حمايتكِ داخل القصر؟ "

- " الخطر تخطى الحرس، أنا أشعر بقربه كالمسافة التي تفصل بيني وبينك "

- " ما الذي تشير إليه سيدتي ؟! "

قالها مع تغير ملحوظ في ملامحه يفيد أنه إستنتج ما أرمي اليه، فأكملت

- " كنتُ أحتاج الى مشورة كيف أحمي نفسي منك ! وبعد تفكير كثير لم أجد أسهل وأصدق من أن أسألك أنت، وسؤالي هو : كيف أحمي نفسي منك يا وزير؟"

- " ولماذا تعتقد سيدتي بأنها تحتاج حماية مني؟ "

- " لقد أردتُ أن أتحدثَ معكَ بهذا الخصوص، أنا أعلمُ أنكَ لا تحبني، أو على أقلِ تقديرٍ لا تحبذُ اختيار زوجي لي لأشاركهُ الحكمَ، فطالما كنتَ أنتَ عقلهُ ويده "

- " بالفعل كنتُ ومازلت عقل الملك المدبر وهو يثق بي، وكنت ومازلت يده التي تحمي ظهره وتهلك المتربصين به، ولن أسمح لأحد أن يشاركني هذا "

قالها وبدأ ينظرُ حولهُ وكأنما شعرَ أنهُ قد يكونُ فريسةً لغدرٍ مني حتى تيقنَ من خلو المكتبة، عندئذٍ أكمل قائلاً

- " أنا لم أطلبْ مكاني أو مكانتي، وإنما وضعت هذه المسؤولية على كاهلي، فلا تهاون فيما يخص مستقبل (كمت) "

- " أتراني عدوة ل (كمت) ؟ "

قُلتها وأنا أدور حول الطاولة وادير ظهري للنافذة

- " إن كُنتِ تريدين سوء بالملك فأنتِ عدوة ل (كمت) "

- " ألهذا تتجنب مناداتي بلقبي ؟ "

- " لقبكِ الذي تُريدين أن يتقدم حُضوركِ ليس حق مُكتسب، بل هو منحة يجب أن تُستحق "

- " ماذا إن قُلت لكَ أنني مستعدة لمقايضة لقبي بما فيه الصالح لهذا البلد العظيم "

- " ماذا تقصدين ؟! "

قالها وهوَ يدورُ حولَ الطاولةِ ليقتربَ مني مسافةَ بضعِ خطواتٍ

-"أنا أريدكَ معي كما أنت مع الملك، أريد مشاركتك في حمايته، كما قُلت أنت، فأنتَ عينُ ويدُ ملكِ (كمت)، أما أنا ..

فأنا قلبه ! أنت تحتاج قلب الملك، وأنا أحتاج عقله وقوته، لن تكتمل قوتك إلا بي، معًا نستطيع أن نجعل هذا الوطن آمن تحت حكم ملك (كمت) الخالد "

أثار كلامي انتباهه فزاد اقترابه مني، ثم قال

- " ماذا تحتاج سيدتي مني "

- " بالضبط ما تحتاجه أنتَ مني ؛ الثقة ؛ أحتاج أن أثق بكَ "

نظر إليّ بحدة حتى ظننته رفض ما قُلته، هل يختبر صلابتي ؟! أيظن أن بإرهابي سيستطيع أن يجعلني أعدل عما صرحت له به ؟!

بدأ يقترب مني بخطواتٍ ثابتةٍ تربكُ ضعاف القلوب، ولكنها زادتني ثباتا، وصل أمامي بجوارِ النافذةِ لترسمَ أشعةُ الشمسِ الغاربة مساراتٍ حادة على وجههِ لتزيدَ رهبتها، نظرَ بداخلِ عيني حتى شعرت بهِ داخلَ عقلي يتحركُ ليبحثَ عما أخفيهُ عنهُ

لم يكن يعلمُ أنني أنا أيضا سأستغلُ تلكَ النظرة الحادةِ لأظهرَ لهُ أنني لا أخافهُ بعدَ الآنَ، فها هوَ يستخدمُ أحدُ أقوى أسلحتهِ في السيطرةِ على من يحيطونَ بهِ، هيبتهُ وحدةُ ملامحهِ، يستخدمُ كلَ ما يستطيعُ استحضارهُ الآنَ من خبراتٍ ليتأكدَ من أصالةِ معدني.. وها أنا أقف ثابتة، أقفُ غيرُ مبالية لما يفعل، لا أهابهُ مطلقا، وهنا أدركَ هوَ ذلكَ وحدثَ ما لم أتوقع أن يحدثَ قطّ، لقد ابتسمَ، لم يبتسم كالبشر، ابتسمَ عقلهُ، فتغيرت ملامحهُ، ومعها تغيرَ ظلِ ملامحهِ على وجههِ، لم يبتسم وجههُ ولكنّني شعرت بارتياحٍ، أخرجَ يديهِ من خلفِ ظهرهِ مُمسكًا بشيءٍ صغيرٍ يريدُ أن يعطيهُ لي، لم أتردد، فمددت يدي لأتلقاهُ منهُ، وضعَ بيدي شيءٌ مستدير واغلق يدي عليهِ بقوةٍ، ثمّ قال:

- " هذه دليلي على أنكِ تستطيعين الثقة بي الآن "

بدأت ملامحهُ في العودةِ لأصلها المنحجرِ وهوَ يتركني متجهًا لبابِ الخروجِ ثمّ توقفَ في منتصفِ الطريقِ ليكملَ دونَ أن يلتفتَ إليّ

- " لقد شهدَ أجدادنا على ما اتفقنا عليه، كلُ مخطوطةٍ بهذا المكانِ المقدسِ تشهدُ علينا، وأنا أعلمُ أنَ هذا هوَ السببُ الأساسي لاختيارك مكتبةَ القصرِ للقائنا، لقد بدأتُ معكِ، والآن حانَ دورك "

قالها وأكمل طريقه خارجًا، ومعَ ابتعادِ صوتِ خطواتهِ بدأت أفتح يدي لأرى ما أعطاني إياه، و ما أن رأيتها حتى هرعَ الخوفُ إلى قلبي، فتلكَ الثمرةُ التي أعطاني إياها تثبت جميعَ مخاوفي، تثبت وجود مؤامرة لقتلي، محاولة لاغتيالي بالسم ! ولكن كيف لي أن أضرب أعدائي ضربة واحدة تنهي سيطرتهم على الحكم، ارتفعَ نظري بعيدًا عن يدي وأنا أغمض عيني في محاولةٍ منيّ للتفكيرِ، أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أفرك بيدي ثمرة الليمون التي أعطاني إياها، وفتحتُ عيني ناظرةً أمامي، وكانت هيَ اللحظةُ التي أدركت بها الحل، فأثناء حديثي مع الوزير كانت الشمس تُعَدِل موضعها لتصل إلى حيث هي الآن، فما تقعُ عيني عليهِ الآنَ هوَ انعكاسُ أشعةِ الشمسِ على مجموعةٍ محددة من المخطوطات، وكأن قرص الشمس قد احتواها جميعًا بداخله، مخطوطات وصف آلهةُ (كمت) جميعها، كيفَ أبدعَ الكهنةُ في وصفِ قدراتها، وكيفَ برعَ العلماءُ في تجسيدِ تلكَ القدراتِ لعلمٍ ملموس، لقد باركت الشمس اتفاقنا بما فيه الصالح ل (كمت)، أرسلت لي الحل في رسالةٍ بسيطة المشهد وإنما عبقريةُ المحتوى.

لقد حان دوري بالفعل، سيكون ردي ناهيًا، وفي خطوة واحدة ..

Visual Watermark

الفصل الرابع

مصريات

الطفلة

المكان .. العاصمة باريس

الزمن .. عام ١٩٩٠

أقفُ خلف الستارِ اختلسُ النظر من نافذةِ غرفتي، أكادُ أشعرُ أنّ جميعَ من يتجولونَ في الطرقاتِ يعلمونَ بوجودي، فأضمُ جسدي الصغير ليزدادَ تضاؤلاً في محاولةٍ مني لأصبحَ غيرَ مرئية.

استعملُ هروبَ أشعةِ الشمسِ من فتحاتِ ستارِ النافذةِ واستقرارها على وجهي كنوعًا من أنواعِ التخفي أثناءَ محاولةِ الاندماجِ مع البيئةِ المحيطة.

فكانت لعبتي دائمًا أن أظلَ ساكنةً مغمضةً عيني حتى أشعرَ بأنني امتزجتُ مع الهواءِ حولي ولم يعد يشعرُ بوجودي أحد.. ها هوَ أبي يسيرُ في طريقهِ المعتادِ ذاهبًا إلى عملهِ.

أضيقُ جفوني على عيني لأصبَ تركيزي على ما يحملهُ بيدهِ لأرى هل يمكنُ أن يكونَ قد نسيَ بالمنزلِ ما أسعى على الحصولِ عليهِ ولو لمرةٍ واحدة.

منذُ أن بدأ إدراكي في الازدهارِ وأنا أرى كم هوَ ملتزمٌ بأن يستعدَ للخروجِ لعملهِ مُتْبِعًا نفسَ الخطواتِ يوميًا، بدءًا من اهتمامهِ بأن يكونَ في كاملِ أناقتهِ وصولاً إلى مراجعةِ جميعِ متعلقاتهِ قبلَ المغادرة. كانَ دائمًا يغلقُ بابَ مكتبهِ جيدًا ليمنعني من العبثِ بأشيائهِ، فكانت هوايتي عندَ مغادرتهِ المنزلَ أن أبحثَ عن مجموعةِ المفاتيحِ الخاصةِ بهِ على أملِ أن يكونَ قد نسيها سهوًا فاستخدمها للدخولِ إلى مكتبهِ وأبدأ في اللعبِ بينَ تلكَ الكتبِ المتراكمة.

وها هوَ قد غادرَ الآن، ظللتُ أتابعهُ وهوَ يسيرُ في خطى ثابتةٍ حتى توارى خلفَ المبنى المجاور، وبدأت لعبة اليوم !

ركضت أقدامي في تسابقٍ ملحوظ، فليسَ هناكَ وقتٌ يحتملُ أن يهدرَ، يجبُ أن أتفقدَ كلَ الأماكنِ المحتملةِ التي قد تحتوي على تلكَ المفاتيحِ إنْ كانَ أبي قد نسيها بالفعلِ، لم تكن عيني هيَ من تبحثُ بل كانَ قلبي، لا وجود لما يستطيعُ أن يكسرَ إرادتي، ففضولي أقوى من ذلكَ الحائطِ المنيعِ المتمثلِ في ذلكَ البابِ الضخمِ المغلقِ الخاصِ بالمكتب..

الباب ! ...

هل من الممكنِ أن يكونَ قد نسيَ أن يغلقَ البابَ من الأساس !

عدتُ راكضةً ثمَ تسمرتُ في مكاني وأنا أحوضُ تلكَ المواجهةَ المباشرةَ بيني وبينَ ذلكَ البابِ الخشبي الضخمِ ذو التصميمِ الفرنسي القديم، بدأت يدي في التوجهِ اليهِ في محاولةٍ ساذجةٍ لفتحهِ بعد أن عجزت عن إيجادِ مفاتيحِ أبي.

شعرتُ بهيبةِ البابِ وعمرِ التحدياتِ التي قامَ بها قبلَ هذا التحدي، فعمرُ هذا البابِ من عمرِ هذا المبنى الذي نسكنهُ، سبقنا بهِ العديدُ من المقيمينَ جميعهم مروا من هنا، منهم من سمحَ لهُ بالمرورِ ومنهم مَن مُنِعَ لمُختلفِ الأسباب ..

وها أنا هنا في تحدٍ جديد معهُ، هل سيهزمُ فضولُ تلكَ الطفلةِ الصغيرةِ عمرًا كاملاً من الخبراتِ في التصدي لمحاولاتِ التخطي من خلاله

نعم .. نعم، إنه يُفتَحُ بالفعل!

بدأ يتسللُ ضوءُ الشمسِ من خلفهِ ومعَ زيادتهِ ازدادَ بريقُ عيني، فقد كانت كلُ خططي موضوعةً لما قد يحدثُ قبلَ هذهِ اللحظة، لم أكن أتصورُ أنّ أنجح، ليسَ لديَ خطةٌ واضحةٌ لما سأفعلُ بعدَ ذلك، فيجبُ على أن أرتجلَ لعبةً جديدة، خطوتُ بعضَ الخطواتِ المترددةِ لأجدَ نفسي بداخلِ المكتب، لم تكن هيَ المرةُ الأولى، فهوَ المكانُ المفضلُ لأبي، وكانَ دائمًا يطلبُ حضوري ليثمرَ عقلي بقصةٍ موجزةٍ عن برديةٍ مصريةٍ قديمةٍ أو عن إحدى تلكَ القطعِ الأثريةِ التي تزيدُ المكتبَ رهبةً وجمالاً غامض.

هذا الكمُ من الكتبِ المرصوصةِ كقوالبِ الطوب في منتصفِ الغرفةِ لا تقلُ هيبةً عن تلكَ التحفِ والمخطوطاتِ التي تزينُ جميعَ الحوائط، لم تكن نفسُ الكتبِ التي رأيتها معَ أبي المرةَ السابقة، فقد كانت في تغيرٍ مستمرٍ، كانَ عندما ينتهي من مجموعةٍ منها سرعانَ ما يعيدها إلى تلكَ المكتبةِ الضخمةِ في الحائطِ ويستبدلها بغيرها، ومعَ استبدالها تختلفُ رائحةُ الغرفة، فلكلِ كتابٍ رائحةٍ مختلفة، حتى أنني كنتُ أظنُ أنها رائحةٌ ما يحتويهُ من قصصٍ أجدادنا، تركوا لنا بها رائحةً تميزهم عن غيرهم حتى يظلوا معنا.

لا أعلمُ لماذا يفضلُ تلكَ البقعةِ على وجهِ الخصوصِ للقراءة، ففي منتصفِ الغرفةِ كانَ دائمًا يجلسُ على مقعدهِ الخشبي المواجهِ لنافذةِ الغرفةِ وبجانبهِ منضدةٌ خشبيةٌ صغيرةٌ يضعُ عليها نظارتهُ وما تستطيعُ أن تتحملهُ المنضدةُ من الكتبِ المجاورةِ التي يريدُ أن تكونَ في متناولِ يده.

غلبني فضولي، فقررت أن أجلسَ في مقعدهِ لأشعرَ ما يشعرُ بهِ عندما يكونُ بمفردهِ في حضرةِ هذا الكمِ من العلماءِ والباحثينَ، توجهت إلى المقعدِ على أطرافِ أناملي، لم أكن أريدُ أن أغيرَ مكانَ أي شيءٍ حولي حتى لا أثيرَ انتباههُ أنني كنتُ هنا، فلا أريدُ أن أثيرَ غضبهُ، فأنا أحبهُ، ولكن فضوليّ دائمًا ما يضعني معهُ في مأزق.

أردتُ الجلوسَ في مقعدهِ، وكانَ المقعدُ أكبرَ من أن أصعدَ إليهِ بسهولةٍ، فذهبت إلى كومةِ الكتبِ واخترتُ منها ما يناسبُ لأقفَ عليهِ كنوعٍ من المساعدةِ المؤقتةِ حتى أعيدها إلى أماكنها قبلَ تركي للغرفة.

أخذتُ أفاضلُ بينَ الكتبِ دونَ أن أمسها، فما يهمني الآنَ هوَ مدى تحملها لوزني، لم أكن أعطي الكثيرَ من الاهتمامِ للعنوانِ أو المحتوى، أخذني البحثُ خطوةً بخطوةٍ حتى وجدت نفسي أمامَ تلكَ المكتبةِ الضخمةِ ذاتِ اللونِ الخشبي العتيقِ المثبتةِ في الحائطِ بعناية، لم أقترب منها إلى هذهِ الدرجةِ من قبلَ فكلُ شيءٍ مختلفٍ بها من حيثُ أنظرالآن، هذا الكمُ من التفاصيلِ والنقوشِ التصميميةِ الفرنسيةِ جعلتني أنسى رغبتي في الجلوسِ على المقعدِ وأخذتني في رحلةٍ قصيرةٍ معها.

كانت تلكَ النقوشُ الغائرةُ في الخشبِ متناغمةً معَ باقي تصميماتِ الغرفة، فتبدأ معَ بدايةِ كلِ رفٍ وتنتهي معَ نهايتهِ، وكأنها هيَ تعضضُ قوةَ تحملهِ لهذا القدرِ العظيمِ من العلمِ المحمولِ على عاتقهِ، أخذتُ أتتبعُ تلكَ النقوشَ في الرفِ المواجهِ لعيني، غافلتني يدي رَغمًا عني لتتحسسَ بإصبعي الصغيرِ ذلكَ النقشَ المستمرِ وأنا أسيرُ بجوارِ الرفِ من بدايتهِ، كأنها تحاولُ إقناعَ عقلي أنها هيَ ما يتسببُ في حفرِ هذا العملِ الفنيِ المميزِ في المكتبة، ولكن لم يستمر ذلكَ الشعورُ كثيرًا !

فقد انتهت النقوشُ فجأةً قبلَ نهايةِ المكتبة !

Visual Watermark

تراجعتُ بضع خطوات إلى الخلف لأشاهد الصورة كاملةً، كانَ يجبُ عليَّ التأكد من تطابق النقوش على هذا الرف مع باقي الأرفف، بالفعل هذا الرف مختلف ! لا تصل النقوش إلى نهايته، بل والأغرب أن يحل محلها نقوش مختلفة، نقوش باللغة الفرعونية، وما زادني فضولاً هو تلك المساحة المعلقة أسفلها التي لم أنتبه إليها من قبل، بدأت يدي الصغيرة تلامس النقوش في حذر

- " ترى ما سرك وما سر هذا الباب الصغير أسفلك ؟! "

نطقها عقلي دون أن تنبت بها شفتي

- " سوف يطوي الموت بجناحيه كل من يعكر صفو الملك "

جاء الصوتُ من خلفي عالياً مردداً تلك الجملة فتسمرت في مكاني في فزع، وشعرتُ بقطعة من الثلج تحتضني وتمنعني من الحراك

بدأت خطوات أبي من خلفي في الإقتراب بهدوء، فما كانت سوى لحظات حتى كان ممسك بكتفي، لم أكن قد تحركت على الإطلاق فأمسك بيدي بهدوء وجثا أمامي على ركبتيه ليضع نفسهُ بيني وبين المكتبة

- " ما زلتِ صغيرة على التواجد هنا بمفردك يا (جميلة) "

قالها وهو ينظر إليَّ كأنها أول مرة يراني بها !

- " لم أقصد أن أغضبك يا أبي، لقد أردتُ أن أكون مثلك "

احتضنني بقوة تنفي شعورهُ بالغضب تجاهي، بل وتؤكدُ ارتياحهُ وكأنما كانَ يرجو أن يسمعَ مني تلك الكلمات البسيطة، ثم قال

- " سيأتي ذلك اليوم يا صغيرتي، وحينها ستصنعين شيئًا لن يستطيع التاريخ تَخَافُله "

شعرتُ بتوتره معَ تزايد سرعة نبضات قلبه، ومعَ تزايدها إزدادَ شعوري بالفضول، فأنا رغم كل شيء لم أستطيع إبعادَ نظري عن ذلك الرف المغلق، وبدأ سيلٌ من التساؤلات يحرقُ جميع ما تبقى لديَّ من مشاعر القلق، تساؤلات كفيلة بأن أبدأ لعبة جديدة، لن أكف عن المحاولة حتى أصل إلى ما أريد إليه.. ترى؟!

ما الذي يخفيه أبي هنا ! ..

Visual Watermark

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

- "ميلا"

جاءني اسمي مُهاجما أذني رغمَ مُحاولتهِ في التخفي في قالبِ صوتٍ مألوفٍ على مسامعي.

كنتُ مُغمضةَ عينايَ كمنْ أسدلَ الستارَ مبكرًا على تلكَ الأحداثِ الهزليةِ المكررةِ من حولي.

التَقَتُّ يمينًا ويسارًا مُتتبعةً الأصواتِ التي تُحاصرني دونَ الحاجةِ إلى النظرِ إلى مصادرها، فالجميعُ ملتزمٌ بأماكنِ جلوسهم كالمرةِ السابقةِ، والمرةُ التي تسبقها، والمرةُ التي تسبقُ كلتا المرتين.

ينقسمُ أعضاءُ هذا المجلسِ المكررِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ أساسيةٍ لا يجتمعُ نصابُ الاجتماعِ بدونها.

القسمُ الأول هم الأعضاءُ الدائمينَ : ويتمثلُ هذا القسمُ في خالتي وابنةِ خالتي وزوجُ ابنةِ خالتي، يتركزُ دورُ كلٍ منهم في اتخاذِ كلِ السبلِ المشروعةِ المتاحةِ لتعزيزِ المعروضِ ومُحاولةِ رفعِ سعرهِ دونَ المساسِ بعلوِ شأنهِ الظاهريِ وارتفاعِ قيمتهِ التسويقيةِ

القسمُ الثاني هم الأعضاءُ الزائرينَ : ويتمثلونَ في شابٍ في الثلاثينياتِ من عمرهِ وأمهِ وأختهِ، يتمحورُ دورُ الأمِ في المعاينةِ الصامتةِ من خلفِ قناعٍ عابسٍ يضفي غموض على تلكَ الشخصيةِ المتباهيةِ بجمالٍ وجودةٍ وصلاحيةٍ وفي بعضِ الأحيانِ نقاءُ صفاتِ الابنِ الجالسِ في جميعِ الأوقاتِ إلى جوارِي، قد يصلُ هذا التباهي أحيانًا إلى إضافةِ نوعٍ من الأنوثةِ البسيطةِ إلى شخصيةِ الابنِ الذي يكتفي بالابتسامِ أثناءَ محاولاتِ الأختِ في تجاذبِ أطرافِ الحديثِ معَ الجميعِ لإضافةِ نوعٍ من البهجةِ المماثلةِ للبهجةِ التي قد نشعرُ بها عندَ حضورِ أحدِ عروضِ البهلوان.

أما القسمُ الثالثُ وهوَ الأقلُ أهمية ؛ والذي إن غابَ لن يفتقدهُ أيًا من القسمينِ السابقينِ لإنشغالِ كلا منهما بعمليةِ فرضِ السيطرةِ على الآخرِ، هذا القسمَ هوَ السلعةُ، أو بمعنى أخرَ هو.. أنا !

إنها المرةُ الرابعةُ، يختلفُ الزمانُ ولكنَ المكانَ والحدثَ واحد !

- "ميلا"

ها هوَ اسمي مرةً أخرى، كمْ تمنيتُ أن أستطيعَ التملصَ منهُ للحظاتٍ فيمرَ من خلالي دونَ أن يصيبني، ولكن بكلِ أسفٍ لن أستطيعَ ذلكَ، فاسمي هوَ إرثٌ عائليٌ، تمَ توريثهُ في شجرةِ العائلةِ لا أعلمُ منذُ متى !

كانَ عهدٍ على جميعِ إناثِ العائلةِ أن تورثَ هذا الاسمِ جيل تلوَ الآخرِ حتى فُقِدَ سببُ التسميةِ في خضمِ هذا السلسالِ الطويلِ مِن اتِّباعِ التَّعليماتِ بحرامه ولكن عن جهالةٍ تامة

لم يبقى من اسمي سوى صندوقٍ خشبي قديم موضوع بدقةٍ فائقةٍ .. في مكانٍ ما بالمنزل! صندوقٌ أخفتهُ أمي عني، لا أعلم لماذا ولكنها أصَرّت أن تفعل، بالفعلِ أنا لا أتذكرُ، ولا أنوي أن أتذكرَ، فالأمرُ أصبحَ بلا معنى بالنسبةِ إليّ، ولا أعتقدُ أنني سأستطيعُ البقاءَ على عهدِ التوريثِ إنْ استمرَ نمطُ هذهِ الاجتماعاتِ التوفيقيةِ على هذا النحوا

أعتقدُ أنني لن أتزوج أبدا!

- "ميلا"

اختلفَ الصوتُ هذهِ المرةِ، لم يكن صوتُ ابنةِ خالتي، بل كانت خالتي نفسها تُكنّي عن أنيابها، هل قلتُ ما قلتُ بصوتٍ مرتفعٍ مِمّا أثارَ غضبها ؟!

أضطررتُ لأنْ أفتحَ عيني لأرى ملامحها، وما أن فعلتُ حتى تأكدت شكوكي، لقد كانت بالفعلِ قد اتخذت وضعيةَ التحدي الخفيةِ، هذهِ الوضعيةِ لا تتضحُ إلا لمن عاشوا قريبا منها فترةً زمنيةً كافية للتعرفِ عليها، فهيَ في ظاهرها ما زالت مبتسمةً ولكن بداخلها تتقاتلُ مجموعةٌ من الحيواناتِ المفترسةِ على أن تفتاتَ بي.

- " أتودين تناول شيء الآن يا سيدتي؟ "

كانت تلكَ الجملةِ بمثابةِ طوقِ النجاةِ لي من ذلكَ التبادلِ الناري في النظراتِ بيني وبينَ الأعضاءِ الدائمينَ، فالتَقَتُّ سريعا إلى قائلها لأجدَ ملامحَ الدهشةِ قد بدأت في التشكلِ على وجهِ النادلِ وهوَ يكملُ

- "ألم أر سيادتك من قبل؟ لقد كنت هنا منذ أيام قليلة و..."

باغته بالإجابة لعله ينصرف قبل أن يزيد الأمر سوءً

- " نعم، إنها أنا "

- " كنت متأكد بالفعل، ولكن ألم تأتي قبل ذلك الحين أيضا مع ..."

- " نعم، من الواضح أنك تتسم بذاكرة قوية، كنت أنا وأوّد أن تأتيني بكوب من عصيرِ الليمون من فضلك "

Visual Watermark

- " إذن فهو ليمون، كالمعتاد! "

قالها ثمّ نظر إلى باقي الطاولة ليجدَ ابنةَ خالتي تحاولُ التخفي خلف كفيها لعلهُ لا يتعرفُ عليها ولكنهُ أكملَ

- " أعتقد أن سيادتك لن تحاولي تكرار تجربة عصير المرة السابقة، أتودين العودة لطلبك الأساسي المعتاد ؟ "

نظرت إلى زوجها وهَمَسَت في أذنه وكان صوتُها مسموعًا حينَ قالت

- " لقد قُلت لك ألا نعود إلى هنا هذه المرّة "

نظر زوجها إلى النادل بجدّة وطلب منه أن يُدوّنَ ما سيطلبه الآخرون أولا

فالتفتَ النادلُ إلى الجميع بابتسامةٍ عريضة ثمّ اختصّ الأعضاءَ الرائرين بالنظر واستطرد

- " اعتذرُ، إما أن تكون ذاكرتي قد خانتني للمرة الأولى، أو أنكم بالفعل لستم نفس مجموعة المرة السابقة "

سادَ الصمتُ على المكان لوهلة حتى كُسِرَ حاجزُ هذا الصمتِ بكلمةٍ واحدةٍ

- " ليمون "

قالها ذلك الشاب الثلاثيني الجالس بجواري بقوة وهدوء ثم أكمل وهو ينظر إلي

- " سنشربُ جميعنا عصيرَ الليمون من فضلك "

ثم نظر إلى النادل بما يوضح أننا لن نحتاج إلى تواجده بعد الآن، كانت النظرة كفيلة له أن ينسحب بهدوء مُخلفًا بعض الأضرار المعنوية لدى الجميع

- " إسمي أدهم "

قالها الشابُ الثلاثينيّ وهوَ يمدُ يدهُ مصافحا لي أملاً في أن يجعلنيَ أمررُ لهُ الأحقيةُ في عضويةٍ دائمةٍ بهذا المجلس فضلاً عن اكتسابِ بعضِ الحقوقِ الأساسيةِ كاستمرارالتعارف بعدُ الانتهاءِ من هذا الاجتماعِ أو رفعِ التكلفِ في الحديثِ أو التوهمِ بفرضِ الرأيِ والسيطرةِ فيما يخصُ ...

- " أنا أعلم ما تفكرين به "

لم يستوقفني ما قاله، بل ما استوقفني هو كيف قالها !

ما تلك الثقة العارمة التي تنبعثُ منه، كيف له أن يتجرأ ويظن أنه بمجرد رؤيتي للمرة الأولى سيستطيع أن يتنبأ بأفكاري ؟!

- " أنت تتساءلين لماذا طلبت الليمون للجميع "

قالها وابتسامةُ الثقةُ تعضض وجودها على ملامحه، فبالتأكيدِ سيقولُ أنّ السببَ أنني أنا من بادرَ بهذا الطلبِ فأرادَ أن يحاولَ إقناعي أنهُ لا يمانعُ أن يترك بعضَ الاختياراتِ لي، مخالفًا بذلك عاداتِ وتقاليدَ الذكرِ المصري في التشبثِ بالرأي

كانت كلتا المجموعتينِ قد عادتا لتجاذبِ أطرافِ الحديثِ، لم أكن أعطي أهميةً لما يقولونَ فما هنَ إلا ثرثرةٌ لإضاعةِ الوقتِ بينما يظنونَ أنهم بتلك المهمةِ المتواصلةِ سينسجونَ شباكَ الربطِ بيني وبينهِ.

لم أريدَ أن أكونَ طرفا فعالاً فيما يقولونَ، فاتخذتُ قراري أن أمضي ما تبقى من الوقتِ في الاستمتاعِ بتلكَ الحيلِ المكررةِ التي سيستعينُ بها (أدهم) في محاولتهِ اليائسةِ للنيلِ بإعجابي، فسألتهُ لمجردِ التأكيدِ على الإجابةِ التي وضعتها مسبقا في عقلي

- " وهلّ فعلت ذلكَ بالفعلِ ؟ "

كانَ قد بدأ في متابعةِ تلكَ المباراةِ الدائرةِ على الطاولةِ في محاولةٍ منهُ لإقناعي بأنهُ ليسَ مهتم بالقدرِ الكافي في إكمالِ الحديثِ معي طالما أنا لستُ مهتمةً، ولكنهُ أكملَ، ولكنّ هذهِ المرةَ دونَ النظرِ إلى مباشرةً

- " لأطرد تلكَ السموم من عقلك "

كانَ ردهُ غريبا، لم أكن أتوقعُ ما قالَ ممّا جعلني أصمت للحظة كانَ فضولي يصارعُ كبريائي في خلالها، حتى تمكنَ مني الفضولُ فسألتهُ

- " أرجو التوضيح ! "

نظر إليّ مُجَدّدًا وهو يكمل

- " (أماليا) .. بالتأكيد تعلمين معنى اسمك، فاسمكِ مميزٌ لا يمكنُ لأحدٍ تجاهلِ ذلك، مميز لدرجة جعلتني أشعر بفضول تجاهك قبل أن أراك، (أماليا)، اسمٌ ذو أصلٍ فرعونيٍ بمعنى أكثرَ غموضا من الاسم ذاته

حقيدة ملك

ما السبب الذي قد يجعل أحدًا يفكر في اختيار اسم كهذا لابنته؟!

أثار ذلك السؤال فضولي بشدة "

كانت تلك المرة الأولى التي لا أضطرُ لشرحِ اسمي لأحدٍ، فعلى غيرِ المعتادِ كانَ قد جاءَ مستعدًا بل وأكثر من ذلك، كانَ قادرا على جذبِ على انتباهي

- " كيف لحفيدة ملك فرعونية مثلك ألا تعلم أهم فوائد عصير الليمون ؟! "

قالها وهوَ يمدُ يدهُ ليناولني ذلكَ الكوبَ الطويلِ من عصيرِ الليمونِ المثلجِ الموضوعِ أمامي، لا أعلمُ متى تمّ وضعهُ هنا، فمن الواضحِ أنّ فضولي في الاستماعِ لما سيقولُ قد طغى على معظمِ حواسي، فلم أشعر بوصولِ النادلِ ووضعهِ للأكوابِ على الطاولةِ.

استغللتُ لحظةً لألقيَ نظرةً على من جمعونا هنا اليوم لأجدهم دونَ أي اختلافٍ عما سبق، وللمرةِ الأولى لم أريدَ أن تبدأ خالتي في طقوسِ الرحيلِ بدءً بالتلويحِ بيديها لاستحضارِ روحِ كيوبيد أثناءَ محاولتها الحركةَ، يليها حركةٌ عشوائيةٌ تحاولُ بها الاتكاءَ على زوجِ ابنتها للنهوضِ معَ إلقاءِ بعضِ النظراتِ النقديةِ على ملامحي كي تستكشفَ مبكرًا نتيجةَ هذا المجلسِ.

أردتُ أن أستمعَ لما سيقول، فنظرتُ إليه والكوبُ في يدي حين قلت

- " مازلتَ لم توضح لي، لماذا الليمونُ ؟ "

كان قد بدأ ينظر إليّ مُجَدّدًا بعد أن ناول ما تبقى من الأكوابِ للجميع ثم قال

Visual Watermark

"ترياق" الليمون هو أول ترياق في التاريخ ضد السم، فتناوُله يمنع مفعول سم الأفاعي. هذا ما اكتشفه الفراعنة وأكده الطب من بعدهم. أما بالنسبة إليك، أردتُ أن أطرد عنك تلك الأفكار المسمومة التي تجول برأسك حولي، تلك الأفكار التي قد تسمم صورتي بعقلك دون أن تعطيني أدنى فرصة لإنقاذها. فأملت أن ينقذها الليمونُ من تلك السموم كما أنقذ الكثيرين من قبلها "

لم يكن العلمُ فيما قال مدهشاً، ولكن ما أدهشني هوَ أنّ ما قالَ - وبالرغم من أنهُ افتراضيٌ تماماً - قد نجحَ في مسعاهُ بالفعل. أعتقدُ أنني قد أُعفيتُ من سمومِ عقلي بصفةٍ مؤقتةٍ وذلكَ لسببٍ لم يداعب فضولُ من قبل

كان السبب هو سؤال طرحه دون أن يدري. سؤالٌ أريدُ الحصولَ على إجابةٍ لهُ. ما السبب الذي قد يجعلُ أحدًا يلتزمُ جبلاً بعد جبلٍ في تسمية الإناث بهذا الاسم

لمَ كلّ هذا الإصرار .. ما المغزى منه .. وإلى متى ؟

روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

الفصل الخامس

جذور

جميلة

المكان .. القاهرة - منزل العائلة

الزمن .. الآن

أقفُ في شرفةٍ متوسطةِ الأطرافِ بسيطةِ المحتوى، لا يميزها عن تلكَ الشرفاتِ المتشابهةِ المحيطةِ بنا في القصورِ المجاورةِ سوى هذا القدرِ البسيطِ من الذكرياتِ خالقةِ المعالمِ.

ذكرياتٌ تتشبثُ بصعوبةٍ بما تبقى بداخلي من آثارِ حنينٍ لهذا المكانِ، حيٌّ راقٍ، يتخطى عمرهُ قرنٌ من الزمانِ، اكتسبَ أحقيتهُ في التواجدِ بقلبِ العاصمةِ العريقةِ عن جدارةٍ، أكادُ أتذوقُ طعمهُ في الهواءِ المحيطِ بي، ذلكَ الطعمِ المميزِ الذي تَشبَعَ به معَ تقادمِ عمرهِ، فكلُ زاويةٍ به شهدت على قصصٍ وحكاياتٍ من تجولوا بها مِمَّا زادها جمالٍ ورونقٍ في تفاصيلها.

بيتُ العائلةِ هوَ في أصلهِ قصرٌ صغيرٌ ذو الثلاثةِ طوابقٍ والعديدُ من الغرفِ، كم أحببتُ تلكَ الفترةَ التي قضيتها من عمري هنا، لم يكن أبي قد اتخذَ قرارَ السفرِ إلى فرنسا بعد، كانَ يعملُ ذلكَ الحينِ على مشروعٍ تخصصيٍ في عملهِ المتعلقِ بالبحثِ الأثري، أصبحَ بعدَ ذلكَ هوَ مشروعُ عمرهِ حتى بعدَ أن رحلنا عن مصرَ.

أتذكرُ عندما كنتُ صغيرةً كنتُ دائمةُ اللعبِ على تلكَ السلالمِ حيثُ كانَ لي في كلِ طابقٍ مخبأ، وكنتُ أكثرَ الأطفالِ إبداعاً في لعبةِ البحثِ عن الكنزِ التي ابتدعها أبي، كم من خرائطَ سريةٍ قمتُ بفكِ رموزها، تلكَ الخرائطِ التي رسمها أبي بيدهِ ليجتمعَ أطفالُ العائلةِ في محاولاتٍ عديدةٍ لتفسيرها، لم يكن الكنزُ أكثرَ من دميةٍ صغيرةٍ تكونُ هديةً لمن يعثرُ عليها، لم تكن قيمتها في ثمنها بل فيما تمنحهُ من شعورٍ بالتميزِ عندَ التمكنِ من الحصولِ عليها.

كنا نجتمعُ كبارٌ وصغارٌ بمهوِ القصرِ، لم يكن أحدٌ ملزماً بأن يتركَ غرفتهُ ولكن ما كانَ يحركنا هوَ لهفتنا للضحكِ وتجاذبِ أطرافِ الحديثِ، فحينما كانَ أغلبَ الصغارِ يحبونَ أن يتشاركوا فيما لديهم من ألعابٍ كنتُ أنا أفضلَ مجلسِ الكبارِ لما بهِ من قصصٍ لتجاربِ يوميه، تلكَ التجاربِ التي يتشاركونها أثناءَ تناولِ الغذاءِ أو على نغماتِ بعضِ الأغاني المصريةِ القديمةِ، فكانَ جدي عاشقٍ للتراثِ المصريِ مِمَّا زرعَ في أولادهِ حبهم لتراثِ بلدهم وتأثرهم الشديدِ بهِ.

أرى شريطٌ من الذكرياتِ يعيدُ نفسهُ بداخلِ عقلي، عائلتي الكبيرةُ، جدي وهو يجلسُ في مقعدهِ المعهودِ بنفسِ الشرفةِ التي أقفُ بها الآنَ، أرى الأشجارَ تتحركُ من حولهِ في محاولةٍ منها لإضفاءِ بعضٍ من الحياةِ على هذا المشهدِ الساكنِ، حتى فنجانِ القهوةِ الذي كانَ ممسكاً بهِ بيدهِ كانَ قد بدأَ في فرضِ رائحتهِ على النسيمِ المحيطِ بهِ، فارتبطت رائحةُ تلكَ القهوةِ الداكنةِ بتلكَ اللحظاتِ المتكررةِ التي اعتدت خلالها أن أركضَ قادمةً من داخلِ القصرِ لأجلسَ بجوارهِ.

كانَ دائمًا يَحكي لي قَصَصٍ وَحِكَايَاتٍ قصيرةً وَلَم أكُن أملُ قطُ مِن سَماعِهَا، لَم تَكُن دائمًا قصص جَدِيدَةٍ تُروَى لِلمرَّةِ الأُولى، بَل أحيانًا كَانَ جَمالُهَا يَزدادُ مع كثرةِ تكرارِها على مَسمَعي، فكلُ صُورَةٍ أو مَشهدٍ بِهَا كان يَتَجَسَّدُ بداخلِ عَقلِيٌ بتفاصيلٍ مُختلفَةٍ مع تقَدُّمِي في العُمرِ وَكأنَها قِصَّة جَدِيدَة

كانت جدتي تعلمُ جيدًا شغفي لسماعِ تلكَ القصصِ التي اعتادَ جدي أن يرويها، فكانت تتعمدُ عدمَ مقاطعتنا، بل وأحيانا كانت تحاولُ إخفاءَ صوتِ خطواتها وهيَ قادمةٌ من داخلِ القصرِ بينما تحملُ بيدها كوبَ عصيرِ الليمونِ المثلجِ المفضلِ لدي. كانت تقتربُ بخطواتٍ هادئةٍ وكأنها تداعبُ الهواءَ من حولها ليمتزجَ برائحةِ قهوةِ جدي، وكنتُ دائمًا استغرقُ في الاستماعِ إلى جدي للدرجةِ التي تجعلني اندهشُ عندما اسمعُ صوتها وهيَ تهمسُ في أذني

- " جميلة "

أكادُ أجزمُ أنني سمعت اسمي الآنَ بصوتِ جدتي ، إلتفتُ خلفي إلى مصدرِ الصوتِ لأجدَ عمتي تنظرُ إليَّ بهدوءٍ وإشتياقٍ، فقد مرت أعوامٌ كثيرةٌ منذُ أن قمتُ بزيارتها. كانت تحملُ بيدها فنجانٌ من القهوةِ قد قامت بتحضيرهِ لي، فبدأت في التحركِ باتجاهها كي أحملهُ عنها تقديرا لمجهودها.

- " إشتقتي للمنزل؟ "

قالتها وهيَ تتذوقُ قدرٍ صغيرٍ من القهوةِ الخاصةِ بها

- " نعم، إشتقت إليكم جميعا "

- " لقد كنتِ دائمًا الحفيدةُ والابنةُ المفضلةُ لدينا، حتى بعدِ أن رزقت بابنتي ظلَ لكِ دائمًا مكانا مميزا بقلبي "

كانَ الطقسُ دافئا مطعما بنسمةِ هواءٍ باردةٍ حينَ نظَرَت إلى السماءِ التي كانت قد بدأت بالفعلِ بالتدرجِ ببعضِ ألوانِ الغروبِ، ثم قالت

- " أتعلمين أنكِ تذكرينني بوالدكِ كثيرا؟"

لم يكن مضمونُ السؤالِ هوَ ما أدهشني، بل توقيتهُ، فلم أحاول إخفاءَ ابتسامتي وأنا أجاوبها قائلة

- " ما الذي جعلكِ تذكرين ذلكَ الآن؟"

نَظَرَت إليَّ مُبتَسِمة، كانت عيناها تحاولانِ أن تبقيانِ على عهدهما معها، فمنذُ لحظةِ وصولي وهما تقومانِ بدورِ الحارسِ الأمينِ الذي يعملُ على إبقاءِ تراكماتِ أعوامٍ من المشاعرِ بداخلها.

- " افتقدهُ بشدةٍ، لم يكن مجردَ أخٍ، بل كانَ أقربَ صديقٍ إليَّ، كنتُ دائمةَ اللجوءِ إليهِ، ولم يَرُدَّني قطُ دونَ مشورةٍ أو نصيحةٍ لأعملَ بها، حتى عندما كانَ دائمُ العملِ والانشغالِ، كانَ دائمًا يجدُ الوقتُ ليستمعَ لي "

سادَ الصمتُ للحظةٍ ثمَ بَدَأت في رفعِ يدها إلى ملامحِ وجهي لتتحسسها وتدرسها بعينيها وهيَ تقولُ بصوتٍ مكتوم

- " أكاد أراه أمامي بداخلك.

تلكَ الروحِ الثائرةِ المتلهفةِ للمزيدِ، أراهُ في عينيكِ كلما نظرت إليكِ

أتذكرُ ذلكَ اليومِ الذي قررَ بهِ الزواجُ من والدتكِ، لم يكن يعلمُ كيفَ يواجهُ جدكِ بالأمرِ، فكانَ على يقينٍ من رفضهِ لأنه كانَ يعلمُ جيدًا مدى تعلقَ جدكِ بجذورنا المصريةِ

لم يكن يريدُ تعكيرَ صفوِ علاقتهما بإخبارهِ أنهُ يريدُ الزواجُ من أجنبيةٍ

Visual Watermark

فكانَ أكثرَ ما يميزنا في رأيي أبي هوَ أننا نشأنا وتربينا على شعورنا بالعزة والفخر كوننا سلالة أصحابِ حضاراتِ فجرِ التاريخ، ولم يكن قد تعرفَ على والدتك ليعلمَ أنها تشاركنا ذاتَ الشعور."

- " لم أعلم أبدًا أن جدي كان متعصبًا ؟"

- " من قال ذلك ؟

جدك كانَ من أكثرِ الرجالِ حكمةً وثقافةً، لم يكن تعصبًا وإنما هي رغبةٌ مشروعةٌ في التمسك بالهوية المصرية في العائلة، لقد أحبَ جدك والدتك كثيرًا، بل وأحيانًا كانَ يفضلها علينا، حتى أنني أحيانًا كنتُ أشعرُ ببعضِ الغيرة منها "

قالتها وهي تبتسم مما جعلني أبتسم بدوري حين أكملت

- " أتعلمين يا جميلة،

عندما جاءني والدك يطلبُ مني مساعدتهُ في إقناعِ جدكِ بقبول زواجهِ من والدتك، كانَ كلُ ما جالَ بخاطري هوَ شيء واحد فقط، وعدٌ جعلتهُ يقطعهُ على نفسه، اشترطت عليه أن يعدني بأن يظلَ مصريٌ، ليسَ على الأوراقِ ولكن بالفعل، بالدراسةِ والبحث، بالتربيةِ وغرسِ جذورنا بداخلِ أولادهِ وأحفادهِ من بعده، جعلتهُ يتعاقدُ معي، وكانت هذهِ بنودُ التعاقد.. والآن أنظر إليك !

أراكِ بكُلِ مَا أصبحتِ عليه، جميلة، جميلة الملامح المصرية، جميلة الروح النادرة الباحثة، أرى توقيعُ أخي على ما تعاقدنا عليه بمجرد رؤيتك أمامي الآن "

كانت الشمسُ قد غادرتنا بالفعلِ تاركةً خلفها العديدُ من القصص التي تحاولُ أن تتشبثَ في آخرِ ضوء لها، لم القدر الكافي من الإمتنان لأرُدَه إليها لما جعلتني أشعر بهِ من فخرٍ رغمَ بساطةِ كلماتها، فاكتفيت بأنْ احتضنتها بهدوء، فأحيانًا يكون الحضنُ الصادق أبلغَ من مفرداتِ اللغةِ بأكملها.

- " سأستقيل قريبًا من هذه العائلة ؟ "

جاءت الجملةُ من خلفنا بأسلوبٍ ساخرٍ بسيط، مِمَا جعلنا نلتفتُ بهدوءٍ لنجدَ ابنَ عمتي يقفُ ببابِ الشرفةِ حاملاً بيدهِ بعضَ الأكوابِ الفارغة، ثمَ أكملَ موجهًا حديثهُ إليّ

- " أترين ماذا يجعلونني أفعل، سأشتكيهم جميعًا إليك يا جميلة، أترضين لي أن أقومَ بإعدادِ المائدةِ للغداءِ بينما هم يجلسونَ في انتظارِ الطعام ؟"

لم تمر لحظة حتى ظهرت أخته من خلفه وهي تقول بسخرية

- " أهذا جزاؤنا لأننا قررنا إعطاءك فرصةً أخيرًا لإثباتِ نفسك في الطهي !"

ثم نَظَرَت إليّ مُبتسمه وهي تكمل

- " لا أعلمُ لم نعاود تكرارُ هذا الخطأ دائمًا، خاصةً معَ علمنا بقدومك إلى مصرَ، كانَ يجبُ علينا أنْ نعفيكِ من مرارةِ تلك التجربة "

لم امنعُ تلك الضحكةِ البسيطةِ من التعبيرِ عن سعادتي، فأنا بالفعل اشتقتُ كثيرًا إلى هذا المناخِ المشحونِ بالطاقةِ الإيجابية، خاصةً معَ انشغالِ عقليَ الدائمِ بما قالتهُ لي ماريز بخصوصِ رسالةِ نفرتيتي.

نَظَرَت إليّ عمتي بعد أن أمسكت بيدي وقالت

- " أعلمُ أنكِ معتادةٌ على الأكلِ متأخرًا، ولكِنَني على يقينٍ أنكِ تشعرينَ بالجوعِ الآنِ فيدكِ باردةٍ كالثلج، لقد أعددتُ لكِ غرفةُ والدك القديمةَ بالأعلى، فلم يستخدمها أحدٌ أبدًا منذُ رحيلهِ احترامًا لرغبتهِ "

نظرتُ إليها بملامحِ مندهشة لم أستطيع إخفائها حين قلت

- " ماذا كانت رغبته ؟"

نَظَرَت إليّ وهي تشد قبضتها على يدي بعض الشيء حين أجابت

- " أن يكون الشخص الوحيد المسموح له أن يستعمل غرفته هو إبنته جميلة، قالها لي وأنتم تودعوننا بحقائبكم وجعلني أعدهُ بألا أترك أحدًا يغيرُ أيَ تفاصيلَ بها، وكأنه كان يعلم أنكِ ستعودين يومًا ما إليها "

ظللتُ أنظر إليها وأنا لا أعلم ماذا أقول حتى جاء صوت إبنتها مباغتا قائله

- "هيا لنتناول الطعام سويًا، فالجميع بالأسفل بإنتظاركم والمائدة معدة بالكامل"

Visual Watermark

الملكة

المكان .. العاصمة القديمة (طيبة) - قصر الحكم

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

" إذا جلست إلى مائدة طعام من هو أكبرُ منك مقامًا، فخُذ مِمَّا يقدِّم لك حَينَ يوضع أمامك، وانظر فقط لِمَا هو أمامك، ولا تطيل التحديق في صاحب المائدة وتحرقه بنظراتك، إن ذلك مِمَّا تشمئزُّ منهُ النفس "

ظلَّت تلك الكلمات تشق طريقها بداخل رأسي المكدس بالأفكار، كلمات تربيتْ على سماعها من معلمي وأنا صغيرة، كلمات عاشت أكثر من ألف عام منذُ أن نطقت بها شفاة الحكيم لتستقر وتتردد بداخلي الآن.. هيَ ومثيلاتها من تعاليمَ (بتاح حتب) هنَ أحجارُ الموازين اللاتي يقاسُ بهن مقدارُ الحكمة لدى الملوك، لن نستطيعَ أن نخطوَ أيَّ خطوةٍ نحوَ المستقبلِ دونَ أن يكونَ لدينا ماضٍ نستمدُ من خباياه الشجاعة، ونحن حضارة الألفين عام، لدينا من العلم ما يبرُ سائرُ الأرض ويفيضُ إلى السماء، أسيرُ الآن تاركةً غرفتي متجهة إلى بهوِ مائدةِ القصر، تتبعني وصيفتي (تويا) بهدوءٍ كالمرأةِ المتحركة التي تحاكي خطواتي الثابتة، لا يجب أن أخطئ، قط، فليس من شيمة الملوك الخطأ، فإن أخطأت الخطى أخطأ من يتبعني، والآن يتبعني أكثر شعوب الأرض حكمة، إن أخطأوا أخطأ سائر شعوب الأرض.

ممرٌ طويلٌ قطعتهُ ينتهي بحارسان يقفانِ بثباتِ الأحجارَ من خلفهما، مررتُ من بينهما إلى بهوِ مائدةِ القصر، لا أرى نظرات الحاشية إليَّ ولكنَّني أشعر بها، منها كملمس الريشةِ الطائرة ومنها ما يكاد يجرحني كأظافرِ القطِ البري، أشعرُ بقطعةٍ من الثلج تنشأُ في ظهري ثمَّ تنمو وتستشري في جسدي مع كل خطوةٍ أخطوها تجاهَ تلكَ المائدة، عقدتُ كفي خلفَ ظهري لأفرك خاتمي الثمين الذي بدأت بارتدائه مؤخرًا، ليست قيمتهُ فيما تمَّ تصنيعهُ منهُ، بل فيما يحتويهُ بداخله ! فَهُو يُعطيني قدرٍ كافٍ من الطُمَأنِينَةِ لاستمر.

ليست المرةُ الأولى التي ينتابني بها هذا الشعور! فمنذ أن حذرني الوزير ممن يتربصون بي وأنا لا أثق فيما يقدم إليَّ من طعام، ويزداد قلقي كلما إقترب موعد تواجدي على تلك المائدة يوميًا.. أرى بعضَ المُكَرَّمينَ بمجالسةِ الملكِ قد وصلوا بالفعل، كبير الكهنةِ واثنانِ من الكهنةِ المعاونينَ بالمعبدِ يقفونَ بجوارِ إحدى النوافذِ المطلةِ على حديقةِ القصرِ وقد ارتسمتْ على شفاههم ابتسامةُ الأفعى وهم يجتمعونَ على منحي تحيةً زائفةً بينما يتهامسونَ فيما بينهم، قائدُ الجيشِ الأعظمِ ومعاونهِ قائدَ جيشِ الجنوبِ يقفانِ عاقدينَ أيديهم خلفَ ظهورهم بجوارِالمائدة بينما يقتربُ منهم الوزيرُ بخطواتٍ ثابتة، أرى جيدًا كيفَ يقدرانِ قدومَ الوزيرِ إليهما، فبمجردِ أن وصلَ إليهما حتى شدا قامتيهما لتبرز عضلاتهما دليلاً على قوةِ بنيانهما، بحثتُ بعيني عن أي خطرٍ محتملٍ قد يتربص بي في المكان، بحثتُ بتحفظٍ كي لا ألفتَ الأنظارَ إليَّ، فلا يجب أن يشعر أحد بذلك، لم أستطيع تجاهل النظر إلى مائدة الطعام، ومع النظر إليها بدأت تسري تلك القشعريرة في جسدي، أكاد لا أرى الأخشاب المصنوع منها المائدة من كثافة الطعام الموضوع عليها مَأدُبَةٌ مُعَدَّة لمقاعدٍ فارغةٍ حتى الآن، فارغةٌ في إنتظار وصول الملك

- " مولاتي "

التفتُّ خلفي إلى مصدرِ الصوتِ لأجد شابًا طويلَ القامةِ قويَّ البنيانِ يرتدي عتادِ جيشِ الشمالِ المزينِ باللونِ الأزرقِ

- " إسمحي لي أن أقدم لكِ نفسي يا مولاتي "

قالها وهو يجثو على ركبته اليمنى في تحية صادقة

- " خادمكِ (را) قائد جيش الشمال"

لم أكن قد رأيته بالقصر من قبل مِمَّا أصابني بالفضول لسؤاله

- " فلتقف أيها القائد، كيف يُعقَلُ أنني لم أراك في مجلس طعامنا من قبل ؟!"

وقف القائد معتدلًا وهو يجيب

- " كانَ لا بد أنَّ اطمئنَ على حدودنا الشمالية قبلَ أن أتمكنَ من السفرِ جنوبًا لأحظى بشرفِ لقاءِ مولاتي "

كنتُ قد أوشكت على أن أكملَ حديثي معهُ ولكن باغتني صوتُ خادمِ الملكِ وهو يُعلن عن قدومه مِمَّا دفعَ الجميعَ إلى التوجهِ إلى مقاعدهم بانتظارِ الملكِ الذي سيجلسُ على رأسِ المائدة

لم تمر سوى لحظات حتى ظهر الملك، ومع ظهوره بدأت في النظر إليه وهو يسير نحوي ويبادلني نفس النظرات حتى وصل إليَّ، ظل واقفًا ولم يجلس، أخذ ينظر إلى الجميع ثم أمسك بيدي، ظل يطيلُ النظر إلى الحاضرينَ وهو يرفع يدي في مواجهةِ وجههِ لِيُقَبِّلَهَا، أخفض يدي إلى جانبه بهدوء وهو يلتفت إليَّ ثم قال

- " مولاتي، زوجتي، الجميلة بلا مثيل، ملهمتي ومملكتي "

ثمَّ نظرَ إلى الحاضرينَ مرةً أخرى وهوَ يكملُ

- " يكفيني النظر إليها، فلا حاجة للطعام بوجودها، فهي غذاء مشاعري التي لم تعرف معنى الإشباع من قبل "

ثم إبتسم وهو يقول

- " ولكن هذا أنا، أما أنتم فمن حقكم أن تتناولون طعامكم "

ابتسم الحاضرون اليه بدورهم بينما جلس هو في مقعده مستطردًا

- " فلتتفضلوا بالجلوس "

جلسنا جميعًا في هدوء بينما بدأت الحاشية بتقديم الطعام إلينا

انظر كثيرًا إلى ما يُقَدَّمُ إليَّ من طعام، لا أريدُ إطالةُ النظرِ، ولكنَّ شعوري بالقلقِ كانَ قد بدأ يتجاوزُ حاجزَ السيطرةِ بالفعل، بدأ الجميعَ في تناولِ الطعام في هدوءٍ مِمَّا جعلني استغل انشغالهم بأنَّ أمسكت خاتمي لأضغط عليهِ بحذرٍ فوقَ طعامي، لا أريدُ أن يشكَّ أحد من المتربصينَ بي في شيء، أردتهم أن يعتقدوا أنَّ خططهم لم تكشف لي بعدُ، وأنهم مازالوا يتحكمونَ بزمام الأمور، ترياق الليمون، الترياق المُبطل لمفعول سم الأفاعي، أضعهُ من خاتمي في كلِ وجبةٍ مُعَدَّة إليَّ، أصنعهُ بنفسي يوميًا من ثمرِ الليمون، فأنا لا أستطيعُ أن أثق بأحدٍ ليفعل ذلك بدلًا مني، أتركهُ يسيل حتى آخرِ قطرةٍ منهُ في طعامي بينما أنظرُ إلى من حولي بقوةٍ وثقةٍ أحاول بها إخفاء دقاتِ قلبي المرتعدِ من فكرةِ ألا يكونَ هذا كافيًا وأن تكون هذه هي الوجبة الأخيرة لي !

Visual Watermark

يجلس الوزير أمامي مباشرة على يسار الملك، يعلم هذا الثعلب الأشيب جيدًا ما أفعل، ولكن لا يظهر عليه ذلك قط، فهو من أشار عليّ بالحذر والتحصن بالترياق. لا أسمع سوى صوت أنفاس من حولي في خِضَمِّ حركة أدوات المائدة العاجية المطعمة بالذهب

- " مولاي"

جاء صوتُ خادم الملك من خلفه خافتا فأشار له الملكُ بالاقتراب، همهمَ الخادمُ في أذنه بما كانَ سببا كافيا لتبدل ملامحه، نظر إليّ الملك للحظة ثم نظر إلى الجميع الذين لم يشعروا بشيء، ثم قال

- " فليتوقف الجميع عن الطعام "

لم يتوقعْ أحد ذلك ولكن كانَ الأمرُ نافذًا، تسمّرت أعينهم على الملكِ في انتظار ما سيقول، نظر هو إليهم بدوره ثم قال

- " أحبّ أن أعلنَ أنهُ بعدَ طولِ انتظار، قررت الملكةُ الكبرى، والدةُ ملككم، تشريف هذهِ المَأدُبَة "

كانت تلك هيَ المرةُ الأولى منذُ زواجنا، فهيَ لم تشاركنا الطعامَ من قبلُ، حتى ظننتُ أنها قد تكونُ كما يقالُ عنها، بأنها لا تأكلُ قطُّ، وأنها من السلالة النقية للآلهة !

بعد أن حَذفتُ اسم الوزير من لائحة أعدائي المحتملينَ لم يبقى بها سوى الكهنة وهيَ، الملكةُ الكبرى، وها هيَ تستعدُ للقدوم لتشاركنا لأول مرة طعامنا، أو على أقلِ تقديرٍ، مشاهدتنا نفعلُ، إنْ كانت هيَ بالفعلِ لا تأكل !

- " مولاتي الملكة الكبرى"

أعلنَ خادمُ القاعةِ عن وصولها بصوتٍ رنانٍ أخذ يرتدُ عن تلكَ الجدرانِ الحجريةِ، وكأنّ القاعةَ نفسها ترحبُ بقدومها، وقف الملكُ، وبوقوفهِ وقفَ الجميعُ للحظاتٍ قبلَ أن تفتحَ تلكَ الأبوابِ الخشبيةِ العاليةِ المطعمةِ بزخارفِ أمجادِ الملوكِ السابقين.. وها هي، أنا أراها الآن، يالها من جميلة، و .. مخيفة في نفس الوقت !

أكادُ أجزمُ أنها لا تسيرُ أسفلَ هذا الرداءِ الطويلِ ذو الذيلِ الراحفِ الممتدِ من خلفها، فأنا أراها تطفو !

يلحقها ثلاثةُ وصيفاتٍ أشبهَ بخادماتِ الآلهةِ في مشهدٍ أذهلَ الحاضرينَ بينما ينظر الجميع إلى المشهدِ ظلّ الوزير ينظرُ إليها هيَ، لم تكن نظراتهُ تنمُ عن انبهارهِ بما يرى، أنا أعلمُ تلكَ النظرةَ جيدًا، أرى تلكَ اللمعةِ في عينيه، أعلمُ جيدًا نظرةَ العشقِ عندما أراها، جَلَسَت في مواجهةِ الملكِ على رأسِ المائدةِ، وبجلوسها جلسَ الملكُ ثمّ لحقناهُ نحنُ بالجلوسِ.

ظللتُ أنظرُ إلى الوزيرِ الذي عاودَ النظر إلى طعامهِ محاولاً إخفاءَ مشاعره، كانَ على نقيضِ ما تظهرُ ملامحهُ الحادةُ، فكانَ محركهُ الآنَ هوَ ذلكَ الطفلُ العاشقُ بداخلهِ، ذلكَ الطفلُ الذي ظلّ يراقبها في خلسةٍ متناسيا تعاليمَ الحكيمِ (بتاح حتب).

" إِذَا جَلَسْتَ إِلَى مَائِدَةِ طَعَامٍ من هوَ أَكبرُ مِنكَ مَقَامًا، فَخُذ مِمَّا يُقَدَّمُ لَكَ حَينَ يوَضَعَ أَمَامَكَ، وَانظُر فَقَط لِمَا هوَ أَمَامَكَ، وَلَا تطيلَ التَّحديق في صَاحِبِ المَأدُبَةِ وتَحَرُّقه بِنَظَرَاتِك، إِن ذَلِكَ مِمَّا تَشمَئِزُّ مِنهُ النَّفس "

تكررت كلماتِ الحكيمِ بداخلي، ولَكِنّني لم أستطيعَ تنفيذها هذهِ المرة، لا أستطيعُ أنْ أمنعَ نفسي من النظرِ إليها، فهيَ الآن على رأسِ المائدةِ، وها أنا أُحْدِقُ بها، ها أنا اخترقُهَا بنظراتي لعلي أستطيع أن أرى بداخلها، لا أستطيعُ إخفاء فضولي، وهي تشعر بذلك، فعلى الرغم من عدم إهتمامها بأي أحد من الحاضرين، ظلّت تنظر إليّ بدورها !

نظرة ثابتة بدون تعبير

نظرة قد لا تعني شيء للبعض

ولكنها تعني لي الكثير!

الكثير جدًا !

Visual Watermark

الفصل السادس

حياة، كرمة

حياة

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

سماء صافية، نعم، فلتكن اليومُ صافيةً ! أحتاجُ إليها صافيةً لتطلق لعيني العنانَ أثناءَ السفرِ خلالها، فلا أريدُ أن يحول بيني وبينَ صفاءِ العقلِ أي عائقٍ، حتى وإن كانَ هذا العائقُ مجردُ هواءٍ أو سحبٍ خفيفة تعكسُ تكويناتها ما يدورُ في عقلي من فكرٍ مستمرٍ، أعشقُ صوت البحر، إذن، فليكن هناك بحر! ولَكِنّني لم أراه بعد، أسمعُ صوتَ جدالهِ العذبِ معَ هذا الشاطئِ الرملي النقي، يتجادلانِ عمن لهُ الأحقيةُ في امتلاكِ تلك الأمتارِ الأخيرة التي تفصلُ بينهما، ولكنهما لا يتخاصمانِ عليها، بل هوَ أقربُ إلى جدالِ عاشقين هادئين لا ضغائنَ بينهما، فلا وان يصلا إلى نتيجة أبدًا، فيظلا يتهاديا تلك الأمتارِ الأخيرة بلا توقفٍ فتكونَ متعةً للناظرينَ إليها، طاقة متجددةٍ تسري بعقل من يستمعُ إلى صوتِ جدالهما لتحفزهُ على الاستمرارِ وها أنا ذا مستلقيةٍ على ظهري أتحسسُ بأطرافي تلكَ الرمالَ من حولي، أنظرُ إلى السماءِ وأسافرُ بعقلي فلا أجدُ ما يستوقفني، استمعُ واستمتعُ وأذوبُ من داخلي فأتجدد معَ صوتِ البحرِ في جدالهِ معَ الرمال، أغمضُ عيناي الآن لأحافظَ على كلِ ذلكَ معًا، فلقد رسمت كلَ تفاصيلهِ بعنايةٍ شديدة ليكونَ ملاذًا لي كلما ضاقَ بي الحال !

كم اتمنى أن أتركَ كلَ شيءٍ خلفي وأعيشُ في عقلي فقط، أن أتحصنَ بهِ فلا يستطيع الحزنُ أن ينالَ مني، ولَكِنّني لا أستطيع . فإن فعلتُ ذلك لن أستطيع العودة فَشَتّانَ الفارق بينَ حياتي التي أعيشها هنا وحياتي التي نسجها خيالٌ - في عقلي - بخيوطٍ قويةٍ تكادُ تقتربُ إلى واقعٍ بديلٍ ملموس لتكونَ مهرب لبضعِ لحظات ففي عقلي أنا أتحكم بكل شيء..

أجعلُ السماءَ أحيانا صافيةً عندما أكونُ في حاجةٍ لراحةِ البالِ، أما في الحرِ الشديدِ فاجعلها ملبدةً بالغيومِ لعلي أحتمي بعض اللحظاتِ في ظلالها، أتحكمُ في الرمال والحشائش والأشجار وغيرهم، أجعله عالمٌ خاليًا من البشر، خاليا من الحزن، لا يشاركني أحد بما إحتفظت به لنفسي، أما في الواقعِ، فقد أخذَ مني الكثيرَ من عمري رغما عني، في الواقعِ، أنا لا أتحكمُ بشيءٍ، كلُ ما أستطيع فعلهُ هوَ أن أستمدَ قوتي من عقلي، من عالمي البديل، من تلك الطاقة المتجددة بداخلي، فقط لأستطيع الإستمرار!

ليصبح لدي حياة، حياة كإسمي، فأنا حياة !

بالفعل اسمي (حياة).

لا أعلمُ لماذا سُمّيْت بهذا الإسم! ولم أسأل أحدًا قط

فعندما كنتُ صغيرة لم أكن أدركُ معنى تلكَ الكلمة، وعندما كبرت تيقنت تماما أنني لن أكونَ ممن يحصلونَ على رفاهيةٍ مضمونها، فأيُ فتاةٍ مثلي تجمعُ بينَ الدراسةِ والعملِ معا لمجردِ أن تستطيعَ إعالةُ أهلها ليسَ لها ما يسمى بالحياة، ولَكِنّني لن أيأس ولن أستسلم لما أجبرت عليه

أحاولُ دائمًا أن أنفض عن عقلي غبار طريقٍ طويلٍ من الفكرِ يوميا، لأستعد لمواجهة اليوم التالي، حلقة أدور بها لا تتغير تفاصيلها، ما بين الجامعة والعمل والمنزل، يوما ما ستتكسر وسأنهض منها لأحيا !

توقفت بي الحافلةُ التي استقلها بعدَ أن أمضيتُ وقتا طويلاً في الطريق من الجامعةِ إلى مقرِ عملي، زاحمتُ في الخروجِ بصعوبة، كمْ أكرهُ تلكَ اللحظةِ اللزجةِ في روتيني اليومي ! فشعوري وأنا أشقُ طريقي من مقعدي إلى بابِ الخروجِ كمنْ تتحررُ من قيودٍ حديدية صدئة تربطُ أطرافها بالأرضِ من حولها ولكنّ التحررَ ليسَ حقٌ مكتسبٌ، بل يجبُ أن يُستَحَق، اكتسبتُ أحقيةَ التحررِ بتكرارِ محاولاتٍ مغادرةَ تلكَ الحافلةِ على مدارِ عامين، حتى أعهدَ نفسي خبيرةً بكيفيةِ الانزلاقِ من بينِ ثنايا المحيطينَ بي دونَ أن أسببَ لهم إزعاجا ملحوظا، أصبحتُ أخيرا حرةً، فقد تحررت من قيودِ الحافلةِ، لأقع فريسةً في مصيدةِ الطريق !

ما هيَ إلا خطواتٍ تفصلُ بيني وبينَ تلكَ البنايةِ الفاخرةِ التي يقعُ بها عملي، أراها على مرمى بصري على الطرفِ الآخرِ من ذلكَ الممرِ الضيقِ أمامي، فهوَ أقصرُ الطرقِ المؤديةِ إليها، لَكِنّني لم أستعمل هذا الممر في العبور قط، لا أعلم لماذا لكنه يخيفني، أتعمدُ الدوران حوله رغم المسافة الأطول مرورا ببعض الوجوة التي أصبحت مألوفة لدي، لا أعلم أسمائهم ولكن أشعر بالطمأنينة بمروري من بينهم، عبرتُ ذلكَ المدخلِ الكبيرِ الخاصِ بالبنايةِ التي بها عملي ولَكِنّني لن أصعدَ إليهِ الآنَ، فهناكَ محطةٌ أخيرةٌ في روتيني اليومي يجبُ أن أمرَ بها

عم (جميل) مالك محل الفضيات أسفل البناية

دفعتُ البابَ برفقٍ لأسمعَ صوتَ تلكَ الأجراسِ الصغيرةِ المعلقةِ خلفهُ وهيَ تعلنُ عن وصولِ زائرٍ جديد

- " كيف حالك، يا عم (جميل) ؟ "

قلتها وأنا أبحثُ عنهُ في المكانِ، فعلى الرغمِ من اتساعِ مساحةِ المحلِ إلا أنّ كثرةَ التحفِ والأرففِ تعيقُ مجالَ الرؤيةِ، فلا يمكنني سوى المرورِ من خلالِ تلكَ الممراتِ الضيقةِ وأنا أكررُ ندائي

- " عم (جميل) "

وصلتني الإجابة من داخل غرفته بصوته العجوز مصحوبه ببعض السعال

- " لقد تأخرتِ اليومَ يا (حَيَاة) "

ظهرَ من غرفتهِ وهوَ مغطى بأتربةٍ كثيفة قد أخفت بعضا من ملامحه التي ظهرَ عليها القلق عندما استطردَ

- " أحتاج إلى مساعدتك بشدة بعد إنتهاء عملك "

لم تكن أول مرةٍ يستعين بي عمٌ (جميلٌ) في تنسيقِ المعروضاتِ، وكنتُ أعاونهُ لأنني أعلمُ أنهُ ليسَ لديه أولادٌ ولم يكن يثقُ بأحد غيري ولكنها المرةُ الأولى التي يتركُ بابَ غرفتهِ مفتوحًا خلفهُ كاشفًا غرفةً تقريبًا بلا نوافذ، إضاءتها تتأرجحُ باللونِ الأصفرِ نتيجةَ استخدامِ مصباحٍ قديمٍ يعملُ باحتراقِ الوقود

كان المشهد غريب للغاية ولكنه لم يمنعني أن أجيبه بعد لحظة من الحيرة وهو يتدارك ما فعل ويلتفت خلفه سريعا ليغلق باب الغرفة

- " بالتأكيد يا عم (جميل) "

قلتها وأنا أتعجب ! ترى ؟! ما سر تلك الغرفة القديمة ؟

Visual Watermark

كريمة

المكان .. الأسكندرية

الزمن .. الآن

- " إهدئي، فالعالم ليس ضدك، إهدئي "

أظلّ أرددها لنفسي لعلي أستطيع أن أناجي بها تلك الروح المكسورة بداخلي

- " إهدئي يا كريمة، فلا أحد ينظر إليكِ "

وكيف لي أن أعرف إن كانوا ينظرون إليّ حقا أم لا ! فأنا أتفادى النظرات المباشرة من الجميع، ما الذي اكتسبتهُ من النظرِ إليهم سوى ذلك الشعور القاسي بالبرودةِ المنبعثِ مِن أعينهم، وكأنني منبوذة، لا أرقى لأن أكون في الدائرة المقربة لأغلب المحيطين بي

أقودُ سيارتي بمنتهى الحذر، فلا أريدُ أن أكونَ عبئا على أحد - فإنّ جدّ طارئا بالطريقِ ليسَ من حقي أن أستنجدَ بأحدٍ - لقد خسرت ذلكَ الحقِ بالتأكيد !

أقودُ وكلّ هدفي أنّ أصل سالمةً إلى إبنتاي، أن آخذهما وأعود بهما إلى المنزل دون أي عوائق، فأنا بالكاد أتحمل تواجدي بهذا الخطر المستمر من حولي بالطريق، أنظرُ في مرآةِ سيارتي لأرى هذا السيلِ مِن السياراتِ القادمةِ بقوةٍ مِن خلفي لتدفعنيّ أمامها كورقةِ شجرٍ هزيلةٍ سقطت لتطفوَ على مجرى صرفِ الأمطارِ بالطريق، ورقة مسلوبة الإرادة، لا رأي لها في إختيار وجهتها، كلّ ما ترجوهُ هوَ أن يتعلقَ طرفها بأي عائقٍ بجوانبِ مجرى سريانها لعلهُ يؤجلّ مصيرها المحتومُ بأن تدهسَ بالأقدامِ أو تغرقُ وحيدةً بمكانٍ مجهول.

ورقة شجرٍ أسقطت نفسها مِن تلكَ الشجرة المثمرةِ التي كانت دائمًا حصنا لها ولسائرِ مثيلاتها من هجماتِ الرياح المتتالية حينَ قررت أن تستقلّ عنها لتنبتَ شجرة خاصة بها، ولكنها أخطأت في إختيارها، كانَ لا بدّ لها أن تتشبثَ بجذورِ شجرةِ عائلتها القويةِ فضلاً عن الارتباطِ بغصنٍ زائفٍ لشجرةٍ زينةٍ لا لمازَ لها، زوجٌ زائفٌ كشجرةٍ لا تحملُ على أغصانها أوراقًا إلا بغرضِ التباهي بها، ثمّ تسقطها عنها في أولِ خريفٍ بعيدًا عن أعينِ الناظرينَ، سقطت لتصبحَ وحيدةً للمرةِ الأولى في رحلتها.. منبوذة من كل الأشجار المحيطة بها، ضعيفة .. مهزومة .. تحاول إدعاء القوة !

ها أنا أصارعُ ذلك السيل من مياة الأمطار، أكاد لا أرى شيئًا بالخارج سوى انعكاسات أعمدة إنارة الطريق والسيارات المجاورة، لَكِنّني أعلم أنني إقتربت، توقفتُ بالسيارة على جانب الطريق وبدأت دقات قلبي تزداد صخبا، فأنا لا أعلم إن كنت سأجد إبنتاي أم لا ! أحاولُ اختراق الزجاجِ الجانبي للسيارة بنظري، ولكن ستارَ المطرِ يأبى أن يجعلَ الأمرُ سهلاً.

قطرات المطرِ تنزلقُ بغزارةٍ على هذا الزجاجِ الأملس وتأخذني للحظة كم أتمنى أن أُمحَى مِن ذاكرة الكون، لحظة بكاء ابنتي الكبرى وهيَ تتشبثُ بوالدها بكلِ ما كانَ لديها من إرادةٍ وقوة، لحظةً تعلقَ عيناها به وهوَ راحلٌ عنا، وكأنّ عيناها ترفضانِ أنّ تنغلقا، فربما تكونُ تلكَ آخر لحظة تراهُ بها.

وفي النهايةِ لم تستطيع إبقائهما مفتوحتين كثيرا، فرغمَ قوةِ إرادتها كانَ قد أجهدها البكاءُ فاستسلمت وأغلقت عينيها لتتكون تلك هي القطرات الأخيرة على جفونها، قطرات نبتت من عينيها ثمّ تركتها لتنزلقَ على تلكَ البشرةِ النضرة التي أعياها الحزن، ثم التُفتَت لتنظر إليّ، لا أعلم إن كانت تعاتبني بنظراتها أم تشفق علي!

ولَكِنّني تيقنتُ أنّ غدًا لن يصبحَ أبدًا كالأمس، فابنةُ السبعةِ أعوامٍ لم تعد طفلةً بعدَ الآنَ، تلكَ النظرةِ خيرَ إثبات على أنّ إدراكها قد نضجَ لعقدٍ مِن الزمانِ في لحظة.. لتصبح إمرأة في جسد طفلة بلا روح !

إزداد المطر كثافة ليدفعني إلى النزول من السيارة، لن أستطيع إنتظارهما أكثر من ذلك لأقع فريسة لأفكاري القاتمة، فبعد مرور عامين مِن الصراعات مع والدهما، يظل ينتابني ذلك الشعور بالخوف أن أصل يوما إلى أي مكان أتركهن به ولا أجدهن.

لن يأخذهما حبا لهما أو إشتياقا بل ليجعلني أظل دائمًا في يقين بأنني أقل من أن أستطيع حمايتهما وحدي، بدأ التوتر الذي أصبح أحد الأعمدة الأساسية في يومي أن يجعلني أتلفتُ حولي في كل مكان أتواجد به معهما، حتى تطور بي الأمر إلى أن فقدت الثقة في كل مَن حولي، هرولتُ مسرعةً خوفا من المطرِ لأجد نفسي داخل المسرح الذي يأخذونَ درسهما به، ابتلّ وجهي وشعريّ ورداءي فتوقفت لحظةً لانفضَ عني ما تبقى من قطراتِ المطر، كنتُ قد تنحيتُ جانبا حتى لا أعيقَ بابَ الخروجِ ثمّ خلعتُ نظارتي الطبيةُ لأجففها حينَ باغتني صوتٌ أنثويٌ من خلفي قائلًا بلهجةٍ يغلبُ عليها التعجب

- " كريمة ؟! "

Visual Watermark

انتفضتُ في مكاني، لا أعلمُ السبب ولكنّني أصبحتُ أكرهُ أن ألتقي بأحد بدون ترتيبٍ مسبق

وضعتُ نظارتي على وجهي ثم استدرت إلى مصدر الكلمة في حذرٍ وأنا أستشعرُ اقترابَ قائلتها من بين الجموع التي أنهت دروسَ اليالية وبدأت في الخروج

- " كريمة، ألا تتذكريني ؟ "

قالتها بتساؤل وهي تقتربُ مني بهدوء، كانت طويلة، رياضية المظهر، بسيطةُ الملامح، لم أعتقد لأول وهلة أنني أعرفها ولكنها سرعان ما لاحظت حيرتي فبادرت بتذكيري

- " كريمة، أنا (أنا)! "

إسم غريب جعلني ألتفتُ إليها لأجدها تنظر إليّ بدقة لعلها تجد تغير في ملامحي مِمّا قد يدل على أنني تعرفت عليها بالفعل، ولكنّني فشلت في الاختبار، فكلّ ما كان يدورُ بعقلي هو أنها كانت تحجبُ الرؤيةُ خلفها، وأنا في أمسِ الحاجة الآن إلى أن أطمئنّ على ابنتاي .

- " لقد كُنا زملاء في دروس اليالية منذ خمسة عشر عاما، هنا في نفس هذا المسرح، كنا ندرس معا "

نظرتُ إليها ولكِنّني لم أستطيع تمييز ملامحها، فلا أتذكر أنني رأيتها من قبل في أي مرحلة في حياتي، فقلت لها

- " أرجو أن تقبلين إعتذاري، فأنا لست على ما يرام اليوم ولا أعتقد أنني تذكرتك "

ملتُ برأسي قليلًا لألقيَ نظرةً خلفها لعلي أرى البنات، وأنا أكمل

- " ولكن في جميع الأحوال أنا سعدت بمعرفتك "

- " كريمة، ماذا تقولين! لقد كنا يوميًا معا في الدروس، بالإضافة إلى معسكرات المسابقات التي كنا نسافر إليها، كيف لا تتذكرين! "

كنتُ قد عدتُ للنظرِ إليها، لم أكن في حالةٍ تسمحُ لي بالاستمرارِ في الحديثِ معها، فقلةُ الإضاءةِ وملابسي المبتلة كفيلان لأرغب في العودةِ سريعا إلى منزلي

بدأ التوترُ يتسللُ من قناعِ ضبطِ النفسِ الذي أرتديه دائمًا في حالِ تواجدي معَ الناس، فأجبتها

- " أعذريني، فأنا لستُ على طبيعتي الآن "

- "بالفعل، يبدو عليك الإجهاد، على كل حال هذه بطاقتي، أرجو أن تبقى على إتصال "

مدت يدها إليّ ببطاقتها وكانت يدي مبتلةً فطلّبتُ منها أن تضعها في حقيبتي

- " سأنتظر إتصالك "

هَممت بالرد عليها ولكن باغَتني صوت إبنتي الكبيرة (مريم) القادم من خلفها

- " كريمة، لماذا تأخرتِ ؟ "

كانت تمسكُ بيد أختها الصغرى التي تركتها وركضت تجاهي لتحتضنني قائلة

- " أمي، لقد كنتُ جيدة اليوم حتى أنهم قالوا لي أنني سأشارك بالعرض النهائي "

جثوتُ أمامها لأحتضنها قائلة

- " أحسنتِ يا حبيبتي، أنا فخورة بكِ بالفعل "

كانت (مريم) قد سبقتنا بالفعلِ إلى السيارة، فوقفتُ وخلعتُ عني سترتي لأضعها كوقايةٍ لابنتي الصغرى من سيلِ الأمطارِ بالخارج

ظلّت (سارة) تروي لي أحداثَ الدرس وما دار بينها وبين معلمتها بينما نحن نهرول إلى السيارة هربا من المطر

- " معلمتي تقول أنني لا أصلح لعرض الحفل القادم "

قالتها (مريم) أثناءَ جلوسها بجانبي وقد ظهرَ على وجهها علاماتِ الغضب مِمّا جعلني أحاولُ استدراجها لسردِ المزيدِ من التفاصيل، لعلي أستطيعُ كسر الحاجز النفسي الذي شيدتهُ هيَ بيننا فقُلت لها

- " لقد كنت على تواصل دائم بمعلمتك، وهي لم تذكر ذلك مطلقا "

- " لقد تركت الصف لمعلمة أخرى جديدة "

- " متى فعلت ذلك ! حسنًا أعتقد أنني تصادفت معها منذ قليل، لا تقلقي سأتواصل معها غدًا، لقد أعطتني بطاقتها "

لم تجيبني أو تظهرْ أيّ بادرة امتنان، بل اكتفت بالنظرِ من خلالِ الزجاجِ الجانبي للسيارة

بدأتُ أسلكُ طريق المنزلِ وأنا أحاولُ استرجاع علاقتي ب (أنا) في ذاكرتي

فإن تذكرتها قد أتمكن من محاولة أقناعها بإدراج (مريم) في قائمة العرض النهائي كما كان مقرر لها من قبل

فأحيانا بعض الحنين المستتر في ثفاصيل الماضي، في رائحةٍ عابرة أو لون أو ملمس مرتبط بلحظة مميزة . . يجعلنا نتذكر، أو على أقلِ تقدير نقنعُ أنفسنا بأننا نتذكرُ، لمجردَ أن نعيشَ تلكَ التفاصيلِ ولو لمرة واحدة أخيرة في أذهاننا دونَ تشبثٍ بالحاضر .

وأنا اتذكر ذلك المسرح، اتذكر رائحته، رائحة ذلك الخشب العتيق المشبع بزهو انتصارات كثيرة، وانكسارات أكثر ! تحولت لإبداعات أجيال لم تمل من المحاولة في سبيل تحقيق الذات

أجيال سَبقت وأجيال جيلي، أتذكر كل شئ.. ولكِنّني بالفعل لا أستطيع أن أتذكر (أنا) بل أنا على يقين تام أن تلك هي المرة الأولى التي أراها بها الأولى على الإطلاق !

Visual Watermark

أماليا

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

- "كنت أعلم أنني سأجدك هنا"

قالتها ابنةُ خالتي وهي تقتربُ من خلفي بهدوء، فهي تعلمُ أنني أحبُ أن أختليَ بنفسي في الشرفة أحيانا عندما أكونُ في حاجةٍ لأن أتنفس دون أن تبدأ خالتي في إحصاء عدد أنفاسي.

كانت (لبنى) تمثل أول خطوات خطة المناورة المكررة التي تنفذها خالتي بعدَ كل اجتماعٍ معَ أي عريس محتمل، نظرتُ إليها وهي تمل لتقف بجانبي، لم تنظرْ إليّ، بل اكتفت بأن عقدت ذراعيها وهيَ تنظرُ أمامها، ظللتُ أراقبُ مراحل تحولها من شخصيتها - التي أحفظ معالمها عن ظهرِ قلبٍ - إلى تلك المجموعة المختلفة من الشخصيات ذات الملامح المختلفة، شخصيات لا يجمعُ بينهم سوى هدفٍ واحد فقط، هو الحصول على المعلومة !

هَمَّت أن تنطق بشيء ولكنها اكتفت برفع حاجبها الأيسر وهيَ تعيدُ النظرَ فيما ستنطقُ بهِ، فهيَ تعلمُ أنّ أول حروفٍ تنطقُ بها شفاهها سوف تحددُ ما إن كُنتُ سأكملُ حديثي معها أمْ لا

ظلّت سَاكِنة للحظة ثم هَمّت أن تنطق بشيء آخرَ ولكنها سرعانَ ما حبست الكلمات بداخلها وابتلعتها بأن وضعت كفها بحركة لا إرادية أمامَ فمها لعلها تستطيعُ أن تُحَجِّم ما قد يتسلل عبر لسانها.

كانت لحظةُ الغروبِ بطيئة وكأنّ الشمسَ هيَ الأخرى تحاولُ التشبثَ بما تبقى من اليوم، فعلى الرغم من هذا السيلِ العنيف من الأمطارِ بقت الشمسُ وقد غلبها الفضولُ، فأبت أن تذهبَ أو تنطفئ دونَ أن تستمعَ إلينا، فنظرت إلى الشمس المجهدة لأحاول أن أبعث اليها بافكاري، لعلها حين ذلك تستطيع ان تتركنا وهي مطمئنة بأنها لن يفوتها شيء مِمّا سأبوح به، ثم اقتربت من (لبنى) وهيَ في أوجِ حيرتها وهمَست في أذنها مازحةً

- " لا تحاولين إخفاض صوتكِ، فقد سمِعتكِ "

التفتت إليّ في سرعة وقد تمكن منها القلق فقالت

- " كلا، لم تسمعين شيئا، لا يمكن ان تكوني سمِعتي ! "

كنتُ ابتسمُ لها دونَ أنّ أبدي أي اهتمام لقلقها، مِمّا جعلها تكملُ وهيَ تقضمُ أظافرها

- " اسمعتني بالفعل، اكنت اتكلم بصوت مسموع ؟!"

تَعَمّدتُ عدمَ إجابتها، فأنا أريدُ أنّ أزيدها تلهفا لمعرفةِ ما يجولُ بخاطري منذُ اجتماعي معَ (أدهم)

- "ميلا ؟!"

قالتها بصوتٍ مضطرب فأشرت إليها أن تصمتَ ثم بدأت أتصنع بعض الملامح الجادة بوجهي وأنا أجيبها

- "ألم يقل لك أحدًا من قبل .. أن صوتك مزعج ؟ "

- "بلى، الكثير .. ولَكِنّني لم أقتنع قط ! "

قالتها بإبتسامة وهي ترفع أنفها عاليا بما يفيد إدعائها الثقة التامة فيما قالت للتو!

لم يكن أمامي سوى أن ضربتها على أنفها وأنا أضحك قائلة

- " عودي إلى رشدكِ "

ثم نظرتُ أمامي وأنا مُبتسمة وأكملتُ

- " هذا إن أردتِ العودة إلى خالتي بما يطرب أذنيها "

انسَعَت عينيها بما يفيدُ اندهاشها فاقتَرَبَت مني بهدوء لتحاولَ التبيّنَ من ملامحي ما قد يوضحُ معنى ما قلتُ، كانت الشمسُ قد فارقتنا بالفعلِ، لم يتبقى منها سوى آثارِ روحِ نهارٍ منتهي، ذَهَبَت لتترك الفرصةُ لقمرٍ خَجول، لا يستطيعُ أن يحلّ محلها، ولكن لهُ سحره الخاص، سحرٌ كفيل بأن يجعلنيَ أعيدَ النظرَ في تذمري تجاهَ الرجالِ

خاصّة (أدهم) ..

- "ميلا"

جاءَني صوتها يكادَ يكونُ هامسا في أذني ثمّ أكملت وهيَ تنظرُ إلى

- "لا تتركيني لأفكاري، فأنتِ تعلمين أنني بالكاد أستطيع التفكير من الأساس "

لم ينقطع صوتُ المطرِ ولكنّ صوت عقلي كانَ أكثرَ وضوحًا ..

كانَ قويا لدرجة أنني قررت أنّ استسلمَ لهُ، وأقتنعُ !

خطوتُ نحوَ سورِ الشرفةِ ثمّ مددت يدي لأداعبَ قطراتِ المطرِ فلحقتني (لبنى) وهيَ تنظرُ إلى بدهشة ..

فهي لم تعهدني هكذا من قبل !

تَحَسّستُ قطراتُ المطرِ وهيَ تنسابُ على كفي ثمّ قلت

- " أتعلمين ؟ فبالرغمِ من مرورِ أسبوعٍ على مجلسِ النباهي بينَ الأسرتين لم يحاول (أدهم) أن يتصلَ بي قطّ، والغريبُ بالأمرِ هوَ أنني استحسنت ذلك، لقد تركني كي أتقبلهُ دونَ إلحاحٍ، أعتقدُ أنّ هذهِ هيَ المرةُ الأولى التي قد استسلمَ بها، وأتركُ مجالاً ضيقًا جدًا لاحتمالِ أن أتقبلَ فكرة الارتباطِ بشخص "

لم تصدق ما قُلته، فمدت يدها لتسحبَ يدي من تحت المطر ثمّ ضغطت عليها وهيَ تنظرُ في عيني مُبَاشَرَةً عندما قالت

Visual Watermark

- "هل يعني ذلك أنك وافقتِ .. أخيرًا ؟! "

- " مَن قال ذلك ؟ "

- " ألم تقولي ذلك الآن ! "

- " لا، لم أفعل .. لقد قلت (مجرد إحتمال) "

تَرَكتُ يدي وقد ظهرت في عينيها بوادر الإحباط فقالت

- " ولكن هذا الإحتمال لم يكن موجود في المرات السابقة مع مَن سبقوه "

- " بلى، ولكنه يظل (مجرد إحتمال) "

- " وما الذي أثار فضولك بخصوصه "

- " لا شيء محدد بشخصه، بل بما قال لي، كلّ ما في الأمر أنهُ لفتَ نظري لأمرٍ كنتُ مهتمةً بهِ في فترة طفولتي، ولكنّني نسيتهُ مع مرور العمر "

- " طفولتك ؟!

أتقبلين شخصًا للزواج لأنه ذكرك بطفولتك ؟! "

- " قلتُ لكِ أنني لم أقبل بهِ بعد "

قُلتُها بدرجة بسيطة من الغضب مِمّا دفعها للصمتِ لحظةً قبل أن تُكمل

- "حسنا، وما هذا الأمر الذي تذكرتيه ؟ "

لا أعلمُ لماذا، فبالرغم من برودةِ الطقسِ شعرت بتلكَ السخونةِ بداخلِ رأسي، فقدْ بدأت بعضِ الصور المشوشةِ من الماضي في التصادم بداخلي، كنتُ أنظر إلى (لبنى)، لكِنّني بالفعل لم أراها، أغلقتُ عيني في محاولة لتهدئة ذلك السيل الغير مبرر من ذكريات الطفولة المشوشة وإيضاحها ولكن دون جدوى، كانَ المطرُ قد ازدادَ غزارةً، وازدادَ معهُ تشوهَ تلكَ الصورِ في رأسي، فكلما حاولت التمسّك بها تتعمدُ التعمقَ أكثرَ بداخلي كي لا أستطيعَ أن أراها بوضوحٍ، ثم ومض البرق !

ومض وعيني مغلقةٌ لَكِنّني رأيتهُ، فقدَ أضاءَ كلّ شيءٍ حتى عقلي، ولو للحظةٍ !

ومضة كانت كفيلة لإيضاح ذكرى مطمسة المعالم، ذكرى أخفاها الزمن في عقلي لأعوام كثيرة، ذكرى الضوء ..

- " ضوء؟! اسمه برق يا ميلا "

- " ماذا؟ "

سألتها بعد أن فتحت عيني مندهشه، فأنا لم أنطق بشيء

- " لقد هَمَستِ بكلمة ضوء فور حدوث البرق، أهذا ما تذكرتيه ؟ "

فَرَكتُ عيني ثم نَظَرت إليها قائله

- "كنت صغيرة لا أتعدى السبعة أعوام، وكان الجو عاصفًا كما هو الآن، أتذكر أنني كنت دائمًا أخشى النوم في الظلام، فكانت أمي تعدني أن تُبقي باب غرفتي مفتوح قليلًا ليكون منفذ لبعض الضوء القادم من الخارج

ولَكِنّني كنت دائمًا أستيقظ بعد مرور بعض الوقت لأطمئن أنها بالفعل تركت لي الباب مفتوحًا "

قاطعتني وهي تتصنع الغضب قائله

- " ألا تخجلين من نفسك .. حتى أمك لا تثقين بها "

- " أصمتي، أو أكف عن الكلام "

قُلتُها وأنا أبتسم فَضَحِكَت وإعتَذَرَت لي كي أكمل

- " كانَ هذا الحدثِ يتكررُ يوميًا، فبسببِ خوفي لم أكن أملُ أبدًا من التأكدِ من وجودِ الضوءِ . . حتى استيقظتُ في ليلةٍ ولم أجدهُ !

كانت الغرفةُ معتمةً، ولكن ما طمأنَ قلبيّ هو أنني سمعت صوت أمي بالخارج، أنزلتُ أقدامي الصغيرةُ أرضا لأبدأ خطواتٍ سريعةً أصلَ بها إلى البابِ المُغلقِ لأفتحهِ، لَكِنّني بمجردِ أنْ وصلت إليهِ تسمرت في مكاني، فلم تكن أمي وحيدة بالخارج، كان معها عدة أشخاص يتكلمون معها، ثلاثة أصوات مختلفة لرجلين وإمرأة، لم يكن كلام بالمعنى المعهود بل كان أقرب إلى جدال في إجتماع عمل، فكان أسلوبهم تهجمي وكانت ردودها قوية مِمّا جعلني أزداد قلقا عليها، هَمَمتُ أن أفتح الباب لأخرج إليها ولَكِنّني سَمعت ما إستوقفني، سَمعتُ إسمي، لم يكن نداءً، بل جاء مذكورا على لسان المرأة مصحوبا بتحذير لأمي إن كانت مخطئة بشأني ! وكانت أمي تؤكد لهم أنها على يقين تام بما فعلت !

غلبني فضولٌ وسبقتني يدي ففتحت البابَ قليلًا، ومعَ حركةِ البابِ سادَ الصمتُ على المكانِ وانتبهت المرأةُ إليّ، كانت جميلةً الملامحِ ذات شعرٍ أشقر جذاب، ولكنّ ذلكَ لم يشغلني كثيرا، فأكثر ما أتذكرهُ من تلكَ اللحظةِ هوَ تلكَ النظرةِ الحادةِ التي رمقتني بها ثمّ التفتت المرأةُ لأمي التي نظرت إلى بدورها ولم تمر سوى لحظةٍ حتى جاءت أمي أمامي واحتضنتني وهيَ تحاولُ أن تطمئنني، كانوا يتحركونَ من خلفها متجهينَ إلى خارجِ الشقةِ تاركينَ صندوق خشبي قديم لم أكن قد رأيتهُ من قبلِ، خرجَ الرجلينِ واستدارت المرأةُ لتمسك بابِ الشقةِ وتغلقهُ خلفها بهدوء.

معَ صوتِ انغلاقِ الباب تركتني أمي، ذهبت لتضعَ الصندوقَ بغرفتها، تركتني لكم من الأفكارِ والاحتمالاتِ أكبرُ من أن يستوعبهُ وعيُ طفلةٍ في السابعةِ من عمرها، ثم عادت إليّ لتحملني إلى مضجعي، لم أسألها شيء، ولم تتطوع هيَ بأيّ من الإجاباتِ التي كانت ستملأُ فراغاتِ عقليِ الصغير، تركتني وخرجت مجددًا، وتركت معي ذكرى إجتهدت كثيرا لأتمكن من طمس معالمها حتى جاء (أدهم) وأثناءَ حديثي معهُ أثارَ فضولي في عدةِ نقاط وتذكرت الصندوق، وكأنما أحيا بداخلي الدافع لأبحث عن هويةِ هؤلاءِ الزائرين، وعما كانوا يريدون من أمي بل والأكثر من ذلك، ما الذي أرادت أمي إخفائهِ عني بتكتمها

ترى !

ما الذي يحتويه هذا الصندوق ؟! "

Visual Watermark

الفصل السابع

العاصمة

جميلة

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

عبرتْ تلكَ الأروقةِ الرخاميةِ متجهةً إلى مكتبي الذي خصصتهُ لي وزارةُ السياحة.

كانَ محمود قد سبقني بحقيبتي، فمنذُ وصولي مبنى الوزارة كُنتُ تعثرُ بمن كانوا حاضرينَ المؤتمر، لم أعلم كم كانوا كثيرين حتى هذهِ اللحظة ! فمجالُ عملي لا يتطلعُ إليهِ الكثيرونَ، وكأنما نسينا أنَّ في حضارة أجدادنا إجاباتٍ لتساؤلاتٍ حاضرنا، ولن يستطيعَ أحدٌ فكَ شفرتها سوى نحنُ الأحفاد.

حاولتْ إشباعَ فضولِ البعضِ ببضعةِ إجاباتٍ غيرِ متقنةٍ، ولَكِنَّني منذُ طفولتي كنتُ دائمًا أفشلُ في تحويرِ الحقائقِ، فلم يقتنعْ أحد بإجاباتي السريعةِ المبهمةِ حولَ الرسالةِ أو عما أنوي فعلهُ استكمالاً للكشف، أكملتُ سيري حتى وصلت إلى مكتبي حيثُ استقبلتني مساعدتي وكأنها تحاولُ إبطائي عن الدخولِ بعدَ أن جعلت جسدها حائلٌ بيني وبينَ البابِ، حينها مالت قليلًا إلى الأمام لتتحدثَ إليَّ بصوتٍ منخفض

- " دكتورة هناك سيدة في انتظارك "

- " من هي ؟ "

قلتها وأنا اعتدلُ في وقفتي بعدَ أن فهمت لِمَ أوقفتني بتلكَ الصورةِ الغريبة

- " لا أعلمُ، فهيَ ترفضُ التحدثَ إلى أحدٍ، أتيت اليومينِ الماضيينِ وكانت تجلسُ صامتةً في انتظارك، حتى ينتهيَ دوامُ العملِ فتنصرف دون أن توجهَ إليَّ أي كلمة "

كانَ كلامها غريب، فأنا لم يمر على تواجدي بمصر سوى بضعةِ أيامٍ، وبالفعلِ لا أعرفُ إلا القليلَ مِن أقاربي ومعارفِ أسرتي، فأيُّ من تلكَ المرأةِ المصرةِ على لقائي ؟ والأغرب، ما الذي قد تُريده مِني فيجعلها تُحاول أكثر من مَرة التحدثَ إليَّ مباشرة دُون غيري ؟!

- " حسنا، فلترسليها لي بمجرد دخولي المكتب مِن فضلك "

قُلتها وأنا أعبر من خلال الباب بسرعة

لا أعلمُ لماذا ولَكِنَّني شعرت بدقاتِ قلبي تتسارعُ أثناءَ عبوري أمامها وهيَ جالسةٌ، لم أجرؤ حتى على اختلاسِ النظرِ إليها، ولَكِنَّني شعرت بتلكَ النظراتِ الثاقبةِ تخترقني، ومعَ شعوري هذا أحسستُ بتباطؤِ الزمنِ مِن حولي، وكأنَّ تلكَ اللحظةَ قد استمرت دهرا!!

ذَهَبَتْ مُساعدتي إليها لتوجهها نحو اللحاقِ بي، كانَ صوتها مسموعا إلَيَّ ولَكِنَّني لم أكن قادرةً على تمييزِ ما تقولهُ، فقد استَهلَكتْ عقلي في محاولاتِ السيطرةِ على ملامحي حتى لا يبدو على الفضول.

كانَ كلُ اهتمامي أن أصل إلى مكتبي لأجلسَ قبلَ دخولها.. وها هي ..

عجوز، قصيرةُ القامةِ، ترتدي ردائاً أسود مُحَلى ببعضِ زينةِ أهلِ النوبةِ الأصليينَ، تخفي معالمَ رأسها بوشاحٍ طويلٍ رقيقِ الملمسِ لا يشفُ سوى ما تريدُ هيَ إظهارهُ مِن خصلاتِ شعرٍ فضية، تخطو خطواتٍ ثابتةً خفيفةً المسمعِ وكأنها تعودت أن تسيرَ حافيةَ الأقدامِ في الرمالِ بلا صوتٍ فتخشى من تلكَ الأرضِ الصلبةِ أن تُشعِرها بالغربةِ بعيدًا عن موطنها أو قد تكونُ تتعمدُ ألا تترك لها أثرٌ بعدَ رحيلها، فتصرفاتها توحي بأنها لا تريدُ أن يعلمَ أحدًا بلقائنا هذا.

جَلَسَت أمامي في هدوء تام وهي تنظر إليَّ بحدة، وكأنها تتبين إن كُنت أنا "جميلة" بالفعل أم شخص آخر.

نَظَرتُ إليها بدوري لعلي أجدُ بملامحها بعضَ التشابهِ الذي قد يربطُ بينها وبينَ أي شخصٍ أعرفهُ، ولَكِنَّني فشلت بذلكَ بالفعلِ، وكانت هيَ تعلمُ ماذا أحاولُ فعلهُ، وكأنها توقعت مني ذلكَ قبلَ لقائنا، فلم تشحْ بوجهها عني لحظةً وهيَ على ثقةٍ كاملةٍ بأنني لن أستطيعَ التعرفَ عليها.

ملامحُها كالأصليين، كتلكَ الملامحُ التي تراها على جدرانِ المعابدِ، مصرية نوبية سمراءَ اللونِ، الفارقُ الوحيدُ هوَ ما رسمهُ الزمنُ على وجهها من تفاصيلَ، وكأنما قَسرد تلكَ التجاعيدِ قصص لا تفي الكلمات حقَ روايتها.

قد تكونُ ملامحُها مميزةً بالفعلِ ولكن ما جذب انتباهي أكثرَ هوَ عينيها زرقاء أم خضراء لا أدري! بل هي مزيج من الأزرق والأخضر وكأنهما تلونتا بلون الجُعران الفرعوني، تميمَتين للتحصين تَرى من خلالهما حقيقة مَن حولها لتستطيع التَبَيُن بمَن تَثق ومِمَّن تتوخى الحَذر.

اعتَدَلتُ في مقعدي خلفَ مكتبي وهممتُ أن أتحدثَ إليها حينَ أشارت لي بالانتظار ثمَ بدأت هيَ بالحديث

- " أنتِ لا تعرفيني يا ابنتي، فلا تجهدين نفسك بمحاولة التعرف عليَّ، ما أنا إلا حاملة أمانة "

بدأ التعجبُ يتسللُ إلى ملامحِ وجهي وهيَ تكملُ

- " نعم أمانةٌ، أعطاني إياها والدكِ مُنذ زمنٍ، واستأمنني عليها

لم يذكر لي حينها متى سيستردها مني ولكنهُ قالَ لي أنهُ في حالةِ عدم استطاعتهِ العودةِ لاستردادها فيجبُ عليَّ أن أسلمها إليكِ متى سنحت الفرصةُ لذلك "

- " حسنا، ولكن أبي لم يذكر لي أي شيء بخصوص ذلك من قبل "

- " بالتأكيد لم يفعل "

- " ولم التأكيد، لا أعتقد أن أبي كان يخفي عليَّ شيء "

- " بل أخفى الكثير "

قالتها بمنتهى الثقةِ والثباتِ وهيَ تستعدلُ تلكَ القلادةَ القديمةَ على صدرها مِمَّا جعلني انظر إليها رغما عني، لم أكن قد لاحظت وجودها من قبلُ ولكنَ حجمها ولونها لا يمكنُ إنكارهما من الواضح أنا ليست مجرد قلادة، بل هي أثر!

لم أكن أستطيعُ مجادلتها فيما قالت، فقد عشتُ كامل حياتي وأنا على يقينٍ أنَّ ما عرفتهُ عن أبي هوَ ما أرادَ كشفهُ لي فقط

Visual Watermark

- " فليكن، إن اعتبرت ما نقولينه صحيح وأن أبي قد تعمد إخفاء شيئًا معك، فما الذي يجعلني أن أصدق أن ما ستعطيني إياه هو بالفعل منه "

- " لا تتعجلي الأمور يا ابنتي، دوري أن أسلمك الأمانة، ودورك أن تتخذين قرارك، إما في أن تكملين ما بدأهُ هو وإما أن تحمدين أثر ما سأقدمهُ لك، ليس معي برهان ولكنني ألقُ في تقديرك، فأنتِ ابنتهُ ووالدك كانَ من أكثر الناس اعتمادًا على حواسه "

نظرتُ إليها في حين بدأت هيَ في مشاهدة مكتبي من حولها وكأنها تريدُ أن تتيقن أننا بمفردنا ثم عادت للنظر تجاهي مرةً أخرى ولكن هذه المرة لم تكن تنظرُ إلى بل كانت تنظرُ خلفي !

خلفي مباشرة ! مما جعلني ألتفتُ لأحدد ما الذي قد لفتَ انتباهها إلى هذا الحد، لم يكن خلفي سوى تلك الصورة المشهورة للأهرامات الثلاثة، صورة تبعثُ الفخر والحيرة بداخل الناظرين إليها بتمعن !

استدرتُ بمقعدي مُجَدَّدًا لأجدَ وجهها قريبا جدًا مني ! كانت قد نهضت من مقعدها دون أدنى صوت ومالت عليَّ وهي تضع مكتبي حائلا بيننا، كدت أصرخ من الفزع ولكنها لم تترك لي مساحة كافية للصراخ فاكتفيت بأن تَسَمَّرتُ في مقعدي !

" ثلاثة "

قالتها بصوتٍ منخفض للغاية حتى أنني لم أكن قد سمعتها جيدا، حينها أشارت بيدها أمام وجهي بثلاثة أصابع وكأنها شعرت أنني في حاجة لتأكيد ما سمعت، تَسَمَّرَت عيناي عليها وهيَ تعودُ إلى مقعدها بهدوء بعدَ أن تركتني شاحبةُ اللون مجاهدةً لتمالك أعصابي أمامها وأنا أقولُ

- " لا أريد أن أكون فظة أو قليلة الذوق ولكن هل .... "

لم أكن قد أكملت الجملة حين قاطعتني بقولها

- " تريدين الأمانة "

- " بالفعل، ألست هنا لهذا السبب ؟ "

- " لا "

- " لا أفهمك ؟ "

- " ثلاثة "

- " ماذا تقصدين ؟! "

- " عددنا يا ابنتي، عددنا لا يكفي لإعطاؤكِ الأمانة، يجب أن نذهب الآن "

- " نذهب إلى أين ؟! "

- " إلى حارس الأمانة "

- " حارس الأمانة ؟! ألستِ أنتِ حارستها ؟! "

تجهمَ وجهها للحظةٍ قبلَ أن ترتسمَ على شفاهها ابتسامةٌ بسيطة وهيَ تقول

- " أنا مجردُ واصيةٍ عليها، دوريَ أن أسلمكِ إياها ولكنني لا أستطيعُ أن آخذها من حارسها بدونكِ "

- " ولم لم يأتي بها معك ؟ "

- " يا ابنتي من الواضح أن حياتكِ بالخارج أنستك تقاليدنا، إن أردتِ شيئًا من أحد يجب أن تذهبي إليه، وثقي بي أنتِ تريدين تلك الأمانة التي دفع والدكِ في سبيلها الكثير "

انعقدا حاجباي مع قولها الأخير ولكنني لم أريد أن اخرج من سياق الحديث بأسئلة عن والدي فقلت لها

- " حسنا، أعذري جهلي، فلنذهب سويا إليه "

نَهَضتُ عن مقعدي وبدأت في التوجهِ بهدوء إليها ولكنها لم تتحرك من مقعدها

- " ليس الأمر بهذه البساطة فهو ليس قريبا "

وقفتُ أمامها ثم قلت

- " أين هو إذن ؟ "

- " في العاصمة "

- " ولكننا في العاصمة، أين مكانه بالتحديد في العاصمة ؟ "

- " لسنا في العاصمة يا ابنتي، يجب أن نرحل سويا إلى العاصمة، العاصمة يا ابنتي، العاصمة حيث بدأ كل شيء ! "

نظرتُ إليها وقد تأَمَّلت تلك القشعريرة بداخلي، فقد كنت محقة فيما شعرت به تجاهها منذ أن رأيتها جالسة بالخارج، ما السر خلف هذا السحر الهادئ المنبعث منها! و كيف استطاعت بجلسة واحدة معي أن تقنعني بأن اسافر معها ! وما الذي قد يكون قد تركه والدي لي! ولم لا تستطيع أخذه من الحارس! بل ومَن هو الحارس!

والعاصمة، أي عاصمة تَقصد !

كل ذلك دار بداخلي، أخذت تلك الكلمات تدور وتدور وتدور داخل عقلي ، وبدورانها ازدادَ فضولي، واشتدت عزيمتي، ثم أعد أراها أمامي ولم أعد أفكر في شيء سوى صورة والدي وهو ينظر إليَّ مبتسمًا ليطمئن قلبي بينما أخطو نحو مسار مجهول لا يزره سوى اسم والدي في عقلي

لتكن العاصمةُ هيَ المحطةُ القادمةُ !

إذن،

فلنذهب إلى العاصمة !

Visual Watermark

الملكة

المكان .. العاصمة القديمة (طيبة) - قصر الحكم

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

أقفُ في شرفة غرفتي لأتابع تمايل حقول النخيل أمام القصر. لا يظهرُ منها ليلاً سوى ما تريدُ هيَ إظهارهُ بمرورِ أشعةِ القمرِ من بينِ طياتِ أوراقها، تقبعُ جذورها في ظلامٍ قاتمٍ يقاومُ سحرَ القمرِ في كشفِ أسراره، هدوء ساحر جعلَ روحي تنجذبُ إليه، قد تكونُ هذهِ الشرفةِ هيَ ملاذي الوحيد لأكونَ بمفردي بنهايةِ كلِ يومٍ لأمحوَ آثارَ توترِ أحداثِ النهار، لا أسمعُ شيئًا الآنَ سوى تلكَ المعزوفةِ الطبيعيةِ المتناغمةِ بينَ صوتِ أوراقِ النخيلِ وخريرِ ماءِ النهرِ المتلألئِ تحتَ ضوءِ القمر، نسمةٌ بسيطةٌ بدأتْ تداعبُ الستائرَ، لم تكن سوى نتيجةً لفتحِ وصيفتي بابَ الغرفةِ باحثةً عني، فالتفتُّ إليها

- " سيدتي "

قالتها وهي تنحني احتراما قبل أن تكمل

- " مولايَ يطلبُ تشريفكِ لمجلسه "

لم يكن قد مضى الكثيرُ من الوقتِ منذُ افتراقنا مِمَّا جعلَ ملامحَ التعجبِ تعلو وجهي

- " وأين هو مجلسه ؟ "

قُلتها وأنا ألتفتُ مرةً أخرى إلى خارجِ القصرِ

- " قاعة الخرائط يا سيدتي "

جاءني ردها مفاجأةً بحق، فمن غيرِ المعتادِ أن يتواجدَ الملكُ بتلكَ القاعةِ، إلا في حالاتِ الطوارئ، وإن حدثَ ذلكَ وكانَ الأمرُ طارئا، لمَ قد يستدعي زوجتهُ للحضور ؟! دارت تلكَ الأسئلةِ بعقلي سريعا ولم تمر سوى لحظاتٍ حتى أصبحت في طريقي إليهِ مرورا بأروقةِ القصرِ، كانَ الكثيرُ من الحرسِ الملكيِ متواجدينَ ولكن ما كانَ مثيرٌ للدهشةِ هوَ تواجدُ هذا الكمِ الكبيرِ من الضباطِ المنتمينَ للجيشِ، كانوا يتحدثونَ فيما بينهم في تجمعاتٍ بهذا البهوِ العملاقِ السابقِ لقاعةِ الخرائطِ المغلقة، بدأتُ في المرورِ من خلالهم ومرروري بدأت تحيةُ الاحترامِ تتوالى من كلِ مَن يُدرك وجودي، أخطوا آخر خطواتي الآن لأقفَ أمامَ بابٍ خشبيٍ ضخمٍ مغلقٍ بحراسةٍ مستقلةٍ ومزينٍ بنقوشٍ تسردُ كثيرا من الحروبِ التي خاضتها جيوشُ (كمت) منذُ توحيدِ القطرين

- " فَلْتُعلِم مولاي بحضوري "

قُلتها بثقةٍ لقائدِ الحرسِ الذي بدورهِ قامَ بالإشارةِ لأحدِ أتباعهِ بحركةٍ عسكريةٍ صارمةٍ مِمَّا جعلهُ يتحرك في سرعةٍ إلى داخلِ القاعة، لم تمر سوى لحظةٍ حتى فُتحَ البابُ واصطفَ الجنودُ على الجانبينِ بصرامةٍ كاشفينَ لي ممرا للدخولِ من خلالهم قاعة متوسطة المساحة تكسو جدرانها نماذجَ مختلفةً لتطورِ أسلحةِ الجيشِ على مرِ العصورِ، في منتصفها توجدُ منضدةٌ خشبية مستطيلة الشكلِ يبدو عليها القِدَم، فهيَ تبدو كقطعةٍ أثريةٍ أكثرَ من كونها جزءً من أثاثِ المكان، تحيطُ بالمنضدةِ تسعةِ مقاعدَ رئيسيةٍ متماثلةٍ في تصميمها فيما عدا رؤوسَ أعمدتها، فكلُ رأسٍ ترمزُ لوظيفةٍ ما في المملكةِ في حينِ يتوسطُ مقعدَ الملكِ أحدَ الأضلعِ القصيرةِ منفردٌ، ليست تلكَ هيَ المقاعدُ الوحيدة، فبجوارِ الجدرانِ ترتص بعضَ المقاعدِ الخاصةِ ببعضِ الأتباعِ الذين تم اختيارهم بعنايةٍ ليدونوا ما يتفقُ عليهِ رؤسائهم.

تبدو القاعةُ أشبهَ بحصنٍ صغيرٍ، ليسَ لها سوى بابٍ واحد ولا يوجدُ بها نوافذُ قط، فمصدرُ الإضاءةِ الوحيدِ هوَ تلكَ الأعمدةِ المشتعلة المشبعة بالزيتِ والمثبتةِ على الجدرانِ في ترتيبٍ منتظم ليضيفَ ذلكَ الضوءِ الأصفرِ النارِي رهبةً للمكان، قاعة غلب عليها طابع التوتر ولم تخلو من صناع القرار الأساسيين للبلاد.

حسنا، تصحيح!، تقريبا لم تخلو ؛ فالملك ليس بينهم !

أرى الوزير يقف بجواره قائد الجيوش يدرسان خريطة ما على المنضدة في حين يعلو صوت أحد الكهنة مع أحد الضباط رفيعي المستوى بأحد أركان القاعة، في نفس اللحظة التي يجلس بها الكاهن الأكبر على أحد المقاعد الملحقة بالمنضدة، أرى قائدي جيشي الشمال والجنوب يقفان مع كبير المهندسين في حين يقف كبير الأطباء، مع أحد أتباعه وقد ارتسمت على وجهه ملامح حادة تنم عن توتره، لم يكن أحدٌ قد انتبهَ لدخولي ولكنهم سرعانَ ما توقفوا جميعا عما كانوا يفعلونَ فورَ دخولِ الملكِ من خلفي، خطوات سريعة اتخذها حتى توقف بجانبي ثم مال برأسه تجاهي ليهمس في أذني

- " أحتاج إليكِ "

ثم نظر إلى جميع الحاضرين ليأمرهم بالجلوس وهو يسير في عجلة نحو مقعده، كانت أعين الجميع مثبته عليه عدا أعين قائد الجيوش وقائد حرس المملكة والكاهن الأكبر ظلّت تنظر إليّ في مزيج من الدهشة والامتعاض بينما يلتهم سؤال واحد عقولهم، لِم قد يطلبني الملك لمجلس كهذا؟!

بدأتُ الاقتراب من الضلعِ الخالي من المنضدةِ في حينِ جلسَ الملكُ وعن يمينهِ جلسَ الوزيرُ ثمَ قائدِ الحرسِ الملكي ثمَ كبيرِ الأطباءِ ثمَ كبيرِ المهندسينَ، أما عن يسارهِ فجلسَ الكاهنُ الأكبرُ يليهُ قائدُ الجيوشِ ثمَ قائدِ جيشِ الجنوبِ وأخيرا قائدُ جيشِ الشمالِ، تَسَمَّرتُ مكاني على غيرِ طبيعتي، فأنا لا أعلمُ أينَ أجلسُ ولم أكن أتوقعُ أن أتواجدَ هنا الآنَ، هممتُ أن أتكلمَ ولكنَ فُتحَ بابُ القاعةِ بغتة من خلفي فاستوقفني، لمَ التفتُ إليهِ، ولكنَ تَبَدُّل ملامحِ الكاهنِ الأكبرِ وقائدِ الحرسِ ومحاولاتهم إخفاءُ هذا القدرَ من الغضبِ تجاهي جعلني أشعرُ بالفضول نحو ما يحدثُ خلفي

- " لقد أمرت لكِ بهذا المقعد قبل غروب شمس الأمس، بمجرد وصول الرسالة "

نظرتُ خلفي لأجد مقعد يضاهي مقعدَ الملكِ جمالاً ولكنَ أقلَ ارتفاعا كسائرِ المقاعدِ وقد لفتَ انتباهي أنهم قد تركوا رؤوسَ المقعدِ بلا رموز

- " لقد تركتها لكِ لتختاري ماذا يضعون عليها "

قالها الملك وهو يشيرُ إليّ بالجلوس

جلستُ في صمتٍ من الجميعِ حتى حسبتُ أني أسمعُ أصواتَ دقاتِ قلوبهم الحاقدةِ

استمرَ الصمتُ لحظةً ولكنهُ استمرَ بداخلِ عقلي حينَ بدأ الكاهنُ الأكبرُ في الكلام

- " مولاي، نحن غير مجهزين لذلك الآن "

قاطعهُ الوزيرُ مستنكرًا

- " ما نوعُ التجهيزِ الذي قد يحتاجُ إليه معبد أمون في ظرف كهذا ؟ "

Visual Watermark

نظرَ إليهِ الكاهنُ قائلاً

- " لا تستخفَّ بقدرةِ المعبدِ في توجيهِ آراءِ الشعب "

قاطعهُ قائدُ الجيوشِ متسائلاً

- " وما الذي تحتاجهُ من الشعبِ لتأمينِ حدودِ المملكةِ أيها الكاهنُ "

نظرَ قائدُ الحرسِ إلى قائدِ الجيشِ قائلاً

- " توحيدُ الهدفِ خلفَ الجيشِ أيها القائد "

- " هي فطرةُ شعبِ (كمت)، تلكَ التي نُشكِكُ بها يا سيدي "

قالها (را) قائدُ جيشِ الشمالِ لقائدِ الحرسِ بحدةٍ مِمَّا جعلَ الجميعَ يلتفتُ إليهِ فاستطردَ موجهاً كلامهُ للملكِ

- " مولاي، جاءت الرسالةُ من فريقِ الجواسيسِ المكلفينَ بمراقبةِ تحركاتِ الأعداءِ على حدودِنا الشمالية الشرقية، ليسَ من سماتِ شعبِ (كمت) أن ينتظروا توجيهاتِ المعبدِ لحمايةِ أراضي المملكة ! "

نظرَ إليهِ الوزيرُ بابتسامتهِ بسيطةً كدتُ ألا أراها ثمَّ قال

- " مولايَ، لا أعتقدُ أننا بحاجةٍ لإعدادِ جيشِ الشمالِ للقتالِ ولكنَّ أُفضِّلُ مراجعةَ تجهيزاتنا من حيثُ الفرقُ الطبيةُ والهندسيةُ الملحقةُ بالجيشِ هناكَ، لنكونَ مستعدينَ في حالِ حدوثِ أي هجومٍ غيرِ متوقع "

نظرَ الملكُ إلى كلا من كبيرِ الأطباءِ وكبيرِ المهندسينَ الذي قال

- "مولاي، سأذهبُ على رأسِ مجموعةٍ من المهندسينَ لمتابعةِ أعمالِ بناءِ وتقويةِ الحصونِ الشماليةِ و.. "

قاطعهُ الكاهنُ الأكبر

- " إنها مضيعةٌ للوقت "

نظرَ إليهِ الملكُ قائلاً

- " لا أستطيعُ فهمَ ما تقول "

- " مولاي، أي إجراءٍ ستتخذهُ عدا تأمينِ وتحصينِ المعابدِ هو مضيعةٌ للوقت، فمعابدُ أمون هي الملاذُ الأوضحُ للشعبِ في حالِ حدوثِ مثلِ ذلكَ الهجوم، ودائماً كانت هي الحصنَ الذي بقيَ بعدَ سقوطِ المملكةِ لتكونَ بذرةً للبناءِ من جديد "

قالها بحدةٍ كادت أشبهُ بالأمرِ، مِمَّا جعلَ الملكُ ينظرُ إليهِ بعنف

انحنى كبيرُ الكهنةِ في مقعدهِ قليلاً في حينِ التزمَ الجميعُ الصمتَ محاولينَ استيعابَ غضبِ الملكِ تفادياً لردِ فعلهِ العنيفِ، ولكنهُ لم يفعل، اكتفى فقط بالنظرِ إليَّ دونَ أن ينطقَ بكلمة.

هذه لحظتي، يجبُ أن أتخلصَ من كلِ مشاعرِ التوترِ الآنَ وأتحدث، ويجبُ أن أتقنَ ما انطقُ بهِ، فلم تحظَ سوى قليلاتٍ من ملكاتِ (كمت) بمقعدٍ على هذهِ المائدة، يجبُ أن أثبتَ أنني خُلقتُ لهذا المكان، بيني وبينَ استحقاقي لمكانتي بضعَ كلماتٍ سأنطقها الآنَ، فلأتقنها

- " النيل ـ"

نظرَ إليَّ الجميعُ وأنا أشقُّ حاجزَ الصمتِ بكلماتي، فأكملت

- " النيلُ يا مولايَ، نهرنا الخالد، نهرٌ طالما منحنا أكثرَ مِمَّا نحتاجُ دونَ بُخلٍ منه، إنَّ سريَ هادئاً، شعرنا بسحرٍ مصحوبٍ برهبةٍ منهُ، فأحببناهُ، حتى نخافَ فقدانهُ، أما إن بلغَ أشدهُ وغضبَ، ثارَ وفاضَ لتتأدبَ ونتذكرَ مكانتنا أمامهُ إنه، لا ينسى ! فهو سيدٌ علينا، لهُ حقُ تأديبنا، ولكنهُ يفعلُ ذلكَ بذكاءٍ وحكمة، يفيضُ ويعلو ويثورُ، فيدمرُ ويجرفُ ويزيلُ كلَّ ما يظنُ نفسهُ جديرٌ بالتصدي لهُ، وبعد أن يفعل، ينحسر !

تاركاً لنا بذرةً جديدةً للحياة، أرضٌ خصبةٌ هيَ منحةٌ لنا حتى نظلَّ نتذكرَ كرمهُ طوالَ العام، حتى وهوَ في شدةِ غضبهِ يظلُ في داخلهِ يعلمُ أنهُ سيدٌ علينا، فلا يزولُ عطاؤه، بل يزدادُ أضعافاً ليعوضَ الضعافَ قبلَ الأقوياء، وبهذا يفرضُ علينا احترامهُ ورهبتهُ "

ظلَ الجميعُ في صمتٍ في حينِ لمعت أعينُ الملكِ وارتسمت ابتسامةُ فخرٍ وحب ممتزجينَ على شفتيهِ، مِمَّا جعلني أكملُ وأنا أوجهُ كلامي للجميع

- " ترونَ القوةَ ولا تعلمونَ قدرَ المجهودِ الذي قامَ بهِ النهرُ لاستحقاقها، ثروةُ أمامكم ينسابُ ببساطةٍ متناهيةٍ بدونَ أي مجهودٍ ولكنَّ الأمرَ لم يكن هكذا دائما

إنها محصلةُ أعوامٍ وعقودٍ من استحقاقِ المسارِ الذي حفرهُ لنفسهِ، ليسَ بالتصادمِ المباشرِ وإنما بتفتيتِ الصخورِ أمامهُ ونحرها بهدوءٍ حتى تضعف، وكأنها يحاورُ الأرضَ ليهزمَ دفاعاتها على التوالي وهذا يا سادةُ (كمت) والعالمُ ما يجبُ علينا أن نفعلهُ في المرحلةِ القادمةِ فلنستمدَّ من قوةِ النهرِ وحكمتهِ ما يجعلنا نتخطى تلكَ المرحلةَ، نحاورهم، ونحرُ في دفاعاتهم من داخلهم، نبثُ في قلوبِ جيوشهم النخر، نزرعُ بينهم من يضعفُ معنوياتهم، نحاربهم في أرضهم برجالهم، حتى إنَّ أن الوقتُ الذي نكشرُ فيهِ عن أنيابنا، سيسمعونَ صوتَ زئيرِ ملك (كمت) يعلو في سمائهم بأصواتِ رجالهم فتنكسر عزيمتهم قبلَ أن يتحركَ جنديٌ مقاتلٌ واحدٌ مِن على أرضنا "

نظرَ إليَّ الوزيرُ مؤيداً بابتسامةٍ الأفعى المعهودةِ، في حينِ لمعت أعينُ قائدِ جيشِ الشمالِ حماساً وهوَ يأملُ أن يؤيدنيَ الملك، تفاوتت ردودُ أفعالِ أغلبِ الحضورِ ما بينَ مؤيدٍ أو صامتٍ، أما أنا لمْ أعر الكثيرينَ اهتماما فقد قلتُ ما قلتُ وفاتَ أوانَ التراجع، ظللتُ أحدقُ في زوجي أمامي لأستشفَّ ما يدورُ بخاطرهِ ولكنهُ ظلَ صامتاً كالصنمِ ينظرُ إليَّ بلا تعبيرٍ نهضَ من مقعدهِ بهدوءٍ وأعينُ الجميعِ معهُ متابعينَ تحركه

- " فلتكُن قولكَ أمرٌ للجَميع "

قالها وهوَ يمدُ ذراعهُ أمامهُ مشيراً إليَّ لأنهضَ واقتربَ منهُ ثمَّ أمسكَ بيدي وبدأَ في التحركِ وهوَ يصطحبني بجانبهِ في اتجاهِ مغادرةِ القاعةِ في أجواءٍ مراقبةٍ من الجميع. ما الذي حدثَ للتو ؟! ماذا فعلت ؟! لقد نجحتُ في تثبيتِ مقعدي، ترى من اكتسبت عدائهِ الآن، ممَّن يجبُ أن أتحصنَ

وإلى أي مدى !

Visual Watermark

الفصل الثامن

ذات الرداء

حياة

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

- " (حياة)، أنا أتحدث معك !"

قالتها لي زميلتي (مديحة) باستغراب، فمن الواضح أنها كانت تتحدثُ منذُ فترةٍ، ولكنّني لم أنتبه، لم يكن ذهني حاضرا معها.

نظرتُ إليها بشرودٍ ملحوظ متسائلة عما كانت تحكي، فأجابتني

- " ماذا بكِ، فمنذ وصولك اليوم وأنتِ شاردة الذهن، حتى أنكِ لم تردي تحية الصباح للدكتور (مراد) "

ثم مالت علي وأكملت بصوت منخفض بابتسامة طفولية خبيثة

- " وليست عادتكِ عدم رد التحية إليه "

ابتسمتُ وأنا أجيبها مستنكرةً قولها

- " أمْ تكبرين على هذا الأسلوب؟ "

- " لا لم أكبر، ولن أكبر أبدا، سأظل كما أنا سخيفة ولن تتخلصين مني "

نَظَرَت إليّ وهيَ ترتبُ بعض الأوراقِ أمامها ثمّ سألتني بأعين ضيقةٍ لتضيفَ بعضَ السذاجةِ لملامحها

- " كنتِ تفكرين به، فلتجيبيني الآن ولا تكذبي "

أجبتها وأنا أنظر إلى الساعة المعلقة على الحائط

- " أمر لا يخصك، ولكن سأجيبك لأجعلك تصمتين قليلًا، لا لم أكن، بالعكس فأنا أفكر في أن أستأذن منه لأغادر ميكرة اليوم "

- " تغادرين مبكرة ؟! وفي اليوم الخاص بالدكتور (مراد) ؟"

اقتربت مني سريعا ووضعت كفها على جبهتي وهيّ تكملُ

- " أهي حُمّى ؟!"

أزحتُ يدها وأنا ادفعها بعيدًا بعضَ الشيء قائلة

- " أتركيني فلست في حالة ملائمة لمزاحك السخيف "

كان المركزُ الطبيُ الذي أعملُ بهِ غيرُ مزدحمٍ بالمرضى - على غيرِ المعتادِ - فأغلبُ الأوقاتِ نكون في حالةِ انشغال مستمر باستقبالِ وتسجيل العملاء.

ظللتُ أنظر إلى باب غرفة الكشف الخاصة بالدكتور (مراد) وأنا أحاول اقتناص الفرصة لأستأذن منه كي أرحل، لا أعلم إنْ كانَ سيمنحني الإذنُ أم سيرفضُ، ترى هل سيهتمُ بسؤالي عن سببِ طلبي للمغادرة قبل انتهاء دوام اليوم ؟

أشعرُ في بعض الأحيان انه يهتم لأمري، ولكنهُ لم يُصرح بذلك قط، لم يتحدث معي أبدًا خارجَ إطارِ العملِ، على الرغم من كونِ والده هوَ مؤسسُ هذا المركزِ الطبي فهوَ متقيدٌ وملتزمٌ تماما بتعليماتِ العملِ، إتخذتُ مساري وأنا أرتبُ أفكاري إلى غرفةِ الكشفِ الخاصة به، لا أعلم ماذا سأقول إن سألني عن سببِ مغادرتي، هل سأكذب؟ أم سأقول له الحقيقة؟ كيفَ سأستطيعُ إقناعهُ بأنني لا يشغلني شيءٌ سوى أن أذهبَ إلى (عمٍّ جميلٍ)، فمازالت هيئتهُ وهوَ يخرجُ من غرفتهِ الغامضةِ يثيرُ فضولي، طرقت على البابِ الزجاجي فلمحتهُ وهوَ يشيرُ إليّ بالدخول قائلا

- " كيف حالك يا (حياة) "

- " بخير يا دكتور، أعتذر عن المقاطعة "

- " لا بأس، فلدي متسع من الوقت، تفضلي بالجلوس "

قالها مبتسمًا وهو يشير إلى المقعدِ الكشفِ على المرضى !

لم أفهم للوهلةِ الأولى مِمّا جعلني اسألهُ في سذاجةٍ واضحة وأنا أشيرُ إلى المقعدِ

- "دكتور .. هل تريدني أن أجلس على مقعد الكشف ؟ فأنا لا .... "

استوقفتني ضحكته وهو يجيبني

- " بالقطع لا، وددتُ أن أرى ملامحَ وجهكِ وأنتِ في حيرةٍ ليسَ أكثر، فهذهِ هيَ المرةُ الأولى - منذُ أشهرٍ - التي تقولينَ لي أكثرَ من (صباحَ الخير)، فاعتقدت أنكِ تريدينَ استشارةً طبيةً مثلاً "

لم أعلم هل أضحك أم أبتسم أم لا أبدي أي رد فعل على الاطلاق، فهذه هي المرة الأولى التي يمزح بها معي، ظللتُ واقفة حتى بدأ يشعر هو بالحرج فقال وهو يقف متكئ على مقعده في حين صحح وضع نظارته الطبية على أنفه

- " لا عليك لم أقصد مضايقتكِ، كيف استطيع مساعدتك ؟ "

- " إطلاقا، لم تضايقني، إطلاقا !"

قلتها وظللتُ أنظر إليه في صمت وتوتر في حين ظل هو منتظر أن أكمل حديثي، لا أعلمُ لماذا أظلُ صامتةً أمامهُ، هل بسببِ طولِ قامتهِ أم بسببِ نجاحهِ في عملهِ أم هيَ طريقةُ كلامهِ الهادئةُ أمْ تفكيرهِ المرتب، أم هيَ أوهامٌ بداخلي أنهُ قد يكونُ سببا - يوما ما - في سعادتي ونهايةُ شقائي، أراهُ الآنَ وهوَ يجلسُ بجانبي على ذلكَ الشاطئِ الرملي الخالي من البشرِ و...

- " (حياة) ... "

Visual Watermark

قاطعني اسمي بغتة وأعادني إلى الواقع بمنتهى العنف فأجبتهُ بسرعةٍ واضحة

- "هل أستطيع أن أستأذن ؟ "

- " أكيد، ولكنك لم تذكري سبب زيارتك ! "

عقدت حاجباي، لقد ذكرت له توا أنني أود الرحيل !

- " دكتور (مراد) "

- " نعم يا (حياة) "

- " السبب هو أنني أريد أن أستأذن، أريد أن أرحل مبكرًا اليوم"

ارتفعا حاجباه في دهشة ساذجة، فمن الواضح أنه لم يكن حاد التركيز - على غير عادته - ولكن ذلك أعجبني نوعا ما

- " أليديك ضرورة تستدعي ذلك ؟ "

قالها وهوَ يصححُ وضعَ نظارتهِ الطبيةِ مرةً أخرى في حينِ جلسَ على مكتبهِ وبدأ يدعي الجَدِيّة

- " الحقيقة أنّ الأمرَ قد يظهرُ لكَ غيرُ ضروري، ولكنهُ ضروريٌ بالنسبةِ إليّ "

- " إنّ كنتِ لا تريدينَ الإفصاحَ عن السببِ فلا يمكنني أنّ أرغمكِ على ذلك، كلّ ما في الأمرِ أنني.. "

صمتَ لحظةٍ قبلَ أن يكملَ وهوَ يصححُ وضعَ نظارتهِ على وجههِ للمرةِ الثالثة

- " أردتُ أن أطمئنَ عليكِ، أقصد أن أكون متيقنا أنكِ لا تحتاجين إلى أي مساعدة

لا أقصد المساعدة بل أقصد أنّ تكوني بخير ولا تحتاجين للذهاب إلى طبيب مثلا .. سواء أنتِ أو أحد من أسرتك "

توترهُ جعلني ابتسمَ في حرجٍ وأنا أجيبهُ

- " أريد أن أذهب مبكرًا ل(عم جميل) "

نظر إلى في دهشه وهو يسألني

- " أهو أحد أقاربك ؟ "

- " لا، على الإطلاق، إنه مالك معرض التحف المتواجد بمدخل البناية "

- " أهو مريض ؟! "

ابتسمتُ مُجَدْدًا - فمجرد أسئلته جعلتني أشعر باهتمامه ولو للحظات -

- " ليس مريضًا، لقد طلب مني أن أعاونه في شيء قبل ان ابدأ عمل اليوم، فوعدته أن أعود إليه في أسرع وقت "

- " حسنًا يا (حياة)، تستطيعين الذهاب إليه بكل تأكيد "

قالها فتحولت إلى طفلةٍ أخذت فسحةً مدرسيةً فتحررت من قيودِ الفصلِ فلولا أنني قد أفقدَ تلكَ الصورةِ المتزنة التي يعتقدها عني لكنتُ بدأت في الركضِ نحوَ بابِ المركزِ وأنا ألقي معطفي أرضا

- " (حياة) .. "

أعادني اسمي إلى الواقع مرة أخرى لأجد نفسي ساكنة في مكاني لم أتحرك

- " أتريدين شيئًا آخر ؟ "

- " شكرا جزيلا، هل استطيع الانصراف؟ "

- " بكل تأكيد، طالما لا تريدين شيئًا "

قالها وهو يبتسم في حين بدأتُ أن أسير بظهري نحو الباب وانا أحاول تحسس مقبضه من خلفي حتى وجدته وخرجتُ ليصطدم ظهري ب(مديحة) التي ظهرت من خلفي فجأة

- " أكنت تستمعين إلينا ؟ "

قلتها بعفوية شديدة وأنا أخلعُ عني معطفي الأبيض في حين أجابتني وهي تظهر عليها علامات الكذب الساذج المعهود منها

- " بالطبع لا "

- " حسنا، أنا ذاهبة "

رميتُ المعطف على كتفها وذهبت إلى مكتب الاستقبال لأخذ حقيبتي مسرعة، كانت تحاول مجاراتي وهي تنهال علي بالأسئلة لعلي أجيبها ولكنني لن أفعل، ولماذا أفعل؟ لأصبح قصة قصيرة يتناولها العاملون بالمركز أثناء أوقات فراغهم ؟! تركتُها وباب المصعد يقطع أخر شعاع ضوء يربطني بها، ثم بدأ في الهبوط إلى الدور الأرضي حيث معرض (عم جميل)، فأخذت تختفي تدريجيا من أمامي حتى تلاشي صوتها

- " حريق "

صرخة مدويةٍ كانت أولَ ما سَمعت بمجردِ أنّ فُتحَ بابُ المصعدِ، تلاها مجموعةٌ من الأشخاصِ يركضونَ في شتى الاتجاهاتِ، كانَ الجميعُ يتشابهونَ، لا يمكنني تبيُنُ ملامحهم من آثارِ الأدخنة والأتربة المشبعةِ بالرماد.

لم يكن أمامي سوى أن أركضَ معَ القطيعِ متجهةً إلى خارجِ المبنى في نفسِ اللحظةِ التي بدأت أسمعُ فيها إنذاراتُ سياراتِ شُلطاتِ مكافحةِ الحريقِ وهيَ تبدأ في الوصولِ، ولكن أين مصدر الحريق؟ لا .. ليس هذا !

(عم جميل) ، إنه معرض التحف !

لا .. لا يمكن أن تكون هذه حقيقة، هذا في عقلي فقط بالتأكيد !

Visual Watermark

لم أفكر كثيرا، فلم يمر سوى لحظة حتى وجدت نفسي بداخل ظلام المعرض وقد التهمت النيران كل شيء، ظللتُ أصرخ باسمه وأنا أتمنى أن أسمع ولو صوت أنفاسه، ولكن لم يجبني أحد! أحاطني رجال المكافحة وخرست كل الأصوات من حولي ..

صمت كل شيء ..

وأصبحت هيئة الأشخاص من حولي مجرد نماذج متحركة لا روح بها، لا اسمعُ سوى صوت موج البحر الذي يعيدهُ عقليّ مرارا وتكرارا، يحملني مكافحي الحريق إلى الخارج بينما لا أشعرُ سوى بأجنحتي التي أوجدتها لأغادر أينما شئتُ، ووقتما أردت، وأصبحتُ بالخارج، وبدأت الأصواتُ بالعودة تدريجيا.

صوتُ النيران وهي تنهشُ في تلك الأخشاب القديمة، إنذارات الحريق بالمبنى، همهمة الجموع من حولي، رأيتُ (مديحة) وهي تركض تحوي من بين طيات الأدخنة وما أن رأتني حتى ألقت بجسدها عليّ بقوة لتحتضنني

- " لقد تنبهنا للحريق بمجرد مغادرتك "

نظرتُ إليها وأنا عقلي لا يرى سوى آخر صوره لـ(عم جميل) وهو يتحدث إليّ

- " لقد طلب مني عم جميل أن أساعده يا (مديحة)، لا أعلم بماذا ولكنّني كان من الممكن ان انقذه إن لم أتردد كل هذا الوقت في طلب المغادرة "

قُلتها وقد ملكَ الندمُ من أنفاسي الضعيفة التي أنهكتها الأدخنة

- " (حياة)، ماذا تقولين ..؟"

صرختْ بوجهها قائلة

- " أقولُ أنني السبب يا (مديحة)، أنا السبب في موت الرجل "

- " حياة، (عم جميل) لم يمت "

نظرتْ إليها وكأنها شمس تُشرق بعد ليلة شديدة المطر، أما بعقلي فتصارع كم هائل من الأسئلة التي لم انطقها، فاستطردَت هي قائلة

- " لقد أتى (عم جميل) باحثا عنك أثناء حديثك مع الدكتور (مراد)، وقد حاولت إخبارك بذلك أثناء مغادرتك ولكنك لم تسمعين حرفا مما قلت، لقد ترك لكِ هذه الرسالة المغلقة "

لم أكن قد استوعبت بالفعل كل ما قالت حين ناولتني الرسالة، كانت يدي ملطخة بالرماد ولكن ذلك لم يمنع فضولي في أن أعرف مضمونها، ذلك المضمون الذي جعل الزمن يتوقف بي للحظة من الذهول، فلم يكن المضمون سوى كلمتين

(لا .. تأتي) !

Visual Watermark

كريمة

المكان .. الأسكندرية

الزمن .. الآن

- " كريمة .. كريمة .. كريمة استيقظي .. كريمة .. كريمة .. "

ظلّت (مريم) تردد اسمي بصوتٍ هامس، لم أكن سأنتبهُ إليها لولا إصرارها على إيقاظي، فأخذت تحرك يدي بتوترٍ ملحوظ حتى بدأ الوعيُ يتسللُ إلى شيئًا فشيء.

كانت هيئتها مختلفة وكأنّ عمرها قد زادَ عامين على الأقل، فتحسستُ بيدي باحثةً عَن نظارتي الطبيّةُ بجانب مضجعي ولكنّني لم أجدها، حينها التفتُ إليها مُجدّدًا لأجدها تنظر إليّ في قلقٍ بعينين جاحظتين تتوسطان وجهٌ شاحبٌ يفتقدُ الروح، اعتدلتُ لأجلس بصعوبة وقد تمكنَ مني التوتر

- " ماذا بك ؟! "

لم تجبني وظلّت ساكنة بلا حركة تنظرُ إليّ في صمت، فسألتُها بقلقٍ واضحٍ

- " (مريم) .. أين أختك ؟! "

طالَ صمتها وكأنّهُ استغرقَ دهرًا

- " إنها نائمة "

قالتها وهيَ تنظرُ إليّ بنفس الأسلوب الجافِ الخالي مِن المشاعر، فرفعتُ كفّي كي أتحسس وجهها لعلي أجدُ بعض الدفءِ الذي يعوضُ تلك البرودةِ الدائمةِ في المشاعرِ بيننا وَلكنّني، لم أشعُر بالدِّفءِ.. عَلى العكسِ تمامًا !

شَعرتُ ببروده تبدأ عِندَ أطراف أصَابعي وتَنتهي عِندَ مُؤخرة رأسي، فقد كانَ وَجهها بَارِدٌ بُرودة ثلاجات حِفظ المَوتى !

- " (مريم) ماذا بِك ؟ "

قُلتُها بِخوفٍ، ثُمّ جاءَتني إجابةٌ بَعيدَة عَن أيّ تَوقُع مُحتَمَلٌ !

- " أنّهُم يَطرُقون البَابَ بِقوّة "

هَمَمتُ بِسؤالِها عَن أيّ بَابٍ تتحدثُ، فأنا لا أسمَعُ شيئًا ! وَلَكِن هُدوئها المُريبِ جَعلَني أصمت وأراقبُها، فهيَ لَيسَت بِطبيعَتها المُعتادة، لَيسَت تِلكَ هِي ابنَتي الّتِي تتعَمّد دائمًا إثارَه اعصابي ! ظلّت تحدقُ بي دونَ أن تنطق بحرف، لم تنطق بشيء مُطلقًا، لَكِنّني سمعتها! سَمِعتها وَكانَ صَوتها قادِم مِن داخِلي أنا ! تَكلّمَت داخلَ عقلي وهيَ تنظرُ إليّ مُبَاشَرةً ! كلمَتان عَقدَتا لِسَاني فَفَقَدت القُدرَة عَلَى النُّطق !

(لَقَد احتَرَقَ)

جَفّ حَلقِي وانْسعَت عينَايَ في ذُعر، سَكِتُّ لِرُهله ثُمّ نجَحتُ في إخرَاجِ صَوتِي المَكتُوم بِدَاخلي وَسألتُها

- " من يا (مريم) .. من الذي احترق ؟ "

جاءتني الإجابةُ مِن جانبٍ فجأة مِمّا جعلني ألتفتُ إليها في سرعةٍ شديدة لأجدها (سارة) وقد استلقت بجانبي ثم بدأت في التمليسِ على شعري كي تُطمئنني

- "السؤال ليس (من ؟) يا أمي .. السؤال هو (متى) "

لَم اهتَمّ لِمَا قالتهُ بِقدر دَهشَتي لِتَوَاجُدهَا بِجَانِبي ! فهيَ لم تكن هنا مُنذُ لحظاتٍ! سألتها والحيرةُ مِمّا يحدثُ تأكلُ صدري

- " متى جئت إلى هنا ؟ "

ظلّت ك(مريم) تنظرُ إليّ في صمتٍ ولم تكف عن التمليسِ على شعري، مِمّا أضافَ المزيدَ من الرهبةِ إلى اللحظةِ، فأنا الآنَ تَيَقّنتُ، ومعَ تيقني بدأت تنتفضُ عروقي في جسدي مِن الرعب فهاتان ليستا ابنتاي ! تُشبهانهما بالفعلِ، ولكنهما ليستا (مريم) و(سارة) على الإطلاقِ !

طالَ تحديقي بشبيهة (سارة) حتى بدأتُ أخاف أن تشعرانَ أنني كشفتهما فالتفتُ إلى شبيهة (مريم) لأجدها قد نهضت من مكانها دونَ أن أشعرَ واقتربت منيّ للغايةِ حتى بدأت أستنشقُ تلكَ الرائحةِ الناتجة عن اقترابِ أنفاسها مِن وجهي.

رائحة الليمونِ القوية ! لَيسَت رَائِحَة ذكية، كانَت نَفّاذة للغَايَة، كأنّها تناوَلت أطنانٍ مِن الليمُونِ واحتَفَظت بِهِم بداخِلها، توقفَ جسديّ عن الاستجابةِ لأوامري، فخرجت كلّ طاقتي على صورةِ دمعة معلقة بعيني، دَمعة تسللت إلى خارجِ جسدي جعلتهما تتأكدانِ أنني كشفتُ سرهما، وكانَ رد الفعلِ ضَاعِفًا !

لقد صَرخَت في وجهي دونَ أن تنطق بحرف! صَرخة طويلة مكونة مِن كلمة واحدةٍ، صَرخَت تُبَدّلُ المكانِ المحيطِ بي للحظة ! وَمضَة واحدة شعرتُ خلالها بتلكَ الحرارةِ المتفجرة وهيَ تلتهمُ كلّ شيءٍ مِن حولي، لحظة تغير بها كلّ شيء وعادَ لأصلهِ ولكن دونَ البنتين.

لقد ذهبتا ! اختفيتا دون أدنى أثرٍ لوجودهما المادي، ولكن تركتا في أذني دوي تلكَ الكلمةِ التي صَرخَت بها يتكررُ بقوة، كلمة واحدة جعلتني أفتحُ عيني فجأة لأجدُ نفسي نائمةً على ظهري بغرفتي أحدقُ بالسقفِ من فوقي.

كانت الكلمة : (حياة) ! ولكن، ما الذي قد يربط (الحياة) بهذا الجحيم الذي رأيته حولي ؟!

تَخلَلَ ضوءُ النهارِ ستائرَ غُرفتي ليصل إلى وجهي ؛ في محاولةٍ منهُ لمداعبةِ عيني كي استيقظ، وكأنّ الشمسَ أرادت أن أستيقظَ الآن ! لعلّ هذا سببُ شعوريّ بالحرارةِ أثناء هذا الكابوسِ المزعجِ، فمازلتُ أشعرُ بذلكَ الوهجِ على جسدي، بدأتُ اعتدل ببطءٍ وأنا أصارعُ تلكَ الآلامِ التي أشعرُ بها كل صباح حتى استطعتُ أخيرا الجلوس على حافةِ سريري. بحثت عن نظارتي ولَكِنّني لم أجدها ففتحتُ عيناي قدرَ شقٍ صغير لعلي أتبينُ أينَ وضعتها، كنتُ أنظرُ للأرضِ فلم يكن لدي الطاقة الكافية لأرفعَ رأسي، أرى قدماي يكسيهما رِدائي و...

لحظة ! ما هذا الرداء!

هذا ليسَ ثوبي، أنا لا أنام بثوبٍ أبيض !بل أنا لا أمتلكُ ثوب كتّان أبيض مِن الأساس ! لم تكن عيناي قد فارقتا أطرافَ ثوبي فنظرتُ إلى المرآةِ التي أمامي

Visual Watermark

مباشرة لأجد نفسي جالسة بالفعل مرتدية ثوبا أبيض من أجمل ما رأيتُ في حياتي ،لم تكن هناك أدنى مشكلة، على العكس تماما شعرتُ بزهو اللحظة التي رأيتني بها بهذا الثوب الدسم في تفاصيله وبراقٌ في روعته

كل ما في الأمر أن الجالسة أمامي في المرآة ..

لم تكن ،

أنا !

- " أمي .. أمي .. كريمة .. أمي "

ظلّت تلك الكلمات تسحبني من نومي العميق كي أصلّ لواقعي بصعوبة بالغة! أنا بالكادِ أستطيعُ التبين إن كان هذا هو الواقعُ بالفعل أم أن هذا الكابوس مازال يطاردني . فتحتُ عيني لأجدَ سارة تقفُ بجانبي وهي تجذبُ يدي بقوة بعدَ أن انتهت من ارتداء زيها المدرسي، نظرتُ إلى الساعة بعدَ أن وضعتُ نظارتي الطبية لأنفاجأ بأنني قد تجاوزت ميعاد استيقاظي اليومي بأكثرَ من نصف ساعة كاملة، جلستُ مكاني بينما استمرت هي في جذبي من يدي قائلة

- " لن نستطيع اللحاق بالحافلة .. أمي، انهضي "

جثوتُ أمامها أتحسسُ وجنتيها وأنا أنظرُ إليها بشدةٍ في حين ظلّت (مريم) متوقفه بمدخلِ الغرفةِ وهيَ تحاولُ ادعاءَ عدم اهتمامها بمشاهدتنا، احتضنتُ (سارة) بقوةٍ حتى شعرتُ أنني سأمتزجُ معها، ثمّ نظرتُ إليها والسعادةُ تغمرني لكونهما بخير قائلة

- " أتعلمين أنكما السبب الأول والأخير الذي يجعلني استيقظ كل يوم؟! "

نظرَت لي (سارة) في حيرةٍ بينما استمَرّت (مريم) في تجاهلي

- " لماذا تقولين ذلك الآن يا أمي ؟ "

- " لا أعلم يا صغيرتي، ربما شعرتُ أنكما لا تعلمان ذلك "

- " حسنا، وأنا أُحبُكِ، ولكن لا تبكين من فضلك "

- " ولِكنّني لَم أبكِ ! "

- " وما تلك إذا ؟! "

قالتها وَمَدّت كفها الصغيرَ لتمسح دمعة معلقة بجفني ثمّ احتضنتني وزكّضت مسرعةً للخارج . لم تبدِ (مريم) أيّ تعبير وهيَ تتابعنا ثمّ لحقت بأختها لتستعدّا للنزول، لم تكن تلكَ هيَ المرةُ الأولى التي تنتابني بها كوابيس شبيهه، ولكنها المرةُ الأولى التي أشعرُ بكلِ تفاصيلها بعدَ أن استيقظ، كلُ شيء دارٍ بها مازالَ يقشعر له بدني، فيجعلنيّ أنفر من تذكرٍ أيًا من تلك الأحداثِ المريبة، لقد اتبعتني تلكَ الدمعةِ من الكابوس، تَعَلّقَت بجفني ولم تجف! ما معنى كل ما رأيت ! وأي حريق تَحَدّثَت عنه تلك البنت ؟

قد أفهمُ إحتمال أن تتشابة ملامحها ب (مريم)، ولكن كيفَ يصدقُ أن تتقاربَ ملامحُ البنتِ الأخرى (يسارة) !

أسئلة كثيرة أخذت تتصارعُ بعقلي وأنا أقودُ سيارتي بعدَ أن أوصلتهما إلى المدرسةِ . مازالت تلكَ القشعريرة تنتابني وأنا أتذكرُ تلكَ المرآةِ التي رأيتها في المرآةِ، والعجيبَ في الأمرِ هوَ شعوريٌ أنني قد رأيتها من قبلٍ في مكانٍ ما

جاءني صوت من المقعد الفارغ بجانبي يقول

• " بلى يا كريمة، بلى لقد رأيتها، لا أستطيع تذكر متى أو أين ولكنك رأيتها "

نظرتُ إلى مصدرِ الصوتِ لأجد (أنا) تجلس بجانبي وتبتسم، لا أعلم كيفَ جاءت إلى هنا ! لا أعتقدُ أنني مازلت أحلم !

أجابتني وكأنها قرأت أفكاري قائلة

• " لا تكابري، أنت تعلمين جيدًا أننا أصدقاء منذ نعومة أظافرك، ولكنك قررتِ أن تجعليني أختفي، فاختفيت وتركتكِ وحيدة لتصحي على ما أصبحتِ عليه "

ظللتُ أنظرُ إليها بذهول، فبعدَ تركيزٍ وضحت ملامحها أكثرُ لأكتشفَ أنها بالفعلِ .. أنا .. لا، ليست (أنا) بل أنا نفسي، هيَ نسخةٌ مختلفةٌ مني أنا ! نسخة تمنيت أن أكون مثلها !

- " تذكرتك "

قلتها بريبةٍ وأنا أحاولُ السيطرة على مقودِ السيارة فاعتدلت (أنا) في مقعدها لتنظرَ إلى بفرحةٍ قائلة

• "حسنا، لنعود إلى المنزل فلدينا الكثير من الذكريات لنسترجعها سويًا "

أجبتها بقلق واضح قائلة

- " أيًا يكن، لا أريد العودة إلى المنزل "

• " ولِمَ لا ؟ ألن تكُفين أبدًا عن ذلك القلق المسيطر عليك؟ "

- " أنا لست قلقة، أنا خائفة "

• " خائفة ! أنتِ خائفة، ألم يكفيكِ ما مضى من عمرك من خوف "

- " أقل ما في الأمر أنني صريحة مع نفسي، عكسكِ أنتِ، دائمًا تَدّعِينَ القوة "

• " أنتِ تحتاجين إلىّ كي تظلي قوية، لا يمكنك المواصلة من دوني! "

توقفتُ عن محاورة نفسي حينَ لاحظَ الناسُ في السياراتِ المجاورة حديثي الدائرَ معَ الفراغ مِن حولي، ولكن لم يمنعني ذلك من أن أتذكرَ ما حاولت أن أتناساهُ من تفاصيلِ الكابوس.. الصرخة.. لا أستطيعُ أن أتجاوزَ تلكَ اللحظة، ما الذي كانت تقصدهُ بتلكَ الكلمةِ (حياة) ؟ ولِمَ صرخت في وجهي بهذهِ الصورةِ المخيفة ؟

• " إنه عقلكِ الباطن يلاعبكِ "

Visual Watermark

- " إذن فأنتِ تلاعبيني، هذا ما تقصدين "

• " أنا لست عقلك الباطن، لا تقللين من شأني "

- " حسنا، ماذا أنتِ إذا "

• " أنا ؟ أنا أنتِ ولكن النسخة المحسنة منكِ "

- " كفى ! "

• " تطلبين مني التوقف عن الحديث لأنكِ ضعيفة "

- " كفى ! "

• " أنت تريدينني أن أتحكم بمجريات الأمور ولكنكِ تخافين أن تتركيني أظهر بدلا عنكِ، لأنكِ جبانة، منبوذة، ضعيفة "

- " كفى، كفى !"

• " حسنًا سأتركك تعودين إلى المنزل بمفردكِ "

- " لا .. انتظري "

• " الآن تحتاجين إليَّ ؟!، حسنًا، يجب أن تفعلي شيئًا من أجلي "

- " أوافق، ولكن لا تتركيني أعود بمفردي "

• " ستبحثين عن مرأة المرآة، أشعر أنني شاعرة (مرأة .. المرآة)، أعجبتني ! "

- " حسنًا، حسنًا، سأحاول أن أتذكر أين أو متى رأيتها "

توقفتُ على جانبِ الطريقِ لأتمالك أعصابي وما أن تَرَكت مقودَ السيارةِ حتى قفزت أمامي تلكَ الصورة، صورة لم أكن أتصور أن أتذكرها الآن، إنها هي، أنا أعلمُ أنها هي، ولكن كيف ؟ ولماذا أراها خلال نومي ؟ ما علاقتها بي من الأساس ؟ وما تلك الكلمة التي رَجَّت جُدران غُرفتي حين صَرَخَت بها البنت الشاحبة ذات رائحة الليمون ؟! أعلمُ أين رأيتها، لقد رأيتها في كتب (مريم) بداخلَ كتابٍ أعرفهُ جيدًا فطالما استذكرنا منه

كتاب التاريخ

يجبَ أن أعودَ إلى المنزلِ الآنِ

وفورًا !

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الفصل التاسع

عودة

أماليا

المكان .. القاهرة

الزمن .. الآن

ظللتُ أراقبُ عقربَ الثواني في تلكَ الساعةِ الخشبيةِ القديمةِ المعروضةِ بمحلِ الأنتيكاتِ المقابلِ لمنزلي القديم، كانت تلفتُ نظرَ أغلبِ المارينَ أمامها لضخامةِ حجمها، لا أعلمُ من الذي قد تأتيهُ الجرأةُ لشرائها، فهيَ كفيلةٌ لغلقِ مصادرِ الإضاءةِ لأي شقةٍ أيًا كانت مساحتها وعلى الرغمِ من كلِ هذا الحجمِ، لا يحتلُ قرصُ الساعةِ النحاسي نفسهُ سوى بضعِ سنتيميترات بأعلى نقطة بها، وكأنها تتعمدُ أن تحتفظَ بأجملِ ما بها لنفسها، فربما ترغبُ في تعذيبِ من يحاولُ الحصولَ على معلومةِ الوقتِ من تلكَ العقاربِ متناهيةِ الصغر، فيضيقُ كُلًا من عينيهِ وصدرهِ مثلي الآنَ لمجردِ محاولةِ تتبعِ عقربِ الثواني سيئِ التغذيةِ وهوَ يترنحُ بعدَ كلِ خطوةٍ يخطوها.

خمسةٌ، أربعةٌ، ثلاثةٌ، إث....

- " صباحُ الخير "

سمعتها من خلفي بصوتِ (أدهم) فابتسمت ، لم تظهرِ الابتسامةُ على وجهي، كانَ عقليَ هوَ من ابتسمَ بخبثٍ، فقدَ أتى قبلَ ميعادهِ بثانيتينِ كاملتين، استدرتُ إليه لأجدهُ واقفَ خلفي بهيئتهِ الطبيعيةِ دونَ أي تصنعٍ أو تكلف، فهوَ مهندمُ الملبسِ ذو شعرٍ متناسقٍ وذقنٍ خفيفة، رياضيُ الروحِ قبلَ الجسدِ، كائنٌ ذكوريٌ من الفصيلةِ العليا المنقرضة، ليسَ من النوعِ اللحوحِ في استجداءِ مشاعرِ الأنثى.

- " صباحُ الخيرِ، من الجيدِ أنكَ لم تتأخر، فأمامنا الكثيرُ لنفعله "

قلتها ولم أنتظر ردهُ فما هيَ إلا لحظاتٍ وكنتَ قد بدأت بالفعلِ في التحركِ لأعبرَ الطريقَ بخفةٍ ورشاقةٍ أحسد عليها، أو هكذا أشعرُ ! لم ألتفت خلفي، ولَكِنَني أعلمُ أنهُ يتبعني، ما يدهشني بحقٍ أنهُ استطاعَ تحملَ عبثيَ الطفوليَ طوالَ الخمسِ ثوانٍ الماضيةِ دونَ أن يحاولَ الهرب ! أقفُ الآنَ أمامَ مدخلِ منزلي الذي تربيتُ بهِ، قلعةٌ صغيرةٌ من قِلاعِ ما قبلَ التاريخ، أو هكذا رأيتهُ دوما منذ أن بدأ إدراكي في النمو، بابٌ خشبيٌ قديمٌ مرتفعٌ يبدو أقصرَ كثيرًا عما عهدتهُ أن يكونَ، ترددتُ للحظاتٍ في دفعهِ مِمَا جعلَ (أدهم) يسبقني إليه ويدفعه برفقٍ كاشفًا ذلكَ المصعدَ القديمَ المتهالكَ وقد تمكنَ الصدأ من جميعِ أجزائه، لم أجرؤ على المخاطرةِ باستخدامهِ خاصةً كونه أحدَ المصاعدِ المكشوفةِ التي تتوسطُ البنايةَ وتُمكنكَ من رؤيةِ السلمِ الدائريِ المحيطِ به، فما أرى لا يرقى لأن يكونَ مصيدةَ فئرانٍ من الحجمِ الكبير، فهوَ كمينُ موتٍ دونَ أدنى شك !

- " لا أعهدكَ مُترددهِ "

قالها (أدهم) دونَ أن ينظرَ إليّ، بل والأكثرَ من ذلك، فقد سبقني مديرًا ظهرهِ إليّ وهو يصعدُ السلمَ أمامي بخفة.. (لا أعهدكَ يقول !) وكأنه يعرفني منذُ الصغر! يا لهُ من وغدٍ !

كيفَ يُديرُ ظهرهِ إلى فتاةٍ جميلةٍ مثلي ؟

- " لستُ مُترددَةً، ولَكِنَني أفضلُ أن أتخذَ قراراتي بعناية "

قلتُها ثم هممتُ أن أهاجمهُ باللومِ لكنه قاطعني فجأةً قائلًا

- " أعطيني مفتاحَ الشقة "

قالها بصوتٍ هادئٍ يتسمُ ببعضِ الصرامةِ مِمَا جعلني أقومُ بحركةٍ أكروباتيةٍ سريعةٍ لأخرجَ سلسةَ مفاتيحي الضخمةَ من حقيبةِ يدي، ولكنَ توتري جعلها تقفزُ أمامي في الهواءِ فتحولتُ أصابعي إلى خطافي سلطعونٍ بحريٍ يحاولُ التقاطَ فتاتِ طعامٍ عالقٍ أمامهُ في المياهِ لعلي أستطيعُ أن التقطها مرةً أخرى قبلَ أن يستديرَ إليّ ويرى كلَ هذا القدرِ من العبثِ !

انتهى الأمر!

لقد التقطها هوَ قبلَ أن أستطيعَ لملمةَ شتاتِ نفسي وتبعثرتِ جميعَ أشيائي حولي، شعرتُ كالطفلةِ التي تنتظرُ التوبيخَ في حينِ نظرِ هوَ إليّ بابتسامةٍ جعلتني أبتسمُ، ولكن هذه المرةَ ابتسمتُ بالفعل !

ظهرت بوادرُ ابتسامةٍ بسيطةٍ على وجهي مِمَا جعلهُ يقولُ

- " حسنًا، هذا وجهكِ الآخر ! حسبتُ أنني لن أعرفه أبدًا ! "

ثمَ استدارَ مرةً أخرى ليتركَ لي المساحةَ لأخجل، ولَكِنَني لن أقعَ فريسةً لهُ، لا شيءَ يميزهُ عن غيرهِ ممن تقدموا لخطبتي، أو هكذا أقنعَ نفسي !

- " أي بابٍ ؟ "

قاطعني سؤالهُ مرةً أخرى، فأشرت إلى بابِ شقتي القديمةِ وأنا أجمعُ أشيائي المبعثرةَ حولي من حادثِ السلطعون، في حينِ بدأ هوَ في خطواتهِ نحوَ الباب

- " هل أنتِ أكيدةٌ أنكِ تركتِ البابَ مغلق ؟ "

جاءني سؤالهُ صادمًا، فأنا لم أنَ إلى هنا منذُ أن توفت والدتي - رحمها اللهُ - ولا أعتقدُ أنَ خالتي من الممكنِ أن تكونَ أتت هي الأخرى منذُ أن انتقلتُ للمعيشةِ معها..! كانَ (أدهم) قد دخلَ بالفعلِ ليحاولَ إضاءةَ الشقة، فبالرغمِ من أننا في وضحِ النهارِ إلا أنَ الشمسَ كانت تواجهُ صعوبةً في اختراقِ هذا الكمِ الهائلِ من الأتربةِ المتراكمةِ على الستائر.. ها أنا ذا أتجولُ في المنزلِ الذي نشأت بهِ، ولا أكادُ أتذكرُ شيئًا سوى صورةِ ذلكَ الصندوقِ الخشبيِ الذي أخفتهُ عني أمي، ها هوَ بابُ غرفتي القديمةِ، كيفَ انكمشَ هكذا ! ليسَ هوَ فقط بل أعتقدُ أنَ أبعادَ الشقةِ بالكاملِ قد تغيرت ! هل صغرَ كلَ شيء ؟! أم كبرت أنا !

- " لقد كبرتِ ! "

قالها أدهم من خلفي مِمَا أصابني بالتوترِ فجأة !

فهذا كثير، هل يستطيعُ قراءةَ الأفكارِ أيضا ؟!

Visual Watermark

التفتُ إليهِ في هدوء وأنا أتخيلُ أنني سوف أجدهُ يرتدي زيّ كهنة التبت وهوَ يطفو في الهواء مغلقًا عينيهِ في هدوء، ولكنّني لم أجده خلفي من الأساس ! كانَ يقفُ على بعدِ خطواتٍ مني ويتفحصُ تلكَ الصور القديمة الموضوعة أسفل زجاج (بوفيهٍ) غرفة الطعام. ذلكَ المتحف الصغير الذي تتميزُ بهِ أغلبُ البيوتِ المصرية ؛ وكانَ الغرضُ الأساسي لقطعةِ الأثاثِ تلكَ هوَ عرضُ صورِ الأسرة

- " إنها أمي ! وهذه أنا بالفعل ! كم مر من الوقت منذ آخر مرة رأيتها بها ! "

قلتُها وأنا أشعرُ بمرارةِ الفُراقِ تلتهمُ حلقي

- " أنا لا أشعُر بفُراقها "

قالها (أدهم) وهو يُتابع الباقي من الصور

نظرتُ إليهِ باستنكارٍ شديد في حينِ لم يحاول هوَ أن ينظرَ إليّ، ما هذا الذي يقولهُ ! كيفَ يستهزئُ بمشاعري بهذا الأسلوبِ الفَج، يا لهُ من وغد ! هممتُ أنْ اتركهُ وأذهب ولكنهُ أمسك بساعدي كي لا أتحرك ثم استدار ليواجهني وهو يقرأ ملامحي قائلًا

- " أنا أراها أمامي الآن، أراكِ نسخةً منها لدرجةِ أنني شعرتُ أنها لم ترحَل قطّ، ويشرفني أن أتعرفُ عليكما معا في شخصِك "

أفلتَ ساعدي وذهبَ ليتفقدَ باقي الشقةِ وهوَ يتمتمُ ببعضِ الكلماتِ التي مرت عبرَ أذني دونَ أن يسمعها عقليّ، فأنا مازلت في تلكَ اللحظةِ السابقة، لقد تركني وحدي هناك، وذهب ! كيفَ يفعلُ ذلكَ ؟ كيفَ يجعلني أتشتتُ في رأيي بخصوصهِ بهذا التفاوتِ الكبير ! كيفَ تركني أحاولُ استيعابَ مشاعري المتضاربةِ بمفردي ؟ !

يا لهُ من وغ ...

- " ميلا "

قاطعني نداؤهُ فجأة فنظرتُ إليهِ لأجدهُ يقفُ ساكنًا بعدَ أن تجاوزَ بابَ غرفتي القديمة وأصبَح بداخلها

- " ألا نبحث عن صندوقٍ خشبي قديم ؟ "

- " نعم، بالفعل "

تحركتُ نحوهُ لأجدهُ يقفُ أمامَ صندوقٍ موضوعٍ على الأرضِ بحيثُ يتوسطُ المساحةَ تقريبا، ينقصهُ فقط أن يلصقَ عليهِ لافتةً صغيرةً مكتوبٍ عليها (أتبحثين عني ؟)

- " الأمر ليس صائبًا "

- " لماذا تقولين ذلك؟ "

- " لا يمكن أن تكون أمي قد تركت الصندوق هكذا، فقد أخفته عني أكثر من عام كامل، وعندما رحلت عن هنا لم يكن موضوع هكذا "

- " لِمَ قد يتكبد أحدهم عناءَ البحثَ عن صندوقٍ قديم في مكانٍ مهجور كهذا ؟ بل والأغرب هو أن يتركهُ هكذا لمن يجدهُ ؟! "

جثوتُ أمام الصندوق تاركه (أدهم) خلفي، ولكنّني لم ألبث أن بدأتُ في محاولاتِ فتحه حتى سمعنا صوتُ كسرِ زجاجٍ بالخارجِ فهَرول (أدهم) من الغرفةِ سريعا ليتَبيّنَ الأمر، تغلبَ الفضولُ على خوفي، فلم أنتشت عن محاولتي لفتحِ الصندوقِ، حتى حين شعرتُ بعودهِ (أدهم) خلفي لم أنظر إليه وسألته

- " ماذا كان ذلك الصوت ؟ "

جاءني الردُ على هيئةِ دَفعة قوية أسقطتني أرضًا، في حينِ قامَ شخص مُلثّم بسرقةِ الصندوق من أمامي ولاذَ بالفرارِ من بابِ الشقة . صرختُ لأستنجد بـ(أدهم) الذي جاءَ مسرعًا وهو يَصيح

- " ماذا حدث ؟ "

- " لقد سُرِق الصُندوق ! "

أشرتُ إلى بابِ الشقةِ المفتوحِ فتركني وركضَ من خلالهِ محاولاً اللحاقَ باللص

استدركتُ ما حدثَ أثناءَ نهوضي بصعوبةٍ - فقد كانت الدفعةُ قويةً - مِمّا جعلني أتكئُ على أحد جوانبِ مكتبي القديمِ لتقعَ عيني على نقشٍ باللغةِ الهيروغليفية محفور أسفلَ درجِ المكتب ومطابق لما كانَ منقوشٌ بوضوحٍ على الصندوق، كانَ النقشُ وضّاءً، ولكنَ الاختلافَ الحقيقيَ كانَ في جودةِ تنفيذه التي تدلُ على أنّ من نقشهِ ليسَ متخصص، ولا أعتقدُ أنّ يكونَ المَلكُ (خفرع) قد استخدمَ مكتبي يوما ما ! قمتُ بتصوير النقش بهاتفي في اللحظة التي عاد بها فارسي المغوار من المعركة وهو يتصبب عرقًا

- " لم أجده، لا أعلم كيف اختفى بهذه السرعة وهو يحمل الصندوق، أعتذر ؛ هل أنتِ بخير؟ "

- " نعم، مجرد خدش بسيط، هل تساعدني في تحريك هذا المكتب ؟ "

نظر إليّ بدهشة ولكنه لم يناقشني في طلبي، بل تحرك نحو المكتب وبدأ بتحريكه بالفعل، وكانت المفاجأة ! بمُجرد أن تحركت الأربع قوائم عن الأرضية الخشبية القديمة ارتفعت إحدى ألواح الأرضية كأنها غطاء لصندوق ثم دفعه بزنبرك من الداخل، ارتفع حاجبا (أدهم) من الدهشة وهو يقول

- " ما هذا، كيف عرفتِ ذلك ؟ "

تعمدتُ عدم الرد، فكان يروق لي حاله وهو لا يفهم شيئًا، لو علِم أنني لا أفهم شيئًا أنا أيضا لتركني أنا أركض خلف اللص !

- " حسنًا، لقد وجدتُ شيئًا بالداخل "

قلتُها وأنا أسحب شيء ببطء من داخل تلك الحفرة الخبيئة التي ظهَرت أسفل مكتبي، كانت لفافة مصنوعة من الكتان ومعقودة بعناية لتحافظ على محتواها، ظلّت أنظارنا تتابع يدي وهي تحمل ذلك الكنز المَدفون، لم أعلم هل أفتح اللفافة أولا، أم أتبين معنى النقش أولا، أم أفعل كلاهما معًا، نَظر إليّ (أدهم) دون أن ينطق بحرف في حين قفز إلى عقلي عدة أسئلة ، إن كُنت أمسك ذلك الشيء بيدي الآن، تُرى، ما الذي كان في الصندوق ؟ ومَن الذي وضع الصندوق في غرفتي هكذا ؟ مَن الذي قام بنحت ذلك النقش اسفل مكتبي ؟

و مَن ...

- " مَن غيري يَعلم أننا هنا ؟ "

Visual Watermark

قاطعني (أدهم) بسؤاله الذي كالعادة كان نسخة من السؤال الذي جال بخاطري أثناء مقاطعته لي ! كيف يفعل ذلك ؟

يا له من وغد !

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

جميلة

المكان .. الأقصر

الزمن .. الآن

- " سيدتي ! "

جاءتني الكلمةُ من نادل القطار، ذلك الشاب الصغير الواقف بجانبي، كانَ ينظرُ إلى بابتسامةٍ متكلفة بينما تفوحُ عنهُ رائحةُ العطرِ النفاذة التي نَشتت الانتباه عن اصفرار بقةِ قميصه الأبيض، وقف ممسكًا (بصينية) رافعًا إياها لأعلى كي يُظهرَ خبرتهُ في التوازن متحديًا هزةَ القطارالمستمرة، لم أكن قد سمعت ما قالهُ قبل تلك الكلمة، فقد كنتُ أتابعُ من نافذةِ القطارِ التطورِ المعماري المستمر منذُ أن بدأت رحلتي من القاهرة حتى تلك اللحظة التي تنبهت بها لوجوده، فبالكاد استطعتُ النوم، كيف أنام وأنا لا أعلمُ ماذا سأجني من مصاحبةِ هذه المرأةِ العجوز التي تجلسُ أمامي وترمقني بتلك النظرة الهادئة كعادتها !

- " لقد كان يسألكِ إن كنتِ تحتاجين إلى شيئًا دافئا لتشربيه يا عزيزتي "

قالتها بصوتها العميقِ مِمّا جعلني أنظرُ إليها بشيءٍ من الرهبةِ وأنا أتساءلُ في داخلي : كيفَ اتبعتها وما زلتُ اتبعها وأنا لا أعلمُ عنها شيئا!

نظرتُ إلى النادل دون أن أتكلم في حين خاطبَته هي قائله

- " إحضر لنا فنجانين من القهوة، ولتكن سريعًا في تحضيرها فلم يتبق لنا الكثير من الوقت "

تحرك النادلِ سريعا وكأنما أخذَ لنوه أمرٌ عسكريٌ من قائدته في حين التَفَتَت هي إلى نافذةِ القطارِ قائله

- " أنتِ خائفة "

نظرتُ إليها بقوة وأنا أستنكرُ ذلك الهجوم المباغت

- " بالقطع لا، ومِمَّ أخاف ؟ "

- " أن تكون رحلتكِ دون جدوى "

- " إن كنتِ تعرفين أي تمام المعرفة كما تَدّعين لما قلتِ ذلك الان "

ابتَسمَت بما يشير إلى الاستنكار وهي تقول

- " بل لأني أعرفهُ تمام المعرفة - كما ادّعَى - قلتُ لك ما قُلت "

ظَهرَت الدهشة على وجهي وأنا أجيبها

- " وكيف يكون ذلك ؟ "

- " أعلم جيدًا أن أباكِ كان شديد الحماس ولكنه أيضا كان شديد الحرص، لم يكن يحرص على حياتِه، بل على وقتِه - وأنتِ مثله -، كان يشعرُ دائمًا أن وقته لن يسعفه في استكمال حُلمه، بحثه المستمر في أسرار الماضي جعله يدرك أن لا أحد يعيش إلى الأبد، ولكن تخلد أعماله التي تركها لنسله، وأعتقدُ أنه كان محظوظ بكِ "

لم أجد ردٌ سوى أن ابتَسمتُ بينما وضعَ النادلُ - الذي بدا أنهُ جاءَ مهرولاً - فنجانيّ من القهوة أمامنا فهمِمتُ بأن أدفعَ لهُ المقابل إلا أنه سرعانَ ما تركنا وكأنما خشيَ أنّ توجهَ لهُ العجوز أمرا أن يرحل، فسألتها في تعجبٍ

- " أيعرفكِ ؟! "

ابتَسمَت مُجَدّدًا وهي تجيبُ بعد أن تذوقت القهوة

- " نوعا ما "

ساد الصمتُ بيننا بينما ظل صوت الحديد المتقطع أسفل القطار ينافس عقارب الساعة في دقته

يا لهُ من مشهدٍ ساحر لجنوبٍ (مصر)، صورٌ متلاحقةٌ تتنافسُ في الجمال من خلالِ تلكَ النافذةِ المحدودة بجانبي، جبالٌ صخريةٌ وأراضٍ خضراء مثمرة تمتزجُ معا وتمتدُ على ضفةِ النيل في شموخٍ لتثبتَ أنها كانت وستظلُ سندًا لأهل (مصر) على مر العصور

- " العاصمة "

قالتها وهي تنهضُ من مجلسها بهدوء وتتوجه إلى ممر الخروج، فقلت لها

- " أيمكنكِ الانتظار للحظات حتى أحضر أمتعتي "

- " أمتعتكِ قد غادرت بالفعل "

لم تطولَ دهشتي بما قالت، فإتّبعتُها حتى وقفت أمامي على أعتابِ أولِ السلم كي تستعدَ للمغادرة

توقف القطارِ ليَتواجَه مكانَ بابِ الخروجِ بدقة معَ لافتةٍ قديمة على الرصيف لتصبح أمامنا مباشرةً، لافتةٌ مكتوب عليها بخطِ اليد كلمةٌ واحدةٌ (الأقصر) بمجردَ أن خطت على رصيف المحطةِ حتى ظهر بعضِ الأشخاصِ الذينَ أحاطوا بنا وكأننا شخصياتٌ سياسيةٌ معروفة، لم يكونوا قريبين منها في الهيئة بل كانوا على النقيض تماما، تسعةُ رجالٍ يرتدون الحُلل السوداء، قد نُحطتهم أولا كمجموعةٍ من رجال الأعمالِ قبل أن تَتَبيّن أنهم حرس ! أحاطونا تماما بينما كانَ أحدهم بالفعل يحملُ حقيبتي التي كانت على متن القطار، تحركنا بسرعة ملافتةً لسير تلكَ المرأةِ العجوزِ حتى وصلنا إلى خارجِ محطةِ القطارِ لتنتظرنا أربعةُ سياراتٍ دفعِ رباعي سوداء من أحدثِ الطرازاتِ.. يا له من مشهد ! مَن تلكَ المرأة الغامضة التي لديها كل تلك السلطة هنا، لا أعتقد أنها من السلطة السياسية، فشعبيتها امتدت إلىَ القطار ذاته

- " أمي، حمدًا لله على سلامتك "

قالها ذلك الرجل الخمسيني الذي اقترَب منها مُهرولا ثم أمسكَ يدها وقبلها

- " دكتورة جميلة التي تحدثتُ إليكَ عنها يا (مأمون) "

Visual Watermark

- "مرحبا بابنة (المُهاجر) "

كانت المرةُ الأولى التي أسمعُ بها هذا الوصف عن أبي

(المُهاجر)، وصف غريب لم اعتادهُ، لماذا يصفونهُ بما يعبرُ عن رحيلهِ

- " ستكونين معَ (مأمون) في السيارة التي تلحقُ بي يا عزيزتي، لا تقلقين فأنتِ هنا في أمانٍ بينَ أهلك "

قالتها وهيَ تمسكُ يدي قبل أن يفتح لها أحدِ أتباعها باب السيارة الخلفي لتجلس في هدوء ، تحركت سيارتها لتقترب التي تليها وأنا مازلتُ مصدومة مِمّا يحدثُ، فتح لي (مأمون) بابِ السيارة الخلفي بكياسةٍ واضحةٍ في حين جلسَ هوَ بالمقعدِ الأمامي بجوار السائق

وبدأ الموكب في التحرك ! بالفعل هو موكب صغير يتحركُ باحترافية واضحة في طرقاتِ الأقصرِ الضيقة، لم يسلكوا الطرقُ المجهدة، بل تعمدوا التحرك بينَ المباني القصيرة في المدقاتِ الترابية بخفة وسرعة مدهشة، وكأنهم يحاولون إخفاء تحركاتنا !

- " أيمكنني سؤالك شيئًا يا سيد (مأمون) "

التفتَ إليَّ بجانبِ وجهه وهوَ يجيبُ مبتسمًا

- " بكل تأكيد "

- " مَن أنتم ؟ "

قُلتها بسرعة كالطفلةِ التي كانت تأملُ أن يأذنَ لها بالكلام "

ضحكَ (مأمون) وهوَ يعتدلُ في مجلسه وبدا أنهُ يستعدُ ليجيبني، ولكنهُ لم يجد الوقتُ الكافي لذلك، فبمجردِ أن تحرك حتى سمعنا دَوِيّ اصطدام عنيف مِن خلفنا

صرخَ (مأمون) بالسائقِ وهوَ ينظرُ في المرآةِ من خلفِه

- " ماذا كانَ ذلك ؟ "

أجابهُ السائقُ صارخا

- " هجوم، هجوم يا سيد (مأمون)، لقد اختفت السيارة الرابعة "

نظرتُ خلفي في قلقٍ لأجدَ الطريق خلفنا خالي، حينها سمعتُ دويَ انفجارٍ مِن أمامنا مِمّا جعلني انظرُ للجهةِ الأماميةِ بسرعةٍ وقلق واضحين وأنا أصرخُ

- " ما هذا، ما الذي يحدث ؟ "

لم يُجبني السائق الذي توقفَ بالسيارةِ بعنف شديد مِمّا جعلني ألتفتُ إلى (مأمون) الذي ظلَّ صامتا محدقا بشيءٍ أمامه، وجهتُ نظري إلى ما أخذَ انتباههُ لأجدَ عامود من الأدخنة السوداء المتصاعدةِ مِن بينِ بعضِ الأبنية أمامنا

- " أمي "

لم يقُل شيئًا آخرَ سوى تلكَ الكلمة ثمَ فتحَ الدُرج الذي أمامهُ وأخرجَ مسدس وهَمَّ بفتحِ البابِ ولكن استوقفهُ السائقُ ممسكا بساعدهِ وهوَ يقولُ

- " لا تفعل سيدي، يجب أن نتوخى الحذر، لا يمكن أن نخسر الآن "

تصاعدت الحرارةُ مِن جسد (مأمون) حتى شعرتُ أنهُ سينفجرِ مِن الغضب

أغلق بابَ السيارةِ وهو ينظر إليَّ بأعين حمراء كالدم قائلاً

- " فلنغير مسارنا "

قالها بصوتٍ أشبه بزئيرِ أسدٍ مجروح في حين بدأ السائقُ بتنفيذِ الأمرِ بسرعةٍ شديدة لينطلقَ مِن طريقٍ جديد تاركينَ خلفنا صوتُ طلقاتِ رصاص والسنةِ أدخنةٍ لا نعلمُ مصيرُ مَن كانوا بمحيطها

ما الذي حدثَ للتو ؟! هل أنا بالفعل في مطاردة ؟! مَن هؤلاء الناس ومَن أعدائهم ؟! كلُّ تلكَ الأسئلةِ خطرت ببالي في لحظاتٍ ولَكِنّني لم أجرؤ حتى على التنفسِ بصوتٍ مرتفع !

كانَ الصمتُ يخيمُ على السيارةِ تمامًا ، لم يكُن هدوء، بل كانَ صمتٌ صاخب بالحقدِ والغضبِ والحسرةِ والانكسارِ، صمتٌ صاخبٍ بالرغبةِ في الانتقام، ولَكِنّني، لم أستشعِر الحُزن !

لا حُزن! هل لأنهم مازالوا غير متيقنين أنها قُتلت ؟! أم هيَ عقيدةُ أهلِ الصعيد بالأخذ بالثأرِ قبلَ تركِ مجالاً للحزن في التمكنِ مِن مشاعرهم

ظلَّت السيارة تسبحُ بالطرقاتِ الغيرِ ممهدةً لتخرجَ مِن حدود الحضارةِ إلى مساحةٍ صحراوية نائية، سورٌ عالٍ مدججٍ بالحرس تتوسطهُ بوابةٌ حديدية قوية فُتحت على مصرعيها كفَكٍّ تمساحٍ نوبيٍ ضخم لتتناولَ السيارةُ دونَ توقف

ظلَّت السيارة تتحركُ حتى انزلقت إطاراتها أثناءَ توقفها بعنف أمامَ ذلكَ القصرِ الضخمِ فانقضَ عليها اتباع (مأمون) ليفتحوا أبوابها، أستطيعُ أن أجزمَ أنني جُذبت مِن داخلها دونَ أن أشعر لأجد نفسي أسير بجوار (مأمون) بسرعة في حين استقبلتهُ تلكَ المرأةِ الخمسينية بقولها

- " أين أمي ؟! ماذا حدثَ يا (مأمون) ؟"

بدأت تسيرُ بجانبنا في حينِ لم يجيبها هوَ فاستوقفتهُ بعنفٍ وهيَ تمسكُ بذراعهِ داخلِ بهو القصرِ قائله

- " فلتجيبني الآن، ماذا حدثَ ؟ "

توقف واستدار إليها متفاديا النظر في عينيها، ثم قال

- " لقد باغتونا "

اتسعَت عيناها مِن هولِ المفاجأة فتركَت ذراعهُ بحركةٍ مفاجئةٍ لتضعَ كفها على فمها، فقد فهمَت دونَ أن يضطرَ أن يكمل، وكأنَ ما حدثَ كانَ متوقعٌ لهُ أن يحدثَ، ولكنَ هولَ الفراقِ المفاجئِ هوَ ما أثارَ غضبهما، نظرَت إليَّ لعلي أستطيعُ نفي ما قاله أخيها للتو، ولَكِنّني لم أجد ما أقولُ، فتبدلَت ملامحي مِن القلقِ إلى الحزن

Visual Watermark

- " لا "

قالتها في منتهى القوة مما جعل القلق يتسلل إليّ مرة أخرى

- " لا تحزني، لا يوجد ما يحزن "

نظر إليّ (مأمون) وهو يقول

- " لقد رحلت (الأصلية)، لا يمكن إهدار رحيلها بالحزن عليها "

ثم التفت إلى أخته قائلا

- " (أمينة)، هذه ابنه (المهاجر) "

اقتربت مني المرأة في هدوء واحتضنتني ودموعها تهربُ من حصار جفونها بلطف شديد

- " مرحبا بكِ يا (جميلة)، لقد طال انتظاركِ، كم تخيلت تلك اللحظة التي سأراكِ بها "

نظرت في عيناي وهي تُمسك بكفي بينما أكملت

- " لم أتخيل أبدًا ألا أستطيع الترحاب بكِ كما يجب نظرا لما حدث، في ظرف آخر لم أكن لأفوت هذه اللحظة دون احتفال "

- " أنا لا أنتظرُ شيئًا، كل ما اردته هو أن أعلم ما الذي أرادته مني والدتكِ - رحمها الله - "

اقتضب حاجباها بينما شدّت على يدي بعض الشيء وهي تقول

- "رحمنا جميعا يا عزيزتي، أمي لم تمت، لا تذكريها بصيغة الماضي"

لم أجدْ ما أجيبُها به سوى أن اومأت برأسي بالموافقة على ما قالته، فأكمَلَت

- " اسمها (الأصلية) "

ثم التفتت إلى (مأمون) ليتركنا، فقام بالاستئذان بكياسته المعهودة ومضى نحو الباب وسَيل من الحراس يَتبعه في حين نظرت هي إليّ مرة أخرى ثم تعلقت بذراعي وبدأت في السير بجانبي وهي تقول

- " سأجيبُكِ على كل ما أستطيع من أسئلتك، ولكِنّني لا أملك كل الأجوبة، لا أحد يملك كل الأجوبة، أغلب ما تريدين معرفته يجب أن تبحثين عنه بنفسك، لم تكن أمي سوى وسيط بين الماضي والحاضر، سوف أرشدكِ إلى جناح إقامتك لترتاحي ثم نبدأ في الخطة التي أعدّدتها أمي من أجلك "

توقفت للحظة ثم مرّرت أصابعها بين خصلات شعري وهي تنظر إليّ قائلة

- " يا لكِ من نسخة منها ! "

- " من تقصدين ؟ "

- " أمك يا (جميلة) "

لم يتوقف سَيل المفاجآت مِمّا ثبّت وجهي كالصنم، لا تتشكل ملامحه بالدهشة مع كل مفاجأة، في حين ابتَسَمَت هي، ابتَسَمَت وعينيها لم تنسيا ما حدث للتو لأمها، ومع ابتسامتها ابتسمتُ أنا بدوري لعلي أستطيعُ أن أخفف عنها حزنها بعض الشيء دون أن أتعمد مواساتها ؛ وقد فهمت ذلك فقالت

- " وذكية مثلها أيضا، سأتركك الان ولنجتمع مساءًا، هناك أشخاص كثيرون في انتظار وصولك "

تركتني ورحلت في تماسك، تركتني لأنهار وحدي في ذلك الجناح المترامي الأطراف، ما الذي يحدث ؟

لا أفهم شيئًا مِمّا يحدث، مَن هؤلاء ؟

وما الذي ينتظرني بعد الآن ؟!

Visual Watermark

الفصل العاشر

نفوذ

الملكة

المكان .. العاصمة القديمة (طيبة) - قصر الحكم

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

- " مولاي، لقد تشرفتُ بحولتي معكَ في أرجاء حديقة القصر، لا أعتقدُ أننا قد قوتنا زراعا لم نخطُهُ بتلك المساحات الشاسعة "

نظرتُ إليه وضوء الشمس يكشف ابتسامتي التي حاولت أن تتوارى خلف ستار الوجه الحجري الذي أحاول الحفاظ عليه

- " أمِلتَ يا كبير المهندسين "

- " مولاي، شرف رؤيتك لا يحظى به سوى من اصطفاهم (أمون)، فالنظرُ إليكَ عن قربٍ هو منحةٌ في الحياةِ الأولى لمن يقدمون لهُ القرابين، فكيف أمِلُ من التجوالِ معكَ ؛ فإن غربت الشمسُ علينا مئات المراتِ لن أملّ ! "

صمتت لحظة قبلَ أن يُكمل

- " ولكن ! .. "

توقفتُ في سيري فتوقف هو بدوره لأستدير إليه قائلة

- " أخرجَ ما بصدرك، ماذا تريدُ أن تقول "

عقد كفيهِ خلفَ ظهرهِ و أجاب ناظرًا إلى الأرض

- " حسنًا، إن سمحتِ لي بسؤالك "

- " تكلّم بحرية "

قُلتها بشيء من القوة فنظر إليّ مباشرة، لم يكن ينظرُ إلى وجهي، أستطيعُ أن أجزمَ أن نظرةً قد طالَ روحي ؛ فرأى تلكَ الطاقةِ المتفجرةِ بداخلي، لم أكن أرغبُ في ترهيبهِ وإنما أردتُ أن أسرقَ ولاتهِ دونَ أن يشعر، فهو وكل مَن يحيطونَ به لا يتبعونَ سوى شيئًا واحدا ؛ القوة، ويجب أنا يراها بي !

لا، لا يجبُ أن يراها فقط، بل يجبُ أن يتيقنَ بأن (الملكة) هيَ القوة التي يجبُ عليهِ اتباعها، كانَ يتبعهُ اثنينِ من حرسهِ فأشارَ إليهما بالانصرافِ ؛ أعلم أنني قد نجحت في استقطابه ؛ أستطيعُ أن أرى ذلكَ بعينيه، نظرتُ بدوري إلى وصيفاتي وأومأت لهن بالرحيلِ فما كانت سوى لحظاتٍ حتى أصبحنا بمفردنا بحديقةِ القصر

- " مولاي، لا أعتقدُ أنكَ طلبتَ حضوري لتأنسي بضحبتي بينما أشرحُ لكِ أنواعَ النباتاتِ التي جمعناها منْ شتى بقاعِ المملكةِ لنزين بها حديقةُ القصرِ الحاكم "

ابتسَم بخبث وهوَ يكملُ

- " أعتقدُ أنكِ ترغبين أن تعطيني شرف أن أكون أحد مستشاريكِ "

لم يكن ما قالهُ خاطئا، ولكنه أخطأَ في كلمةٍ واحدة، فهوَ ليسَ مُستشارٌ، هوَ تابع، تابع ذو سُلطة، وأنا أريدُ أن أتلاعبَ بأطرافِ خيوطِ التحكم بما في سُلطته، أريدُ أن أمتلكَ دار الهندسة والفلك، لذا يجبُ أن يعلَم مكانهُ الآن، وإلا فسأفقدُ السيطرةَ عليهِ في المستقبل، أدرتُ له ظهري وبدأتُ أداعب أوراق الشجرةِ التي أمامي وأنا أجيبه بهدوء

- " أُقدِرُ صراحتَك، ولكن لم تعتقدُ أنني قد أحتاج إلى مشورتكَ "

- " مولاي، معَ شديد تقديري، أعلم جيدًا أنهُ لا يوجد ملك أو ملكة ممن حكموا لم يدرسوا شتى العلوم سواء الطب أو الهندسةِ أو الأدبِ أو التاريخِ أو غيرهم من العلوم، ولكن لا يستطيعُ أيّ إنسان أن يتخصصَ بكلِ ذلك معا، لذا قد تحتاجينَ مشورة المتخصصينَ مثلي بينَ الحينِ والآخر"

كانَ كلامهُ صائبا مرةً أخرى، ولكنهُ أخطأَ في كلمةٍ أخرى، كلمة إنسان، فأنا لست إنسان، أنا ملكة (كمت) ! لذا فقد حانت لحظة الهجوم الأملس !

انتزعتُ من الشجرةِ التي أمامي ورقة شديدة الخضرة ثم استدرتُ إليه وأنا أُمَلس عليها بلطف

- " مسكينة "

قُلتها بهدوء وعاطفةٍ مصطنعةٍ مِمّا جعلَ الدهشةَ تسيطرُ على ملامح وجههِ وهو يجيب

- " مَن يا مولاي ؟ "

- " تلك الورقة بالطبع "

كانَ ردي غيرُ ملائم على الإطلاق لسياقِ الحديث ؛ ما جعلهُ يتشتتُ ويفقدُ ترتيب كلماتهِ، فمن الواضحِ أنهُ منذ أن علمَ بأنني طلبت حضورهُ كانَ قد بدأ في تحضيرِ شروطهِ لقبول التعاقدِ الذي سيتمُ بيننا، ولكنهُ لمْ يتنبه إلى شيء واحد ؛ وهوَ أنه سيقابلني أنا ..المَلكة !

- " أتعلم يا كبير المهندسين ؟! أنا أشفقُ جدا عليها، تخيل أنها منذ ولادتها وجدّت نفسها متعلقةً بهذهِ الشجرةِ القويةِ، يداعبها النسيمُ قليلًا وتظلّ ثابتةً، ثمّ يأتي موسمَ المطرِ وتُنعم علينا الآلهةُ بالفيضانِ العظيمِ وتظلّ هيَ متمسكةً بذلكَ الفرعِ القوي، تتوالى المواسمُ عليها ومعَ كلِ موسمٍ تكتسبُ الثقةُ في أنها أقوى، فكيف تكون ضعيفةً بعدَ أنْ تصدّت لكلِ تلكَ الاعتداءاتِ بحياتها وظلّت كما هيَ ! بل بالأكثر، بدأت تنمو وتزدهر "

ظلّ ينظرُ إليّ وقد بدا عليه عدم استيعابه لما أرمي إليه بحديثي، فابتسمتُ ببساطةٍ ونظرتُ إليهِ في عينيهِ وأنا أقولُ بنبرةٍ هادئة وقوية

- " ثم، أتيت أنا ! "

قُلتُها وقد رفعتُ الورقةُ لمستوى نظري لتكون بمنتصفِ خطِ الرؤيةِ بيني وبينهُ، أردتهُ أن يراها جيدًا وأنا اضغط عليها بأطرافِ أصابعي بهدوء وقوة معا، بدا عليه التوتر الواضح فأخفضتُ يدي وأكملتُ وأنا أترك بقايا الورقةِ تفلتُ من بينِ أصابعي ببساطة

- " كثيرا ما نخال أنفسنا أقوياء لمجردِ تفادمنا في أماكنِ سلطتنا، أو نحسبُ أنفسنا محبوبين لمجردِ أننا فرضنا أنفسنا بنفوذنا على غيرنا، ما لا نعلمهُ أنّ

Visual Watermark

السيل قد يأتي بلحظة ليقطع مصدر القوة عنا، غذاء، قوة، نفوذ أو سلطة، كلها أشياء تُمنح فقط من الملك "

ساد الصمتُ لحظة قبل أن أكمل بنبرة قوية

- " أو الملكة "

اقتضب حاجباهُ محاولاً تفادي إظهار الغضب حينَ قال

- " بماذا تأمر مولاتي ؟ "

بدأتُ أسير مرة أخرى فبدأ يسير بجواري وهو عاقد كفيه خلف ظهره

- " أنا لا أعطيك أمرا يا كبير المهندسين، أنا أستشيرُ ولي حق الأخذ بالاستشارة أو لا، فالقرارُ لي "

لم أنظر إليه ولكنّني شعرتُ بابتسامته حين جعلتهُ يشعر بأنني قد منحتهُ مكانة المستشار بالفعل، فأكملتُ

- " كما قُلت منذ لحظاتٍ، لقد درستُ الكثيرَ من علوم القدماء، وهذا جعلني أودُ أن يدورَ بيننا هذا الحديثُ الآن "

- " لقد أثرتِ اهتمامي يا مولاتي "

- " لقد لاحظتُ بعضَ التغيراتِ الفلكيةِ منذ عِدّةِ أيام مما يشيرُ أننا اقتربنا من أحد فترات (سقوط النجوم)، وأثناءَ بحثي لاحظتُ اقترابَ بعضا من أكبرهم، وإزدياد احتمالِ مرورها بسماء (كمت) "

- " بالفعلِ، وقد رصدنا العديد منها في السماءِ العميقة وتمّ حساب مساراتها بدقةٍ "

توقفتُ مرةً أخرى ونظرتُ إليهِ قائله

- " أريدُ معرفة التوقيت الدقيق لظهور تلك النجوم المحترقة بسمائنا "

- " هذا طلب بسيط يا مولاتي، اعتقدتُ أن الأمر سيكون أصعب من ذلك، فما تشيرين إليه سيحدث غدًا ليلا "

ظهرَت الصدمة على وجهي ولكنّني تمالكتها وأنا أقول بهدوء

- " فليكن إذا، يجبَ ألا يعلم أحد بما أخبرتني بهِ للتو ! "

نظرَ إليَّ بوجه تبدلّت ملامحه للطاعة قائلًا وهو ينحني

- " مولاتي، لقائنا لم يحدُث من الأساس "

استدار وإنصرف في هدوء تاركني لأتدارك وقتي ! ما الذي حدث! كيف لم أحسبْ وقتي بدقة! لا يوجد وقت كافي لتنفيذِ خطتي، يجبَ أن أتحرك الآن !

كنت قد عدتُ إلى وصيفاتي وبدأنا بالتحركِ في موكبٍ صغيرٍ إلى غرفتي، فلا يمكنُ أن أذهبَ إلى مجلس الملك وأنا على قدرٍ متوسط من الجمال، فربما تتاح الفرصةُ لإقناعهِ بما أريدُ من ترتيباتٍ للغد، يجب أن أكون في أبهى صورة تليق بي .. (ملكة) .. ملكة مُتَوَجّة لأقوى حضارات الأرض

يجب أن أُضيء الليل بجمالي !

ستكون ليلة الغد شديدة الإضاءة !

Visual Watermark

الطفلة

المكان .. العاصمة باريس

الزمن .. عام ١٩٩٠

- " آن "

- " نعم يا جميلتي "

- " أريدُ أن أطلبَ منك شيئًا "

قُلتها وأنا أمسكُ بيد والدي القوية أثناء سيرنا سويا ليلا في طرقات عاصمة النور (باريس)، كانت المدينة قد بدأت تُظهر بعض مظاهر الإستعداد للإحتفال مِمّا أضاف نوعا مِن السحرِ الغامضِ لكلِ شيءٍ فعلى الرغم من رغبتي القوية في ترك يد أبي والركضِ حرة في تلك الطرقاتِ التي اكتستْ باللون الأبيض الثلجي، إلا أنّ حالةَ الهدوءِ والطمأنينةِ الغالبةِ على المحيط كانت حائلاً بيني وبين رغباتي الساذجةِ في اللعب بالثلوج، فاكتفيتُ بالاستمتاع بالمشهد فقط، توقف والدي لحظة ونظر إليّ ؛ فنظرتُ إليهِ وأنا أحاولُ مجاراة ارتفاعهِ، لم يكن الأمرُ سهلاً نظرا لتساقُط الثلوجِ المستمر على وجهي مِمّا جعلني أضيقُ عيناي بعضَ الشيءِ لتفادي سقوطِ الثلوج بها أثناء نظري لأعلى، كانَ مبتسمًا وهوَ يتناولُ يداي ليضمهما بين راحتيهِ في محاولةٍ منه لتدفئتي وهوَ يجيبُ

- " أتشعرين بالبرد ؟ "

- " نعم، بعض الشيء "

قُلتها بعفوية ثمّ أدركتُ أنهُ قد يُعيدنا إلى المنزلِ، ولم أكن أريدُ العودة الآن، فنحنُ لا يتسنى لنا قضاءُ وقتٍ كثيرٍ سويًا خارجَ المنزلِ، فكانت تلك هي إحدى الأوقاتِ النادرةِ التي اصطحبني بها إلى الطرقاتِ ليلاً، فاستطردتُ وأنا عابثةٌ الوجهِ

- " لَكِنّني لا أريدُ العودة الآن "

ضمني إليهِ وهوَ يبحثُ حولهُ بهدوء بما يوضح أنهُ ينتظرُ لقاء شخصًا ما ولكنه لم يجده فنظرَ إليّ مرة أخرى وهو يقول

- " لا تقلقين، فلن نعود إلى المنزل الآن، بماذا تأمُر جميلتي ؟ "

- " أعلمُ أن لديكَ الكثير من الأعمال، ولَكِنّني أرجو أن تقبل طلبي بأن نحضر إحتفال رأس السنة غدًا بجوار البرج، وليس بالمنزل كالأعوام السابقة "

بدأ في مداعبةِ وجهي وهو يقول

- " يبدو أنكِ ساحرة صغيرة، أو قارئة أفكار "

اتسعَت عيناي بنظرة طفولية واضحة بينما عجز عقلي عن الإستيعاب، هل وافق بالفعل أم أن حماسي هو ما هيأ لي تلك الفكرة ؟!

- " ولَكِنّني أريدكِ أن تتعرفين على شخصًا ما أولا "

قالها وقد عاود التّلفُتُ حوله لعّله يجد مَن هو في إنتظاره فبدأتُ أنا أيضا في معاونته بالرغم من جهلي التام بما يحدث

- " أتبحثُ عني ؟ "

جاءتنا الجملةُ بصوتٍ أنثوي ضاحك مِن خلفنا مِمّا جعلني ألتفتُ إليها ولكنّ أبي كانَ يقفُ بيني وبينها فلم أتبين ملامحها على الفور

- " كيف تُتقنين مواعيدكِ إلى هذا الحد ؟ ألن تتغيرين أبدًا ؟ "

قالها أبي بصيغةٍ استنكارية مرحة تُفيد بتأخيرها عن موعدها ثمّ توجهَ إليها ليصافحها بحرارة، في حين اكتفيتُ أنا بالنظرِ إليها مِن بعيد

كانت امرأةً جميلةً للغاية ذاتَ شعرٍ قصيرٍ يميلُ إلى اللونِ الأحمر قليلًا، ترتدي معطف أزرق أنيق، ملامحها الخمريةُ تميزها عن العابرينَ مِن حولها، لم أكن قد رأيتها مِن قبلُ، ولَكِنّني شعرت بالغيرةِ مِنها، كانَ أبي قد انتهى من الترحيب بها ثم التفَت إليّ قائلًا

- " (جميلة)، أريدكِ أن تتعرفين على .. "

لم تترك لهُ المجال كي يكملُ قوله فقاطعَته وهيَ تقتربُ مني بهدوء، ثم جثّت أمامي قائلة

- " خالتكِ، أنا خالتكِ وحارستكِ يا (جميلة) "

كانت قد أمسكَت بيدي ولَكِنّني لم أتقبّل مَشاعرها تجاهي مِمّا جعلني أسحبُ يدي بهدوءٍ قائلة بامتعاضٍ واضح

- " ماذا تقصدين بحارستي ؟ هل أنا بخطر ؟ "

قُلتها وتوجهتُ بنظري لأبي الذي نظرَ إلى دونَ أن ينطق بشيءٍ

التفَتت إلى أبي ثم عاودت النظر إليّ مرة أخرى وقد بدا عليها بعض التوتر وهي تقول

- " لستِ في خطر يا عزيزتي، كلُ ما في الأمرِ أن والدكِ قد طلبَ مَعونَتي في بعضِ الأعمالِ بمجرد معرفتهِ بزيارتي لباريس، ووددتُ أن أتقربَ إليكِ بعدَ افتراقنا طوالَ الأعوام الماضية، فلا أعتقدُ أنّ هناك فرصةً أفضل من احتفالِ رأس السنة كي أمضي معكِ بعضَ الوقت، ألا تعتقدينَ ذلك ؟ "

كانت قد وضَعَت قِناعها المُبتسم مرة أخرى، ولَكِنّني لم أقتنع ! مَن تلك المرأة التي دخلت حياتنا من العَدَم ؟ وما الذي يحاولان إخفائه ؟ كلُ ما أريدُه هو الإحتفال برأس السنة مع والدي في هدوء، تُرى !

هل سأستطيع ؟

Visual Watermark

الملكة

المكان .. العاصمة القديمة (طيبة) - قصر الحكم

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

كانت الشمسُ قد بدأت في لملمة ما تبقى من دفئها لتتركَ لنا تلكَ الممرات الخلوية باردةً، فتحاولُ المشاعل الجانبية المعلقة على الجدران أن تجتهد لرد غيبتها، أسيرُ بموكبي الصغير في ممر الأعمدة العالية المحيطة بالحديقة الرئيسية للقصر، أعمدةٌ تتزينُ بنقوش حمراء وزرقاء، لكنني لا أستطيعُ رؤية أيًا من الونين بعدَ أن إمتزجا بلون القمر الفضي ليُوحّد بينهما في تناغمٍ مقصود، فالشمس حية، والحيّ ينبضُ بالاختلاف، ففي اختلافاتنا حياة، تناقُرٌ وتجاذُب يفيضُ بالطاقة، طاقةٌ تُبعثُ بالنهار ليلتهمها قمر كسول مختبئ، ثم يعكسُ منها ليلاً ما ينسابُ عن سطحه الأملس، ضوءٌ بسيط يسمحُ لهُ فقط بالتلصُص علينا

- " مولاتي "

جاءَ صوتُ الوزيرِ من خلفنا ليقطعَ أصوات خُطواتنا الرنانة، استدرتُ إليه لأجدهُ يقفُ عاقدًا كفيه أمامه بجوار أحدِ أعمدةِ الممر شاهقةِ الارتفاع، لم يكن ينظرُ إلينا ؛ كانَ جسدهُ متوجهٌ إلى الخارج نحو الحديقةِ رافعا رأسهُ لينظر إلى النجوم بالأعلى

ظلَّ ساكنًا للحظات ثم التفتَ بوجهه لينظرَ إليَّ بعَينيه الجاحظتين قائلا

- " هل أتشرف يا مولاتي بلحظات من وقتك ؟ "

أشرتُ إلى وصيفاتي بأن ينصَرِفن إلى آخر الممر ليتركن لنا مساحة للحديث ثم بدأتُ في التوجه إليه وأنا يدور بداخلي الكثير من التساؤلات، ولكنني لن أبدأ بالحديث، أنا أعلمُ أنه لديه ما يقوله، فلأستمع لما لديه، توقفتُ بجانبه ونظرتُ إلى السماء المشبعةِ بالنجوم الواضحة بالفضاءِ العميق، نجومٌ تسبحُ في فلكٍ مدروسٍ بعناية لنا، طالما اعتمدَ عليهِ القدماءِ في كثيرٍ من العلوم

- " السماء ساحرة الليلة ! "

قالها وقد عاد ينظرُ إلى السماء ثم التفت بوجهه إليَّ مبتسمًا وهو يُكمل

- " ولكنها لا تُضاهي سحركِ بالتأكيد "

باغتني قولهُ، فكانت تلكَ هيَ المرةُ الأولى التي يثني بها عليَّ فما كانَ لديَ سوى أن بدا عليَّ القليلِ من الخجلِ والكثيرِ من الدهشةِ، مِمّا جعلهُ يستطردُ

- " أدركُ أن لديكِ خطة ما، لا أعلمُ بالضبط ما هي، ولكنني اثقُ بكِ "

استدرتُ اليه قائلة

- " وأنا أثقُ بكَ "

استدار إليَّ بدوره ليتسَلل ضوءَ القمرِ إلى ملامحهِ ويُشكِلها في أقسَى صورةٍ لها، ثم بدأ يبتسم ؛ فهوَ يعلمُ جيدًا تأثيرَ ملامحهِ على الآخرينَ

- " لا أريدُ أن أعلمُ خطتكِ "

تعجبتُ لقوله في حين أكمل هو

- " أريدكِ فقط أن تُسرعي بها "

بدأت تلكَ القشعريرة الباردة تسري في جسدي، فأنا أعلمُ جيدًا أن الأمرَ الذي يجعل الوزيرُ ينتظرني هكذا - بمفردهِ دونَ حراسةٍ ودونَ ترتيبٍ مسبق - ليسَ هينا، ليسَ هينا على الإطلاق ! ممالكتُ ملامح وجهي وأنا أجيبُه

- " من الواضح أن لديكَ من المعلوماتِ ما يُقلق "

زالت ابتسامتُه وتبقَى تأثيرَ القمرِ على وجههِ حينَ قال

- " إنهم يحشُدونَ مَن والاهُم في الشمال، بعد أن نجحت خطتكِ - بضربهم من داخلهم - في وأدِ الحربِ قبلَ أن تحدُث، شعروا بالتهديدِ يتزايد من وجودكِ "

- " وهل هناكَ مَن يواليهم في الشمال ؟ "

عادت ابتسامتهُ بينما ازدادَ جحوظُ عينيهِ وهوَ يُجيب

- " وكيفَ بالأساسِ بدأت فتنةُ الشمالِ في ظنك ؟! "

بدأ التوترُ يتسلل إلى ملامحي بعضَ الشيء، فما قاله للتو يعني أنني قد أحبطتُ مخطط كانَ الكهنةُ هم مؤسسيه للقفزِ على الحكم !

- " أيعلم الملكُ ذلكَ ؟ "

- " لا يعلمُ سوى المخلصين لنا، و .. "

صمتَ لحظةٍ ثمّ تلعثمَ قليلًا وهوَ يكمل

- " الملكة، (تي) "

لم يدهشني كونهُ تلعثم، ما أدهشني هوَ ذلكَ التحولِ المفاجئِ في هيئتِه !

زوالُ الثقةِ المفرطةِ بالنفسِ والعنفوانِ الذي يبثُ الذعر في قلوبِ جميعِ الناظرينَ إليهِ بمجردِ أن تَجرّأت شفاهُ بنطقِ اسمها ! مِمّا جعلني أتجرأ بعفوية فقلت

- " أنتَ تُحبها "

أصابني بنظره إن للقاها عدوةً لتمنى الموتُ في موضعهِ، ثمّ عادَ خطوةً إلى الخلفِ وهوَ يقاومُ تلكَ المرارةَ بحَلقِه، مرارةٌ تَحول بينهُ وبينَ كلماتٍ مكتومة كالحمضِ بداخلِ جوفهِ ؛ لا يستطيعُ إخراجها فاكتفى بتحمُلِ ألمها وهيَ تفتاتُ على ما تبقى بداخلهِ من مشاعر

Visual Watermark

صوتٌ أجش، جاحظ كعينيه، استطاعَ أن يتمتم به كلمتين فقط موجهتان إليّ

- " كيف تجرؤين ! "

اقتربتُ منه خطوة وأنا أجيب

- " أنا أنثى، وأعلمُ جيدًا نظرة العاشق يا وزير، إن استطعتَ خداع الجميع فلا تُحاول خداعي"

قاطعني بَغتة وقد اقترب بوجهه مني بشدة، ممّا جعلني أشعرُ بأنفاسه الساخنة ؛ كأنهُ يُخرج ما يفيض من احتراق قلبه بوجهي وهو يقول بصيغة متقطعة

" أنا، لا أخدعُ أحد، هذا شأني وحدي ؛ ليسَ لأحد دخل به، لا يُمكن أن يعلمَ أحد بذلك، فالتقسمي بأن يذهب معكِ هذا السر إلى الحياة الأخرى "

ظلّ مُحدقا بوجهي ليستَشْف صدق نيتي، وكان لهُ ما شاء، فأنا لا أستطيعُ أن أخسرَ قوةً ضاربةً مثله، أنا أحتاجُ إلى سُلطته، فأجبتهُ بثقة

- " لقد قُلت أنك تثقُ بي، تأكد ؛ لن يعلم أحد "

هدأت ملامحهُ وهو يتراجعُ بوجهه بهدوء ثم أغمض عينيه وهو يقول

- " ماذا تحتاجين مِنّي في المرحلة القادمة "

التفتُّ إلى الحديقة الفضية وبدأتُ في تأمل السماء المتلألئة بينما أخذتُ نفسا عميقا من رحيقِ زهر الليمون المنبعث من الحديقة، ثم قُلت

- " أحتاجُ إلى حفل " .

نظرَ إليّ في دهشة قائلا

- " حفل ! .. "

- " نعم، احتفال، أريدُكَ أن تُقنع الملك باقامته ؛ وأن يحضره الجميع "

- " فليكن، متى تُريدينه "

- " غدًا ليلًا "

ابتسم متحديًا تفاصيل وجهه ثم اجابني

- " وأين تُريدين الحفل ؟ "

استَدَرتُ لأواجهه وأنا أجيبه

- " السفينة الملكية "

اتسعت أعين الوزير بِشِدّة، حتى ظننتُ أنني إن اقتربت منه سيختل توازني وسأسقطُ بداخلهما، فَثَبتُّ بلا حِراك، حينها، اقترب وهوَ يدرسُ عيناي بعمق، ثمّ قالَ بهدوء

- " لكِ ما شئت، ولكن يجب أن تعلمين أنكِ إن أهدرتِ فرصتك ليلة الغد، قد لا تتيح لكِ الآلهة تِكرارها "

نظرتُ إليه بدوري بنفس ثقته، بل وأكثر قليلًا، فأجبته

- " هذهِ هيَ المرةُ الأولى يا وزير التي لا تكونُ مُحِقًا بها فيما تقول "

تراجعَ بوجههِ وقد غلبهُ الذهول الذي فشلَ في أن يستترَ بقناعِ الثقة، ذلكَ القناع الذي يرتديه دائمًا، ثمّ قال

- " وكيف ذلك ؟ "

هذهِ لحظتي ! جاءتني فرصتي لأكونَ أنا المنتصرة في تحدي الثقةِ المستمر بيننا

اقتربتُ مِن وجههِ حتى أصبحتُ لا أرى منهُ سوى عينيه، ثمّ أجبتهُ

- " هذهِ المرة ؛ إن علمت الآلهةُ ما أخطط لهُ لحَضَرَت بنفسها وبكاملِ عتادِها لإيقافي قبلَ البدءِ بها مِن الأساس ؛

فأنا مُنذُ لحظةِ بدء تنفيذِ مخططي أكون قد بادرت بإعلانِ الحرب !

الحرب ضد الجميع ! "

Visual Watermark

الفصل الحادي عشر

نحو الجنوب

كرمة

المكان .. الأسكندرية

الزمن .. الآن

- " إلى متى سنظلّ هكذا ؟ "

قالها طليقي (مروان) وهو يُغلق الباب الخلفي للسيارة بعصبية بعدَما وضع حقائب البنات بالسيارة، لم أتَعَمّد تجاهُل سؤاله فأنا أعلمُ أنني أخطأت وأنها ليست المرة الأولى التي أتجاوز بها ميعاد استقبال البنات من المدرسة، ممّا دفَع إدارة المدرسة إلى مُكالَمَتِه كالعادَة ليقوم باستلامهن، لا أجد إجابة قد تُهدئ من غضبه ولكن ليس أمامي سوى أن أحاول؛ فأجبته

- "أنا لا أستطيعُ النوم مُنذ عِدّة أيام يا (مروان)"

قُلتها إليه وأنا استقبلُ (سارة) التي احتضنتني بقوة ثم دخلت لتجلس على المقعد الخلفي للسيارة في حين تَوَجّهَت (مريم) إلى مِقعَدِها مُبَاشَرةً، دار (مروان) حول السيارة ليقف بجوار نافذتي وبدأ يدفع باب السيارة الخاص بي باستفزاز حتى كاد أن يغلقه على قدمي مُستطردًا وهو يُحاول ألا يَجعل صَوته مَسموعًا

- " كيفَ أستطيعُ أن أطمئنَ على ابنتايَ معكِ وأنتِ لا تستطيعينَ تحمُّل مسئولية نفسِك ؟! "

نظرتُ إليه وأنا أُحاول أن أتَجَاوَز فِكرة أنه كاد أن يكسِر قدمي وظَلَلتُ التزم الصمت لَعلّه يتوقف عن تأنيبه المستمر لي، ولكنه لم يَكف، ظَلّ يرشقني بتِلكَ الكلماتِ الثاقِبَة ومع تراشقها بدَأت دفاعاتي النفسية في الإنهيار، أخفضتُ صَوتَه الكَرِية تدريجيًا في عقلي حتى لَم يَعُد مَسمُوعًا ؛ فآخر دِفاعاتي هي أن ألغي حاسة السمع مؤقتًا حتى أتجاوز الأوقات التي تجمعنا معًا، بدأتُ انظر في المِرآة إلى (سارة) ؛ كانت قد وضَعَت كَفّيها عَلى أُذُنيها وبَدَأت في الغِنَاء بِصَوت بَاكٍ ؛ لَعَلّهَا تَستَطِيعُ أن تتجاوز تلك اللحظة التي قد تشُق لنفسها مسارًا كَرِيهًا إلى ذاكرتها، أما (مريم)؛ فكانت تجلسُ بجانبها كالتمثال، أعلَمُ ما بداخلها من غَضَب تجاهي، فلم تحاول أن تنظُر إليَّ حتى من باب الشفقة

- " أستسمحين له أن يُعاملكِ بهذا الأسلوب ؟ "

افاقتني الجُملة لتبدأ الضوضاء مِن حولي في العودة إلى مسامعي تدريجيًا ، نظرتُ إلى مصدر الصوت لأجدني (أنا) اجلس بجانبي ووجهي يكاد يفترس (مروان) الذي لم يَكف عن إلقاء الاتهامات

- " لمْ يكفيكِ كل ما صَدَر منه، لِمَ تتحملين كل تلك الإهانات ؟!"

قالتها (أنا) وهي تنظر إليَّ لعلي أنزع عني عباءة الضعف وأثور عليه ؛ ولو لمرة واحدة

ولَكِنّني اكتفيتُ بأن أدرت محرك السيارة وبدأتُ في التحرك بها، ومعَ تحركي اعتَدَلَت (أنا) في مقعدها ثمّ قالت وهيَ تنظرُ من خلالِ النافذة الجانبية

- " هل أخبرته أنهُ مَن سيأخُذ البنات مِن مسرح الأوبرا الليلة ؟ "

أجبتُ بداخل عقلي

- " لا، لَم تكُن هناك فرصة لأفعل "

سمعتني (أنا) فأجابت باستهزاء قائله

- " ومَن يا سيدةُ قَومِك الذي سيقومُ بهذا الدورِ اليوم، أليسَ لديكِ ميعادِك اليومي مع دكتور المومياوات ؟ "

- " لا تنعتيهُ بذلك، لا أحد غيرِه مهتم بمساعدتي "

- " مساعدتِك بماذا، بطريقكِ المجنون الذي تسيرين به "

- " لِمَ تُصرين علىّ احباطي ؟! "

- " أنتِ لا تحتاجين إليَّ لإحباطِك، يكفي أن أتركَكِ لنفسِك وأنتِ كفيله بتدميرنا معًا "

- " حسنا، هذا يَكفي "

- " وإن لم أصمُت ؟! "

- " كفىّ، مِن فضلِك "

- " جبانة "

- " كفىّ "

لم أنتبه إلى أن إجابتي الأخيرة صدرت مني بصرخةٍ منفعلة،إجابة قفزت خارجَ عقلي بخلافِ باقي حواري معها، فقد استعانَ لساني بجزءٍ من غضبي المدفون بداخلي ودفع بالكلمةِ لتخرجَ مِن جسدي بصيحةٍ قوية ؛ لعلّ صراخي يخفّفُ عني بعضُ الشيء.

صرختُ، ومعَ صرختي ضغطتُ بقوة على مكابح السيارة التي توقفت بصعوبة على جانبِ الطريق، سادَ الصمتُ بداخلِ السيارةِ لدقيقةٍ كاملة قبلَ أن تبدأ (سارة) بالسؤالِ

- " أمي، إلى مَن كنتِ تتحدثين ؟"

نظرتُ بجانبي لأجد المقعدَ خالي، فنظرتُ داخل مرآةِ السيارة لأجدَ (مريم) و (سارة) وقد أصابهما الذعرُ، فتمالكتُ نفسي وبدأتُ في تصفيف شعري خلف أذني بحركةٍ متوترة وأنا أجيبُ

- " لا أحد يا صغيرتي، لا أحد "

عادت (مريم) لتنظر خارج النافذة وهي تقول باستهزاء مُتَعَمّد

Visual Watermark

- " سنتأخر إن لم نتحرك الآن "

إلتفتُ إليها وهممت بمهاجمتها على أسلوبها في الحديث معي ولكنّني عدلت عن ذلك وبدأتُ في التحرك بالسيارة وأنا أستجمعُ ما تبقى لدي من طاقة، فأنا تقريبا أصبحت لا أنام !

كان الأمر قد بدأ بأحلام على فترات متباعدة، حتى تطور الأمر ليصبح حدث متكرر كل ليلة، أصبح الأمر أكثر مما يمكن لبدني الضعيف أن يتحمله، فهي الآن تأتيني في أحلامي يوميًا، تأتيني بجمالها الهادئ لتضيء عقلي، والغريب في الأمر، أنني لا أمَل منها !

يا لها من إطلالة ! و يا لها من قوة !

لم تمر سوى دقائق حتى وجدتُ نفسي بداخل مسرح الأوبرا و (مريم) و (سارة) تهرولان أمامي حتى وصلا إلى خشبة المسرح لتستقبلهما زميلاتهما بترحاب، فكالمعتاد أنا السبب في وصولهما متأخرتين

- " هل انت والدة (مريم) و(سارة) ؟ "

جاءني السؤال من خلفي مباغتا مِمّا جعلني ألتفتُ لقائلته فجأة، كانت إمرأة جادة الملامح والملبس، لا أعتقد أنني قد رأيتها من قبل، فأجبتها بتحفظ

- " نعم، أنا هي، هل حدث منهما شيء ؟ "

صافحتني بدون إبداء أي تعبير وهي تجاوبني

- " لا على الإطلاق، أردتُ أن أتعرف عليكِ ليس أكثر، وأتحدثُ معكِ عن كيفية رفع مستواهم في التدريب "

- " عذرا، ولكنّني لم .. "

قاطعتني لتُعرفُني بنفسها قائلة

- " أنا (هند) المسئولة الجديدة عن الفرقة، وأجدُ صعوبة في التواصل مع (مريم) على وجهِ الخصوص، فأحتاجُ إلى الاجتماع بكِ بعد التدريب إن سمحَ وقتكِ "

بدأ التعجبُ واضحٌ على ملامحي ! فهذه المرأة ليست (أنا)

ماذا هذا الذي أقوله ! ف(أنا) لم تذكُر قط توليها تدريب الفرقة

ماذا أقول ! كفىَ خداعا للنفس ! إن (أنا) لا تحيا سوىَ بداخل عقلي فقط !

- " أرى أنكما قد تعرفتما بالفعل "

جاءَ قائلُ العبارة من نهايةِ الممرِ المؤدي إلى بابِ المسرح، نظرنا إليهِ ولَم نستطيعَ تَبَيُّن ملامحهُ نتيجةَ ضعفِ الإضاءة ولكن معَ اقترابِهِ تأكدنا أنهُ الدكتور (منير) عالمُ الآثارِ والمسؤولِ عن ترميمِ مبنى الأوبرا، حينها استطردَ قائلا

- " كنتُ أوَدّ أن أتأسفَ لكِ يا كريمة عن تأخري، ولَكِنّني في الحقيقةِ سعيد بأنني أتحدثُ لكما الفرصةُ لتتعارفا "

ابتسمت لهُ (هند) وكأنّ وصولهُ قد أذابَ تلكَ القشرةَ الشمعيةَ التي كانت تُقيدُ ملامحَ وجهها، ثمّ قالت لي

- " يبدو أنكِ ستنشغلين الآن مع الدكتور (منير)، فلنُكمل حديثنا لاحقا "

ثمّ أماءت لهُ بابتسامةٍ تنمُ عن معرفتها بهِ وانصرفت في هدوء، ظللتُ أتابعها للحظاتٍ قبلَ أن يَقطعَ مجال بصري قائلاً

- " يبدو عليكِ الإجهاد "

- " بالفعل، هل وجدتَ أيّ جديد ؟ "

ابتسمَ مجيبا وهوَ يشيرُ إليّ بالسيرِ معه نحوَ بابِ المسرح

- " لَم أكُف عن البحثِ منذ أن شرحتِ لي ما يحدثُ معكِ "

كنتُ قد بدأتُ في السيرِ بجوارهِ وأنا أقولُ

- " لَم أكن أتخيل أنكَ ستُصدقني ؟! "

- " الدافع يا (كريمة) "

- " ماذا ؟ "

- " الدافع ؛ فبعدَ أعوامٍ كثيرة مِن خبرةِ التعاملِ مع الناسِ توصلتُ إلىَ سؤالٍ واحٍ يتلخصُ بهِ كلّ شيء، مَا الدافع ؟ "

كنا قد وصلنا إلى بابِ المسرح مِمّا جعله يقفُ وينظرُ إليّ مُكملا حديثه

- " ما الذي قد يدفعكِ للكذبِ بخصوصِ زيارةِ ملكةٍ - قد غادرتنا منذ أربعةِ الآفِ عامٍ - لكِ في نومِك

فكرتُ كثيرا بالأمرِ ولَم أجد الدافع!

مِمّا جعلني أتساءل عن دافعِ الملكة نفسها لزيارتك ! "

بدأت ملامح الطفلة الساذجة تتسلل إلى وجهي وأنا أنظر إليه

" أنا مُعجَبه به "

قالتها (أنا) وهي تقفُ خلفي بثقة وتجذبُني مِن خصلاتِ شعري لكي أنتبهُ إليها، لَكِنّني لَم أعيرها انتباها ؛ فكُل ما يجذبُني الآن هو معرفة ما توصل إليه (منير) فسألته

- " وهل وجدتَ إجابة لسؤالك ؟ "

- " لَم أجد إجابة قاطعة ولَكِنّني وجدتُ الطريق إليها، وأراها خلفكِ مباشرة !! "

اتّسعت عيناي مِن الدهشة ! هل مِن المعقولِ أن يستطيع رؤية (أنا) ؟!

Visual Watermark

- " أستطيعُ رؤيتها ؟! "

- " إن استطاع رؤيتي سأتزوجه "

قالتها (أنا) بسخرية، ممّا جعلني ألتفتُ إليها بغضب لتكُف عن ثرثرتِها

نظر إليّ (منير) ببعض الدهشة قائلا

" أولُ الطريق خلفك يا (كريمة)، مُعلّق بلوحة إعلانات المسرح "

أخذتْ نفسا عميقا لأُهدئ دقات قلبي المتسارعة، فعلى الأقل مازلت عاقلة أمامهُ ولو لبضعة أيام قادمة، ظلّ ينظرُ إليّ مبتسمًا وأنا لا أعلم ماذا أفعل، فتَردتْ اللحظات قبل أن يأتيني إسمي مكررا !

- " (كريمة) " قالتها (أنا)

- " (كريمة) " قالها (منير) مبتسما

- " نعم "

- " فلتنظُري خلفكِ إلى لوحةِ الإعلانات " قالاها معا

التفتُّ خلفي لأتبيّنَ ماذا يقصدان، وما أن رأيتُ اللوحةَ حتى ابتسمتُ أنا أيضا، فلم يكن باللوحةِ سوى إعلانٍ كبيرٍ عن تنظيم المسرح لرحلةٍ تشملُ المتدربات والمتطوعات مِن الأمهاتِ للتعرفِ على تاريخ مصر، رحلة إلى الأقصر، رحلة قد تضعني على أولِ الطريق

طريقُ معرفةِ هدف المَلِكة مِن التواصلِ معي،

أنا

دون أي شخصٍ آخر

Visual Watermark

حياة

المكان .. القاهرة

الزمن ـ الآن

- " أؤكدُ لكِ، إن لم تكوني صديقتي المفضلة لما طاوعتكِ وجئتُ معكِ إلى هذا القبر "

قالتها (مديحة) وهي تحاولُ العبور - بجسدها الممتلئ - من خلال باب معرض الأنتيكاتِ المُحترق، كان البابُ قد نجا من الحريق وكأنهُ مُصر على إتمام دورهِ في الحفاظ على المعروضاتِ حتى آخر وقت !

- " أولًا، أنا لستُ صديقتكِ المفضلة، أنا صديقتكِ الوحيدة، فلا أحد غيري يتحملُ هرائكِ ؛ ثانيًا، احترسي بالشمعةِ التي بيدكِ فلا نريدُ أن نحرقَ بأيدينا ما قد نجا من الحريق ؛ ثالثًا، لا تنعتي المكانُ بالقبر، فلم يُمت فيهِ أحد ! "

قُلتها وأنا أزيحُ بعض القطع المُتفحمة من طريقي، كانت رائحةُ المعرض بشعة، مزيج من الأثريات الخشبية المحروقة والنباتات وأوراق البردي والأواني الفخارية، مُضاف إليها روائحُ الأقمشةِ والصور التي كانت مُعَلَّقة على الحائط بعد أن مُزِجَ رمادها بالموادِ التي استُخدِمَت في الإطفاء، أعلمُ أنني لم أكن صادقةً مع نفسي حينَ قُلت أنهُ لم يُمت أحد بالمكان.. عُذرًا، فمَن ماتَ هو التاريخ !

مات بعدَ أن جَلَبَ كل تلكَ الأشياء معا من مُختَلَف العصور وتَجَسَّد بها، فعندما كنت أزورُ (عمَّ جميل) كنتُ أشعرُ بالتاريخ يتنفَّس من حولي مُتجسدًا في كل قطعة مَرَّ بها في رحلتهِ التي أتت به إلى هنا ؛ بل كنتُ أعيد الحياة لكلِ قطعة بداخل عقلي، وأكتبُ لها قصةً قصيرةً تليقُ بها، تلكَ القلادة كانت لخَطَّابٍ تركَ قرينتهُ ساعيًا للدفاع عن آخر حُصون (مِصر) ضدَ الرومان، أخذَ ينحتُها لحبيبتهِ بيديه على ضفافِ النيلِ قبلَ أن ينالَ منهُ سَهْمٌ غادر، فحملها النيلُ عنهُ أمانةً لتظلَ طافية فوق غصنٍ عائم، وأصبَحَت رمزًا لحبٍ استمر دهرًا رغمَ أنفِ الحروب، وتلكَ الأواني العاجيةُ خبَّأتها عاملةُ القصر خوفًا عليها من بطشِ الغزاة، أراها تحفُر بأيديها العاريةِ في الأرض حتى تلوِّنَ التراب بلونِ دمائها، حفرَت لعلها تستطيع الحفاظَ على أي شيءٍ من حياتها السابقةِ كما هوَ، فإن لَم تعُد هيَ إليهِ ؛ عادَ أحفادها من بعدها ليقيموا دولة حقٍ بما تبقى لهم منها، أما تلكَ المخطوطةِ فكانت لطالبةِ علمٍ تتلمَذت على يدِ أعرقِ علماءِ مكتبةِ الإسكندرية، فجاءَ ريحٌ من بحرِ الشمالِ وحملها معهُ قبلَ أن ينفُثَ بردهِ في النيرانِ لتخبو، وكأنها أرادَ أن يُنقذها لتستقرَ هنا بعد ألفِ عام

- " (حياة)، أين ذهبتِ ؟ "

جاءَني صوتُ (مديحة) من داخل المعرض المُظلم ليعيدَني إلى واقعي

- " أخفضي صوتكِ، لا يُمكن أن يعلم أحد أننا هنا "

- " ألم يكن من المُفضَّل أن نأتي بالنهار "

قالتها وقد بدأت في التعرُّف بكلِ ما حولها مِمَّا جعلني أُوَجِّه الشمعة التي بيدي تجاهها، كانَ وجهها قد تشبعَ بالرمادِ المتناثرِ مِمَّا جعلني أبتسمُ قليلًا قبلَ أن أعاود بحثيَ

- " لِم ابتَسَمتِ ؟ "

قالتها (مديحة) وهي تتبعني عن قُرب

- " لا شيء، ولَكِنَّني أُفَضِّل شكلكِ هكذا "

- " قلتُ لكِ أنني سأنقضُ وزني قريبًا ولن تتعرفيَ علي "

- " لا تقلقي بخصوص ذلكَ، فعندما نخرجُ من هنا لن تستطيعيَ التعرف على نفسكِ "

توَقَّفت فجأة على أثرِ ما قُلت ثم بدأت تدورُ حولَ نفسها بالشمعةِ بعصبية وهيَ تبحثُ عن أي مصدرِ انعكاس قد يصلحُ كمرآة

- " لا، لا، لا ؛ كيف سأعود إلى المنزل الآن بهذا الوجه ! "

- " هذا ليس من شأني "

قُلتُها وأنا أسلك مساري بصعوبةٍ نحو الغرفةِ المغلقة التي رأيتُ بها (عم جميل) آخرِ مرة، في حينِ بدأت تظهرُ ملامحَ الخبث الطفولي على وجهِ (مديحة)، فقلتُ لها

- " أعلمُ ما تفكرينَ به، لا تفعلي شيئًا قد تندمينَ عليه"

بدأت في التحركِ تجاهي وهيَ تضحكُ على ضوءِ الشمعة بعدَ أن قبضت بيدها بعضَ الرمادِ من الأرض كي تلطخ به وجهي، مِمَّا جعلني أسرعُ في خطواتي وأنا أحاولُ تفادي وصولِ يدها الطائشةِ إليَّ، خطوة تلوَ الأخرى وجدتُ نفسي أمام موضِع الغرفةِ المغلقة، ولكنَ العجيبَ في الأمرِ أنني لَم أجدها ! ليسَ هناك أيُ أثر للبابِ المؤدي إلى الغرفةِ وكأنها لَم تتواجد من الأساس !

- " (حياة)، لِم توقفتِ ؟ "

- " أين الغرفة ؟ "

- " أمتأكده أنها كانت هنا ؟ "

نظرتُ حولي لأتأكد من مكاني، هل من الممكنِ ألا يكونَ هناكَ باب من الأساس ! أن يكونَ ما رأيتُه لم يحدث بالفعل ؛ هل من الممكنِ أن يكونَ وجود البابِ في عقلي أنا فقط ؟!

- " (حياة) "

- " لستُ في مزاجٍ للمُزاح "

- " (حياة)، أنا لا أمزحُ الآن ! "

همَسَتها (مديحة) في توتُر مِمَّا جعلني انظُر إليها على ضوءِ الشمعةِ الواهن، كان وجهها أسود مُلَطَّخ بالرماد، ولكن تعبيرها كان واضحًا، فقد كانت خائفة ! لَم تترك لي فرصة لأسألها حين اقتَرَبَت مِنِّي هامسةً

Visual Watermark

- " أعتقدُ أننا لسنا وحدنا ! "

أمامَ بوجهها نحوَ بابِ الدخول ممّا جعلني ألتفتُ إليه في حيطة ؛ وبالرغم من الظلام الكثيف الناتج عن الرماد العالق بالهواء إلا أنّ هيئةَ الرجُلِ الواقفِ أمامَ البابِ كانت واضحةً، وقفَ ساكنًا والضوءُ يسطعُ من خلفه فإنعدمَت ملامح وجهه، لا أعلمُ إن كانَ يلبسُ قناعًا أم أن الإضاءةَ لم تكن كافيةً لإنارته

رُبّما في موقفٍ آخر كنت سأتوجهُ إليه وأسألهُ عن سببِ تواجده هنا، ولكن نظرًا للأحداثِ الحاليةِ ؛ لم أعد أثقُ في أحد، قد يكونُ يضمرُ شرًا ولا أعتقدُ أنني سأستطيعُ مواجهتهُ وكل أسلحتي هي خيالٌ و ؛ (مديحة) !

(مديحة) ! أين ذهبَت ؟! لقد كانت تقف بجواري !

تحركتُ بحذرٍ كي لا ألفتَ إنتباهه لوجودي، لم أجد شيئًا يخفيني سوى تلك المكتبةِ المتهالكةِ بجوار الحائط فاحتميتُ بها، بدأ بالتجوُّل داخل أروقة المعرض فتسلل الخوف إلى قلبي، وتسارَعَت دقاته، وإرتفع صَوته ليُنافس صَوت خُطوات الرجُل عديم الوجهة !

خِفتُ أن يسمعَ دقاتِ قلبي فأغمضتُ عيني كي أمنالك أعصابي، أعلمُ أنّ قوتي هيَ خيالي، ولكن كيفَ يُخرجني خيالي من مأزقٍ كهذا!! حسنًا، يجب أن أهدأ، سأتحكمُ في دقاتِ قلبي لتتزامنَ معَ صوتِ خطواتِه، نعم، هذا هوَ الحل، هكذا لن يسمعُها، أنها قُدرةٌ خارقة أتميزُ بها، وأعتقدُ أنني نجحت بالفعل، فقد مَرّ بجواري دونَ أن يشعُر بوجودي.. إنها فُرصتي الآن للهُروب !

حان وقت النُحُول، لن أحجُم أجنحتي بعد الآن، سأصُب عليه غضبي، سأريه قُدراتي كاملة، ها أنا ذا أضربُ الحائط بقدمي وأجنحتي معا تاركةً آثار تشقُّقات من شِدّة الضربة، أصلُ إليه في جزءٍ من الثانية، أُمسِكُ به بقوة بينما ادفعُ الهواء بأجنحتي لأُحلّق عاليًا، لن تُفلتَ مني، أرى الأرضَ تبتعدُ وتبتعد، وأراهُ يحاولُ أن يُحررَ نفسهُ، المسكينَ لا يعلمُ أنني لستُ في كامل هيئتي المُتحولةِ بَعد، تلك القشرةِ الذهبيةِ التي يتحولُ لها جلدي تجعلُ منّي م ...

- " (حياة) ؟! "

جاءَني إسمي مُباغتًا ليُعيدَني إلى واقعي فجأة، لم أكن قد فتحت عيني بَعد، ولكنّني أعلمُ ذلك الصوت جيدًا

- " أنتِ لستِ (مديحة) ! "

قُلتها وأنا أفتحُ عيني بهدوء لأجِد الدكتور (مراد) يستعيدُ نظارَته الطِبّية على أنفه وقد غلّبَ على وجهه التوتر

- " ماذا تفعلين هنا في هذا الوقتِ من الليل يا حياة ؟ "

ظللتُ أنظر إليه ببلاهة، فأنا ما زلتُ لا أستوعب أنه يقفُ أمامي الآنَ، يجبُ أن أفكر في إجابةٍ ذكية الآن ؛ فكّري يا (حياةُ) ؛ فكّري

- " كنتُ جائعة "

ارتفع حاجباه في دهشةٍ وهو يُجيب

- " جائعة ؟! "

يجبُ أن أختفيَ الآن ! ما هذا الهراءِ الذي تفوّهتَ بهِ شفاهي الغبية !

- " نعَم، فدخلتُ لعلي أجدُ أيَ شيء يؤكل "

قُلتها ثُمّ وضعتُ كفّي على وجهي من الخجل، فقد تأكد الآن أنني غبية !

- " لقد لطّختِ وجهكِ بيدكِ "

قالها وهو ينظر إليّ ويبتسم ممّا جعلني أحمرُّ خجلًا وأنا أقول

- " لن تستطيعَ التمييز بيني وبين (مديحة) الآن ؛

(مديحة) !

أينَ (مديحة) ؟!"

- " هل كانت معكِ ؟ "

تركتُه وبدأتُ أتحرك بعصبية وأنا أبحثُ عنها بينما وجهتُ أسئلتي للدكتور (مراد) الذي بدأ يتبعني

- " هل رأيتَ أحدًا هنا غيري ؟ "

- " لا، فقط أنتِ "

- " ولم تَرَ رجلًا يقفُ عند الباب ؟ "

- " لا، لقد كنتُ عالقًا من المَركز ورأيتُ الباب مفتوح، لا أعلم لماذا ولكنّني تذكرتُ كلامكِ عن (عم جميل) فعلّتني فُضولي في رؤية المَعرض ولَو لمَرّة "

- " وماذا كنتُ تتوقع أن تَرَى في هذا الخَراب ؟! "

- " لا شيء، ربما أردتُ أن أشاركِ أحد اهتماماتِك ؟! "

إجابته جعلتني أتوقفُ مكاني لأحاول استيعاب الموقف، ماذا قال ؟! هل ما سَمِعته صَحيح؟! تُرى ماذا يقصِد ؟! فمَا قاله للتو قد يكون تصريحًا منه بأنه : مهتم بي!!كانَ توقفي مفاجئ لهُ في الظلام مِمّا جعله يعدل مسار سيرِه فجأةً متعثرًا ببعضِ الركام المتناثر، فسَقطَت نظارتهُ الطبية أسفل مكتبةٍ متهالكة بالكادِ تتكئُ على الحائط

- " إنتظر، سأجلبُها لكَ "

تحسستُ بيدي أسفل المكتبة في الظلام حتى وجدتُها بسبب إنعكاس ضوء شمعة قادمة من أسفل المكتبة عليها، الشمعة ! إنها شمعة (مديحة) !

- " (مديحة)، أنتِ هنا ؟ "

جاءَني الصوت مكتومًا من خلفِ الحائط

- " نعَم، مَن معكِ ؟ "

Visual Watermark

" الدكتور (مراد) معي، كيف عبرت الحائط ؟ "

- " كنت أجري أحاول الإختباء ثم ارتطمتُ بالحائط ففُتح ووجدتُ نفسي خلفه "

بدأ (مراد) : نعم ! (مراد) ! سوف أرفع الألقاب الآن بيني وبين نفسي. بدأ (مراد) في دفع الحائط بقوة فتحرك ببطء كاشفًا ضوء شمعة (مديحة) من خلفه، وعلى ضوئها ظهرت تفاصيل حوائط الغرفة التي لم تمسَّها الحريق. كم هائل من الوثائق الفرعونية مُرتَّبة بعناية يتوسطها خريطةٌ لمصر. لم تكن مصرَ التي نعرفها. كانت مصر أخرى، مصر أكبر، وكان نهرُ النيل يغازلُ الأهرامات الثلاثة بتفريعةٍ منه. لم تكن الخريطةُ هي مركز اهتمامي، بل كانت تلك القطعة الرخامية الحديثة التي تتوسطُ الأرضية. فقد كانت تُناديني إليها. لا ليس مجازًا. فقد كانت تُناديني إليها بالفعل. ففي وسطها كانت منقوشة كلمة واحدة ومنتهى الدقة.

كانت الكلمة هي ... (حياة)

روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الثاني عشر

توبا

أماليا

المكان .. المتحف المصري الكبير بالجيزة

الزمن .. الآن

- " أم الملكة الزوجة العظيمة للملك "

تمتمتْ بها بنبرة صوتٍ منخفضة وعميقة مثل التسجيلات الصوتية التي تُصطحبُ الأفلامُ الوثائقية، فقط كانَ ينقُصني أن أسمع معَ صوتي بعض الموسيقى التصويرية من النوع الدرامي الساحر لتكتملَ رهبة الموقف، فأنا أقف الآن أمام أكبر بوابات التاريخ، ليس إرتفاعًا و لكن مقامًا و قدرًا !

بوابة إنّ عبرتها لا تغادرُ موقعكَ، بل على العكس، فهيَ مُقترنةٌ تمامَ الاقتران بهويتك، نشأتك، صفاتك ؛ مع عُبورها أنتَ تغادرُ زمنكَ، تذهبُ لمَن هيئوا تلكَ الرقعةَ الخصبةَ من الكوكبِ بعلومهم ودمائهم لتستطيعَ أنتَ أن ترفعَ رأسكَ فخرًا، ويقلبكَ صكَ ملكيتكَ لهذهِ الأرض التي تَخطّوا عليها.. بوابة المتحف المصري الكبير !

- " ماذا قُلتِ يا (ميلا) ؟ "

فاجأني سؤال ابنةِ خالتي (لبنى) فنظرتُ إليها باستنكارٍ يدلُ على احتقارٍ لغبائها مما جعلها تتفادى النظرَ إليّ - فأنا لا امتلك الثبات النفسي الكافي لتحملِ غباء الآخرينَ -

بدأت (لبنى) تتلعثمُ في الكلام وهيَ تعُض بأسنانها على قلمٍ كان في يدها لتقنعني أنّ لديها ولو قدرٍ ضئيل من الذكاء، وهيَ تُكمل

- " نعم، نعم، تذكرت ؛ إنه معنى النقوش الفرعونية التي وجدتيها في شقتكِ القديمة "

استدرتُ لأنظر إليها مباشرةً، فأكمَلَت قائله

- " ونحن هنا الآن لنحاول البحثَ عن أي دليل إضافي بخصوص سبب وجود تلك النقوش في غرفتكِ "

كُنت قد تقمصتُ شخصيةً مُحَقِّقةً جرائم وبدأتُ في الدورانِ حولها وأنا أرمُقها بنظراتٍ النارية الثاقبة، مِمّا جعلها تتلعثم وهيَ تُكمل

- " وأنتِ لم تُصرّحي عن محتوى القطعة التي وجدتيها في أرضية غرفتكِ لأي أحد، حتى لأد..... "

- " (أدهم) "

لمْ تُكمل الكلمة لأنني قاطعتُها باسمهِ مما جعلها تصمُت للحظة، ولكن غباءها منعها من الصمتِ طويلاً فأكملت

- " نعم (أدهم)، فأنتِ لم تشاركيه مُحتوى ال .. "

قاطعتُها بأن دفعتُها فجأة بكتفي جانبًا لتَكُفَ عن الحديثِ ثم أشرتُ إليهِ في خلسةٍ

كان يسير نحونا .. لا، لم يكن يسيرُ، كانَ يطفو بسلاسةٍ وخفة فوقَ ذلكَ الممرِ المُوَصّل من بابِ المتحفِ إلينا، كائنٌ ذكوري من النوع المنقرض، ثابت الخُطى، لا يلتفتُ للإناثِ من حولهِ، وكأنهُ يريدُ أن يقنعنيّ أنني أنا فقط ؛ أكفيهُ

ما يؤرّقني هو ؛ أنني بالفعل ؛ بدأتُ أن أقتنع ! كيف يفعلُ ذلك ! .. يا له من وغد !

كانَ قد وصلَ أمامنا بهيئتهِ الجاذبةِ للطفيلياتِ من السائحاتِ الحائماتِ حولنا

- " لقد وجدتُ جناح الملكة "

قالها وهوَ ينظرُ إلى عيني مباشرةً وقد ظهرت على وجههِ ملامحَ الانتصارِ، ولكنها لم تستمر طويلاً، فلم يمُر سوى لحظةٍ قبلَ أن يتدخّل غباء (لبنى) بسؤالٍ ساذج استطاع أن يدمرَ أيّ تواصلٍ إنساني بيننا

- " أي ملكة ؟! "

لَم يُجيبُها أحدٌ مِنّا وتوجهنا إلى بوابةِ المتحف، دقائقٍ معدودة وصلنا خلالها إلى داخلِ بهو المتحفِ المصري الكبير، ذلكَ الصرحِ العملاق الكائنِ بمحيط أهراماتِ الجيزة، كنتُ أقرأ عنهُ أحيانا أثناءَ فترة إنشائه، ولكِنّني لم أتخيل قط أن أقوم بزيارته، ليسَ عدم اكتراثٍ مني، قد يكون الأمر ببساطة أنني معَ الوقتِ - شأني كشأنِ الكثيراتِ من بناتِ جيلي - قد نسيتُ أننا في الأصلِ ننتمي إلى هنا، ليسَ إلى المتحفِ، بل إلى المَلِ ..

- " الملكة، أنتِ تنتمين إليها يا (ميلا) "

قالها (أدهم) مُقاطعًا لأفكاري كعادته

كيف يفعلُ ذلك!

نظر إليّ مبتسمًا وهو يكمل

- " اقتربي "

نظرَت (لبنى) إليّ بابتسامةٍ خبيثة، فهيَ تعلمُ جيدًا أنّ ردّ فعلي سيكونُ عنيفًا، فأنا لا أقبلُ أن يُملي عليّ أحدٌ ما يجبُ وما لا يجبُ عليّ أن أفعل

عقدتُ يدي أمام صدري بما يُفيد أنني لن أتحرك من مكاني

- " مولاتي، ألا تريدين زيارة ثروانتِ ؟! "

قالها (أدهم) وهوَ يتحركُ بحركة نصف دائرية رشيقة ليسيرَ بعضَ الخطواتِ للخلفِ مبتعدًا عنّي واضعًا يدَهُ في جيبهِ بأسلوبٍ أنيق للغاية

ما هذا !! كيفَ تُسوّل له نفسُه أن يحاول استدراجي هكذا لأتبعهُ ! ليستْ رشاقةُ حركتهِ التي أتعجبُ لها، بل رشاقةُ عقلهِ ! فقبلَ أن يستديرَ مرةً أخرى ويتوغلُ داخلَ أحدِ أجنحةِ المتحفِ ؛ كنتُ قد بدأتُ في التحركِ خلفهُ بالفعلِ !

ظللتُ أتعجبُ وأنا انظرُ إليه بعدَ أن أدارَ ظهرهُ لي وبدأ يبتعد، كيفَ استطاعَ في لحظة أن يُدمرَ دِفاعاتي التي قُمتُ ببنائها لسنوات تحسبًا لظهورِ أي

Visual Watermark

كائنٍ ذكوري في حياتي، كيف يجعلني أتحول في مشاعري معه بسلاسة، أراهُ يسيرُ أمامي وأشعرُ بالغضب تجاه نفسي لأنني أسيرُ خلفه، ولكنني وبكل أسفٍ

أبتسم !

كيف يفعلُ ذلك ؟! يا له من وغد !

ظللتُ أتابعهُ وهوَ يتوغلُ داخل جناح مقتنيات مقبرة الملكة حتى وصل إلى لافتة كبيرة تتوسطُ الجدار الرخامي الأنيق مكتوبٌ عليها (مقتنياتُ الملكة (تي)

- " أقال ثروانك ؟! "

قالتها (لبنى) بصوتٍ عالٍ لتسقطني من سماء أفكاري إلى أرضِ غبائها، نظرتُ إليها لأجدها تأكل - أيًا كانَ ما تُخرجهُ من حقيبتها في الخفاء - وهي تنتظرُ مني إجابةً على سؤالها، كانتْ تحاولُ إخفاء حركة فمها وهوَ يطحنُ ما تبقى بداخله، فتحوّل خبثُها المزعوم إلى نظراتٍ ساذجة أحدّت ثرثرتي بها، فسألتها

- " لا أعلمُ كيف يتحملك ؟ "

ارتفعَ حاجباها بما يوحي بمزيدٍ من الغباء وهيَ تُجيب

- " مَن ؟ (أدهم) ؟ ولمَ يتحملني ؟ فهو لا يعرفني وليس .. "

- " بالقطعِ ليس (أدهم) ؛ بل زوجكِ، كيفَ يتحمّلكِ يا (لبنى) ؟ "

قُلتها وأنا أنقدُ مقتنياتُ المقبرة بعنايةٍ بينما هيَ تأكلُ وتجيبني

- " زوجي يُحبني ولا يستطيعُ الاستغناء عنّي "

- " أليس هو مَن أجبركِ على مُلازمتي طوال الوقت ؟! "

- " نعم، هو "

- " وذلك لم يلفت انتباهكِ إلى شيء ! "

تسمّرَت في مكانها لبدأ مُخها الضئيل في معالجةِ ما قلتُ، لعلها تستنتجُ بمفردها خطةُ زوجها في الهروبِ منها لبعضِ الوقت، تركتُها لاستمر في البحثِ عمّا يربُطني بهذا المكان، فكانَ ما وجدتهُ مُخبأً في أرضيةِ غرفتي القديمةِ كفيلاً لاستمرّ في نبشِ ذكرياتِ الماضي

صندوقٌ أثريٌ احتفَظَت بهِ أمي لسنواتٍ في الخفاءِ منقوشٍ عليهِ بالهيروغليفية " أم الملكة الزوجةُ العظيمةُ للملك "، ببعضِ البحثِ البسيطِ توصلتُ إلى أنّ هذا اللقبَ كانَ الوصفُ المحببُ لـ(تويا)، أمّ الملكةُ (تي) التي هيَ بدورها أم (أخناتون) وجدةُ (توت عنخ آمون)

يالها من عائلة ! يا لهنّ من نساءٍ ؛ حكمنَ فخلّدَت أرواحهُنّ، تُرى إن كانت (تويا) تعيشُ بيننا الآن، هل كانت ستقبلُ ما آلَ إليهِ حالُ نساءِ اليوم ؟!

فلا أعتقدُ أنّ الملكةَ (تي) أخذت إبنها (إمنحوتب الرابع) وزوجها (إمنحوتب الثالث) ليطلبوا يد (نفرتيتي) من أهلها، التي بدورها دخلت عليهم بهوّ صالونِ الأعمدة بيدٍ مرتعشة من الخجلِ لتُقدِم لهم شربات زهرة اللوتس

أو أنّ (نفرتيتي) علِمَت أنها إن تأخرت في الزواجِ ستنظر لها المجتمعُ الفرعونيّ بصورةٍ غير لائقة، مما دفعها للزواجِ بأولِ ملك تقدّم معَ أسرتهِ لخطبتها

ماذا استفدتُ من اسمي سوىَ انتسابي للأسرة الملكية لفظًا وليسَ فعلاً، فأنا - وإن كانَ اسمي يشيرُ إلى أنني (حفيدةُ ملك) - لم أشعرْ قط بسموِ شأنِ كامرأةٍ في الوسطِ المحيطِ بي !

استطاعَ " كائنُ الذكر " بدهاءٍ أن يغزوَ حياةَ المرأةِ ويُسقطها - من منصبها كملكةٍ حاكمةٍ لقصرِ معيشتهم - إلى كائنٍ مُتملقٍ ومُتسلقٍ لنجاحه، استطاعَ أن يُقنعها أنها ليست كافية بذاتها، أنها لن تتقدمَ خطوة أو تنجح إلا عن طريقِ الارتباطِ به

لذا، قررنا نحنُ، (أماليا)، حفيدةُ الملوكِ، أنّ أستعيدَ مكانة المرأةِ المصرية ؛ الفرعونيةِ والعصرية، وألا أعدِلَ عن قراري هذا أيًا كانت المُغريات.. المُغريات، كانَ لهذهِ الكلمةِ تأثير ضعيف للغايةِ فيما مضى، لأكن صريحةً، لا أعتقدُ أنني وُضعتُ في اختبارٍ كهذا من قبل، أو بمعنى أصحّ، لا أعتقدُ أنني واجهتُ مُغرياتٍ تُذكر قبلَ ظهورِ هذا الكائنِ الذكوري الأدهمي في حياتي، كانَ (أدهم) يتفقدُ العجلةَ الحربية المعروضةَ من ضمنِ مُقتنيات (يويا) زوج (تويا)، أراهُ يتحركُ حولها ولا أستطيعُ القولَ سوى أنها - معَ الأسفِ - تليقُ بهِ ! فحركتهُ الرشيقةُ الملفتةُ لأعينِ السائحاتِ كفيلةٌ برفعِ تقييمهِ من رجلٍ إلى مقاتل !

- " مولاتي "

كلمة قالها (أدهم) بهدوء وهو ينظر إليّ

يا لها من كلمة !

أسمعها منهُ وأنا أفترضُ أنهُ نوعٌ من المديحِ الصادرِ من مُقاتلٍ مصري قديم إلى ملكتهِ، أعلمُ جيدًا أنهُ يحاولُ مُغازلتي، أنّ يستميلَ قلبي إليهِ، ولكنني لن أقرّ بأنهُ غزل، فالغزلُ الراقي قد ينبتُ لديّ قلب ! ويجبُ أن أظلّ كما أنا، بلا قلبٍ ..

- " قلبٌ حجريٌ "

قالها ببساطةٍ وهوَ ينظرُ خلفي في حين اتّسعَت عيناي من الذهولِ وأنا أسألهُ بصوتٍ مرتعش

- " ماذا تقصد ؟! "

التفَتَ إليّ مبتسمًا ثمّ اقتربَ منّي قليلًا بينما كتمتُ أنفاسي لعلي أستطيعُ إخفاء صوتِ ضرباتِ قلبي المتسارعة

- " أرى خلفكِ قلبٌ حجريٌ من مُقتنياتِ (تويا) "

قالها ثمّ أمسكَ يدي برفقٍ وجعلني أدورُ حول نفسي برشاقةٍ كراقصات الباليه، نصفُ دورةٍ جعلتني أواجهُ حائطَ المعروضاتِ الذي يحتوي على بعضِ مقتنياتِ المقبرة

رفٌ كاملٌ من الصناديقِ الخشبيةِ القديمةِ المطعمةِ بالذهبِ والعاج

Visual Watermark

وها هو أمامي .. قلبٌ حجريٌ !

ليس تعبيراً مجازياً، بل حقيقي، فأمامي صندوقٍ مفتوح مشابه للصندوق الذي سُرق من شقتي القديمة، وبداخله قطعةٌ من الجرانيت الأحمر مصقولةٌ على شكلِ قلبٍ وعليها نقشٌ لوجهٍ غير معلوم

أتذكرُ تلك اللحظة التي وجدتُ بها اللفافةُ المخبأةُ في أرضية غرفتي، لم أكُن أعلمُ حينها لم تكبدت أمي كل هذا العناء لإخفائها ! ولماذا قد يكونُ هذا الصندوق محطُ اهتمام شخصٍ لدرجة أن يُخطط لسرقته !

ظننتُ في بادئ الأمر أنَّ تلك السرقة كانت بغرضٍ مادي، فسرقةُ صندوقٍ أثري كهذا قد تُدرُ الكثير من المال لسارقه، ولكنني بدأتُ في استيعاب بعض الأمور الآن . فمن المؤكد أن ما وجدته في أرضية غرفتي على ارتباطٍ وثيقٍ ومباشر بهذا القلب الذي أمامي، كانت بردية ملفوفة ومُخبأة مكتوبٍ عليها جُملة باللغة الهيروغليفية وعليها إمضاء مرسوم بعناية

- " إنها هي يا (أدهم). أنظر إلى الإمضاء "

قُلتها وأنا أسحبُ البردية من حقيبتي لأعطيها لـ(أدهم) الذي أخذ يدرس مُحتواها في جلسة ثم نظر إليَّ قائلاً

- " بالفعل، فالوجهُ المحفور على القلبِ هوَ نفسُ الوجهِ المرسوم أسفل البردية "

- " ماذا إن قُلتُ لك أن هذهِ الجملة تقولُ ببساطة (المرأةُ ذاتُ القلبِ السعيد تَجلبُ التوازنَ)"

اتَّسعَت عيناهُ في دهشةٍ، يبدو أنني نجحتُ أخيراً في إبهاره ! فالجملةُ تتحدثُ عن قلبِ المرأة، والبردية عليها وجهُ امرأةٍ، والقلبُ أمامنا وعليه نفسُ الوجهِ ! لن يستطيعَ التَّغلُّبُ عَلَى الآنَ

نَظر إليَّ ووجهه يكاد يضيء من الحماس قائلاً

- " هذهِ الجملةِ هيَ إحدى تعاليمِ الحكيمِ المصري (بتاح حتب) ! "

قالها ببساطةٍ مُتناهية ليُخرِس عقلي، قالها بسهولةٍ وكأنَ تعاليم (بتاح حتب) تُراعُ يوميًا في الراديو قبلَ النوم، تبدَّلت ملامحُ وجهي من زهو النصر إلى الذهول، فما كانَ صعبٌ عليَّ فعلهِ، كانَ تحقيقهُ بسلاسةِ شربِ الماءِ بالنسبةِ لهُ !

كيف يفعلُ ذلك .. يا لهُ مِن وغد !

- " أتعتقدينَ أنهم سيسمحونَ لنا بفحصِ ذلك القلبِ، أم سيتعاملونَ معهُ كما تتعاملينَ أنتِ مع قلبكِ ؟"

قالها (أدهم) وهوَ ينظرُ إليَّ مُباشَرَةً مِمَّا جعلني أرتبكُ للحظةٍ قبلَ أن أجيبهُ بأسلوبٍ رسمي

- " أعتقدُ أنكَ يجبُ أن تكونَ لديكَ المؤهلاتُ التي تمكنكَ من الحصولِ على التصاريحِ اللازمةِ لفحصِ قلبي، أمَّا إن لم تكن لديكَ، حينها سيتوجبُ عليكَ - إنْ أردتَ الحصولَ عليهِ ؛ أن تسرقهُ "

- " فلنَسرقهُ إذن "

قالتها (لبنى) وهيَ تربطُ شعرها المُتناثرَ خلفَ رأسها ؛ أما عن بقايا الطعامِ المطحونِ داخلَ فمِهَا فهو يحاولُ الهروبَ إلى جوفها من تلكَ الحربِ الدائرةِ بين ضُروسها

نظرتُ إليها أنا و(أدهم) مَعًا، ثُمَّ عُدنَا لتَلتَقِي أعيُنُنَا اللامعة ! فعلىَ الرغمِ مِن غبائِهِ (لبنى) الدائم، وعلىَ الرغمِ مِن سذاجَةِ الفكرة ؛ إلا أننا ولأولِ مرةٍ قررنا أن نخرُجَ عن المنطقِ وأن نجعلَ سذاجةُ (لبنى) مذهَبنا في إيجادِ حلٍ

فلتكُن هذه الليلة ..

هيَ ليلةُ سرقة أكبرِ متاحفِ التاريخِ في العالمِ

سرقة قلب (توبا) ..

مِن المتحفِ المصري الكبير !

Visual Watermark

جميلة

المكان .. قصر (الأصلية) بطيبة

الزمن .. الآن

- " لنسكنوا جيدًا !"

صاحَ بها سائقُ السيارةِ وهوَ يناورُ بعنفٍ في تلكَ الطُرقاتِ الرمليةِ الغيرُ ممهدةِ، كانت إطاراتُ السيارةِ تدفعُ غُبارَ الطريقِ من تحتها كأنها تحاولُ أن تبنيَ بهِ جدارٌ يفصلُ بيننا وبينَ السيارةِ التي تُلاحقنا !

حاولتُ التشبثَ بأي شيء وأنا أرى (مأمون) أمامي يجلسُ بجانبِ السائقِ ويتلفتُ حولهُ في توترٍ بالغٍ، كانَ يصيحُ في سائقِ السيارةِ ولكنني لم أكن أسمعُ منهُ شيئًا ! كنت أسمعُ فراغٌ، فقط فراغ : مثلُ ذلكَ الصوتِ الفارغِ الذي نسمعهُ عندما نُحكمُ إغلاقَ آذانِنا بأيدينا، فلا نسمعُ حينها شيئًا سوى الفراغِ المُحيطِ بصوتِ دقاتِ قُلوبنا فقط !

كنت أرى فمهُ يتحركُ بعصبيةٍ وتفاصيلِ وجههِ وهيَ تتحولُ من (مأمون) إلى (محمود) للحظةٍ، ثمَ تعودُ ملامحهُ لتتغيرَ فأرى وجهَ والدي بدلاً من وجههِ وهوَ يصيحُ في سائقِ السيارةِ التي تُصارعُ عقباتِ الطريقِ في سُرعةٍ وعُنفٍ معًا، لم يكن الأمر منطقيًا ! وأصبحَ أكثرُ غرابةٍ حينَ نظرَ إليَّ والدي بهدوءٍ وهوَ يقول

- " الآن يا جميلة، احترسي "

لم أسمعها ولكنّني قرأتُها من حركةِ شفتيه، قالها في اللحظةِ التي أمسكَ شَخصٌ ما بيدي فجأةٍ مِمّا جعلني أنظرُ إلى جانبي بذُعرٍ لأجدها (الأصلية) !

أحكَمَت شدةُ قبضتها على يدي وهيَ تنظرُ إليَّ في نفسِ اللحظةِ التي ارتجت فيها السيارةُ بمنتهى العنفِ مصحوبةً بصوتِ انفجارٍ هائلٍ أخرجني من حالةِ الصمتِ التي كانت تُلازمني قبلَ أن تنقلبَ على جانبها ويتفتتُ زجاجها ليتطايرَ كسربِ نحلٍ هائجٍ في جميعِ الأنحاء.. ثمّ هدأ كل شيء !

للحظةٍ فقط، هدأ كلُ شيءٍ، ظللتُ أنظرُ إلى والدي الجالسِ أمامي غائبٌ عن الوعيِ لا يحكمهُ شيءٌ يمنعُ سقوطهُ على سائقِ السيارةِ سوى حزامِ أمانِ السيارةِ المشدودِ حوله، كانَ يبدو أصغرَ سنًا عن عهدي بهِ، حاولتُ أن أمدَ يدي إليهِ لأوقظهُ ولكنني لم أكن بالسرعةِ الكافيةِ، فبمُجردِ أن حركت يدي تجاههِ زَجَ جسدي صوتُ انفجارٍ آخر، ثمّ هدأ، ثمّ تلاهُ آخر، ثمّ هدأ، ثمّ آخر، ثمّ صوتُ طرقٍ، طرقٌ متواصل !

طرقٌ متواصل على بابِ غرفتي جعلني أنتَفِضُ من هذا الكابوس، ظللتُ أحدقُ في سقفِ الغرفةِ للحظاتٍ استرجعتُ خلالها بعضَ مجرياتِ الأحداثِ الماضيةِ، لم أكن قد تجاوزتُ بعدَ تلكَ المغامرةِ المُرعبةِ التي عشتها عندَ وصولي إلى الأقصر، فمازالَ صوتُ الانفجارِ يُعيدُ نفسهُ بداخلي مرارًا وتكرارًا

أظلُ أتساءلُ ماذا لو كانت سيارتي هيَ التي تمّ استهدافها بدلًا من سيارةِ تلكَ المرأةِ الغامضة، لم يكن سيفصلُ بيني وبينَ الموتِ سوى مسافةٍ لا تتجاوزُ بضعةَ أمتارٍ !

هل أخطأوا ؟ أم كانت (الأصلية) هي المُستهدفة بالفعل ؟!

عادَ الطرقُ المستمرُ بشدةٍ مِمّا جعلني أهرعُ إلى بابِ الغرفةِ لأفتحه، كانَ (مأمون) يهمُ بالطرقِ مرةً أخرى، ولكنهُ تراجعَ عندَ رؤيتي

- " هيا بنا، فالجميعُ في انتظارك ! "

قالها ثمّ تركني أقفُ أمامَ بابِ الغرفةِ في حيرةٍ، ولكنّ حيرتي لم تدومَ طويلاً، فبمُجردِ أن إختفى بآخرِ الممرِ بدأت أصواتٌ كثيرةٌ في التصاعدِ من بهوِ القصر، أصواتٌ لا ترتدُ عن الجدرانِ، بل تلتصقُ بها، أصواتٌ تزحفُ على الحوائطِ لا تريدُ أن تفضحَ نوايا أصحابها، فلا يصلني منها سوى ما تبقى من همساتهم، كالثعابينِ تركّت جُلودها بالأسفلِ لتصلَ إليَّ في ثوبٍ مختلف، وخبيث !

أغلقتُ البابَ في هدوءٍ وبدأتُ في النزولِ إلى البهوِ بحذرٍ، كنت كُلما اقتربَ منهم يخفضونَ أصواتهم بالتدريج، تبتسمَ شفاههم ولكنهم لا يُوَجِّهُون إليَّ أي كلمةٍ، وكأنهم مأمورونَ بعدمِ التحدثِ معي!

" مرحبًا بإبنه (المُهاجر) "

قالها أحدُ الحضورِ بصوتٍ هادئٍ وهوَ يتقدمُ نحوي حاملاً كأس غيرِ شفافٍ يخفي ما يحتويهِ، كانَ يشبهُ (مأمونَ) إلى حدٍ كبيرٍ على الرغمِ من ضآلةِ حجمهِ وشحوبِ وجهه

التفتُ إليهِ وملامحي تنمُ عن كمٍ لا قدرَ له من التساؤلاتِ، فأكمل

- " أعلمُ أنكِ لديكِ العديدَ من التساؤلاتِ، ولكنّ حادثَ استهدافِ (الأصلية) - رحمها اللهُ - قد أعاقَ الخططَ التي كانت سَتُنَفَّذ فورَ وصولك"

ظللتُ أحدقُ إلى وجههِ الشاحبِ دونَ إجابةٍ مِمّا جعله يستطرد

- " أعذري قلةَ خبرتي، فأنا لا أجدُ نفسي كثيرًا في هذا الموقف "

تعجّبتُ لقولهِ فسألتهُ

- " أي موقفٍ ؟! "

- " أن أكونَ في حَضرَةِ إمرأةٍ إن وصِفَت بإسمها، ظُلِمت ؛ فهي تفوق إسمها جمالًا !"

لم أتوقع قولهُ، ولكنّني ابتسمتُ كنوعٍ من المجاملةِ في حينِ أكملَ هوَ

- " اسمحي لي أن أُقدّمَ لكِ نفسي ؛ (وجيه)، أهمّ أعمدةِ العائلة "

قالها وهوَ ينحني في وقارٍ ليُقَبّلَ يدي، شعرتُ حينها بتلكَ الهالةِ القاتمةِ التي تحيطُ بهِ، هالةٌ من التَمَلُّقِ والسعيِ لكسبِ السلطةِ والنفوذِ ولكن، ما الذي قد يجنيهُ من هذا الأسلوبِ معي ؟ فليسَ لديّ أيُ شيءٍ أمنحهُ إياهُ !

ابتسمتُ اليه بملامحٍ مصطنعةٍ قائلة

- " أشكرك على مجاملتك، أتسمح لي أن أسألك شيء ؟ "

- " إن استطعتُ أن أكونَ مفيد لكِ بأي صورةٍ فبكلِ تأكيد، تفضلي "

Visual Watermark

- " مَن هو المُهاجر ؟! "

ضيّق عيناه وصمتَ للحظة قبل أن يُجيب

- " أحاول التمييز إن كنتِ مازحين أم لا "

عقدتُ حاجبيّ وأنا أجيبهُ

- " لا أعتقدُ أننا أصدقاء حتى أبدأ كلامي بالمزاح معك ! "

- " أعتذرُ لكِ، فسؤالك غير متوقع، ليس بالنسبة لي فقط، أعتقدُ أن جميع الحضور سوف يشاركونني شعوري بالمفاجأة إن سمعوا سؤالك "

- " قولك هذا يصلُ بنا إلى سؤالي التالي، مَن هؤلاء ؟ "

ابتسمَ متعمدًا إظهارَ مظاهرِ الخبثِ في إجابةِ السؤالِ، ثُمّ قال

- " حسنًا، لنعودَ لسؤالكِ الأول، فأنا أعشقُ النظام "

قالها بزهوٍ وتعالٍ في حين لم يجد مني رد الفعلِ الذي كانَ يرجوهُ، فأكملَ قائلاً

- " (المُهاجر) هوَ أصلُ كلِ شيء، والدكِ هوَ السببُ في حشدنا، بعدَ أن كُنا مُشتتينَ في أرجاءِ مصر، هوَ من جعلنا نتوحدُ ونجتمعُ بعد أعوام كثيرة من الفُرقة "

لم أتوقع إجابتهُ مطلقًا، ولكنني لم أُظهر دهشتي حتى لا أُشتتُ انتباهه عن إجابته

- " كانَ من المُفترض أن تشرحَ لكِ (الأصلية) كلَ شيءٍ ولكنهم لم يتركوا لها الفرصة "

- " مَن (الأصلية) ومَن (هم) ؟! "

كادَ (وجيه) أن يجيبَ، ولكنهُ فضّلَ الصمتَ وظلّ يُحدّقُ إلى شخصٍ ما قادم من خلفي

- " أرى أنكِ قد تعرفتِ على أهمِ أعمدةِ العائلةِ يا (جميلة)"

قالتها (أمينة) بنبرةٍ هادئة وهيَ تقتربُ مِني، وضعَت يدها على كتفي في حين أجابها (وجيه) بنبرةٍ متوترة تُعلّقُها ثقة زائفة

- " إن كنتِ أنا أهمَ أعمدةِ العائلة، فأنتِ الأساسُ العميق لها يا (أمينة)"

قالها ثُمّ نظر إليّ قائلًا

- " سوف آذنُ لنفسي بالانصراف، فإن حضرَت الملائكةُ ذهَبَت الشياطينَ كما يقولون "

نظرَت إليه (أمينة) بحدة في حين احتنى هوَ ليُقبّلَ يدي مرةً أخرى قبلَ أن ينسحبَ متراجعًا إلى الخلفِ ويتركنا بهدوءٍ

- " لا تعيريه اهتمامكِ يا عزيزتي، لا أعلمُ لماذا تحبُ (الأصلية) الإيقاعَ عليهِ في العائلةِ من الأساس ! "

قالتها وهيَ تتابعهُ يبتعدُ ليذوبَ بينَ المدعوين، ثُمّ أمسكتني برفقٍ من أسفلَ ذراعي واستدارت بي لأواجه العددَ الأكبرَ من الحضورِ لتهمسَ في أذني قائلة

- " لقد حضَرُوا جميعًا فورَ علمِهم بوصُولكِ "

نظرتُ إليهم لأجدَ أنظارَهُم جميعًا تتوَجّهُ إليّ، نظراتٌ مُريبةٌ بصنعُها خَليط من المَشاعرِ، تتبَدّلُ مشاعِرُهم فتتغيرُ ملامحُهم مَا بَينَ الغيرةِ والفرحَةِ والنّصر، كانت تلكَ المشاعرِ مقبولةً، ولكن مَا جعلَ جسدي يقشعِرُ هوَ ذلكَ الشُعورِ الخفيُ الّذي كانَ يستترُ خلفَ تلكَ الملامحِ المُتَلَوّنَة، شُعورٌ لم أفهَم كيفَ يتكوّنُ بداخلهم تجَاهي، وكيفَ لا يستطيعُونَ إخفَاؤه رغمَ عدَم مَنطقيّتِه، فمَا كَانُوا يُحَاولونَ إخفائهِ بداخلهم كانَ الشُعُورُ، بالجُوع !

كانُوا جائعينَ ! وكانت أعيُنُهُم تفضحُهم، لَم تكُن بُطونُهم هيَ المُسَبّبَة لهذا الجُوع، بَل كانت عُقولهُم، كانَ فُضولهُم، كانت قُلوبُهم تَتَسارَع لعلّها تستطيعُ اختِصارَ الوَقتِ، في حِينِ حاولتُ أنا إبطَاءَ قلبيَ كَي أُحاولَ الحُصول على الوقتِ الكافي لاستيعابِ مُجرَياتِ الأحداثِ السّريعَةِ من حَولي، كانت (أمينة) تشُقُ طريقنا بَينَ الحُضورِ بسلاسةٍ بالغة دُون أن تُعيقَ تجاذُبهم أطرافَ الحديثِ، كانوا يكتُفُونَ لهَا احترامًا بَالغ، أم هوَ خَوفٌ، لا أدري !

أرَى الكُؤوسَ تتمايَلُ في أيديهم بَينمَا يتبادلُونَ التحيّة معها، كانَ تمَايُلها يتناغمُ مَع المُوسيقَى التي كانت عملاً المكانَ، خليطٌ من النّغماتِ الصّاخبَةِ بالآلاتِ الوتَريّةِ يكادُ يَغلِبُ عليها الطّابعُ الشّعبي.. وفجأة، يدُقُ صوتُ جرَسٍ نُحاسيٌ قديم، ذلكَ كالّذي يُوضَع أعلى الكَنائِس، توَقّفَت المُوسيقَى وصَمتَ الجميع ؛ فأصبحَ المكانُ فجأةٍ بلا أدنَى صَوت !

لَم يدُق الجرسُ للمرّة الثّانية إلّا بَعد انتهاءِ أثرِ الرّنّةِ الأولَى مِن الآذان وتوَقُفِ ارتدادِها عَن الجُدرانِ الرُخاميّةِ للقَصر، ومعَ الدّقّةِ الثّانيةِ للجَرسِ بدأ الجميعُ في التّحرُكِ نحوَ خارجِ القَصر، كانَت حركتُهم مُنظّمَة كحركةِ اليُون مَسلوبونَ العَقل، فلولا أناقة حُلَل الرِجَالِ وجمالُ أزيَاءِ النّسَاءِ لقُلتُ أنّهُم ميليشيَاتٌ يَصطفُونَ للحَربِ، كنتُ أشعرُ أنّي أيضًا مَسلوبَةَ الإرادةِ، لَم تكُن (أمينة) هي مَن سَلَبتني إرَادتي، بَل كانَ فُضولي، فمَع خُروجنا خارجَ القَصرِ رأيتُ الجميعُ يتوجّهُونَ لمبنى آخر بالسّاحَةِ المُلحَقةِ خَلفَ القَصر، كانَ بنائهِ حديث ولكِن مَا أثارَ فُضولي هوَ أنّهُ على الرّغمِ مِن كونهِ بارتفاعِ أربعةِ طوابقَ إلّا أنّهُ لا يُوجدُ بهِ أيّ نافذةٍ على الإطلاقِ، مَبنى ليسَ لهُ سِوَى مَنفَذٍ واحد، هوَ مَدخلُهُ ومَخرَجُهُ معًا، أو هكذا أعتقدُ !

اِصطفَّ الجميعُ أمامَ مدخلِ المبنَى الغريبِ في خُطوطٍ مُتوازيةٍ تاركينَ مَسار بينهم (لأمينة) لتمُرّ بي بهدوء مِن خِلالِهم وصولاً إلى المَدخلِ المُغلَق، خمسَ درجاتٍ صعدناها لنُواجهَ تلكَ البوّابةِ الفُولاذيّةِ المُغلقَةِ أمامَنا، ثُمّ استدارَت (أمينة) وجعلتنَا نُواجهُ الجميعُ، كانَ الصمتُ مازالَ يُسَلسلُ الهواءَ مِن حولنا حتّى خُيّلَ لي أنني أسمعُ صوتُ انعكاسِ ضوءِ القمر عن الكؤوسِ التي بأيديهم، صوتٌ يَقشعِرُ له البَدَن، فكانَ كصليلِ نصلِ خنجرٌ حاد يحاولُ قطعَ لوحٍ زجاجي دونَ جدوى وجاءت رنةُ الجرسِ الثالثة، كانت هذهِ المرة أقربَ بكثير، أتت مباغتةً لنا مِن خلفِ البوابةِ الفولاذيةِ بصوتٍ ارتدّ عن جميعِ الأبنيةِ المحيطةِ وأخذَ يتكررُ داخلَ أجسادنا كثيرًا قبلَ أن يقطعهُ صوتُ صريرِ البابِ الفولاذي وهوَ يُفتحُ، ظهرَ ضوء مِن خلفي وامتدّ ليرسمَ ظلالنا أمامنا، كانَ ضوءً قويّ متراقص جعلني أدركُ أنهُ قادمٌ مِن مصدرٍ ناري، وبالرغمِ مِن تصارعُ كلًا مِن الفضولِ والخوفِ بداخلي إلا أنني لم أجرؤ على الالتفاتِ خلفي لأنظرَ إليهِ !

لا أعلمُ لماذا ولكن على الرغمِ مِن الوجوهِ المُبتسمة التي لم تكُف عن متابعتي شعرتُ بعدمِ الارتياح .. بدأتُ أرى بعضَ الظلالِ تتزايدُ مِن خلفي، ظلالُ أشخاصٍ تقتربُ، كنتُ أشعرُ بهم ولكن معَ صوتِ الرياحِ الليليةِ الباردةِ كانَ يصعبُ تمييز أصواتِ خُطواتهم، فلم أتبيّن وصول (مأمون) بجواري سوى عندما همسَ إليّ

- " أنتِ بين عائلتكِ "

Visual Watermark

نظرتُ إليه والتوتر قد طغى على ملامحي وأنا أقولُ

- " ما الذي يحدثُ ؟! مَن هؤلاء، وما هذا المكان ؟! "

اقتربت (أمينة) لتقف بيني وبينَ الحُضور وهيَ تقولُ

- " هذا إرثكِ من والدكِ، هوَ مَن أسسَ هذا المكان، أنظُري خلفكِ يا (جميلة) "

استدرتُ سريعًا، فقد كان فضولُ الباحثةِ بداخلي يتغذى على ما تبقى لديّ من طاقةٍ، كانَ يكفيهُ دفعةً بسيطةً لينقلبَ على خوفي ويتحكمَ في جسدي فوجدت نفسي في لحظةٍ أعبرُ من خلالِ البابِ الفولاذي إلى داخلِ المبنى المُريب.. كيف ذلك ! إنه .. مَعبد !

أنا أقفُ فيما تبقى من معبدٍ فرعوني، أرى أنهُ تمَ ترميمُ ما أمكنَ منهُ وإضاءتهِ بالكامل بالمشاعلِ النارية، فضوءُ النهارِ بالكادِ يصلُ إليه، بتوسطِ المعبدِ ممرٌ حجري مصقولٌ يؤدي إلى جدارٍ عليهِ نقوشٌ باللغةِ الهيروغليفية، لَم يكن المَغزى من وجودِ المبنى الخارجي سوى إخفاءِ المعبدِ بداخلهِ !

تُرى مَن هؤلاء الذين لديهم هذا الكمِ من الموارد اللازمة لإخفاءِ معبدٍ أثري عن طريقِ وضعهِ بداخلِ صندوقٍ خرسانيٍ ضخم ! كنتُ أعلمُ أنني أسيرُ على قدمي ولكنَ شعوري بالفخرِ جعلني أطفو فوقَ ذلكَ الممرِ بخفةٍ حتى وصلتُ إلى الجدارِ، فما تخطو بهِ أقدامي الآنَ هوَ اكتشافٌ وإنجازٌ حقيقةً أبي

- " إنها قصة ! "

قلتُها وأنا أتحسسُ الجدارَ بلهفةٍ، فجاءني الردُ من (مأمون)

- " قصةُ الأجدادِ، وحربهُم ضدَ الهرطقةِ "

- " أستطيعُ قراءتها، ولَكِنَني لَم أرى شيئًا مماثلاً لها من قبل، هذا ليسَ مَعبَد، فلا يوجدُ ما يشيرُ إلى أيًا من الآلهةِ، وليسَ مقبرةً، فلا أثرَ لأيٍ من الشعائرِ الجنائزية على الجدران ! هذا أقرب لكونهِ مَتحَف روائي، أو.. "

- " مَحكَمة "

قالتها (أمينة) بصوتٍ واضحٍ انعكسَ عن الجدرانِ بقوة

نظرتُ إليها وأنا أُكملُ

- " بالفعل، مَحكَمة، يُبَتُّ فيها بمصيرِ المُهرطِقين و.. "

تنبهتُ إلى شيءٍ فجأةً فقفزتُ نحوَ أحدِ المشاعلِ لألتقطها من على الجدارِ وبدأتُ في توجيهِ إضاءتها إلى الأرضِ أسفلهُ، جثوتُ أنظفُ بقايا الرمالِ المتناثرة لتنكشفَ لي بعضِ الخطوط التي تشيرُ إلى دائرةٍ محفورة في الأرضيةِ الحجرية

أعطيتُ الشعلةُ إلى (أمينة) وَنَفَضْتُ الرمالَ عن محتوى الدائرةِ لأجدَ قصةً قصيرة مسرودة بنقوشٍ عميقة لم يُؤثّرْ بها الزمنُ ..

قصة إمرأةٍ تمتْ مُحاكمتها هنا، وطأت أقدامها حيثُ أقفُ أنا الآنَ، مكانٌ واحد جمعَني بها ولكن بفاصلِ زمني يُقَدّرُ بأربعةِ آلافِ عامٍ !

إمرأة كان الحُب خطيئتها .. صَمَتَت لتحمي مَن عَشِقَ قلبها

هنا حوكِمَت (تويا) وصيفة (نفرتيتي) !

Visual Watermark

الفصل الثالث عشر

آتون

الملكة

المكان .. القصر الملكي بطيبة

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

أرى الشمسَ غاضبةً ؛ تحوّلت ملامحها إلى لونِ الجمرِ الملتهبِ، ذلكَ الجمرُ المستخدمُ في تدفئةِ خلوةِ الملكِ، ملاذهُ الذي ينعمُ فيهِ بالراحةِ الجسديةِ، وحصنهُ الذي يقضي بهِ وقتهُ استعدادًا للحفلِ، تتوارى الشمسُ خلفَ المعابدِ في خببٍ، تُحاولُ الاختباءَ بها لتُقدرِ الوقتَ حتى هبوطِ الليلِ، حينها قد تختلسُ النظرَ إلى مراسمِ الاحتفالِ ليلًا، ولكنَ يقينها أنها لن تستطيعَ الاختباءَ طويلاً يجعلها تشتاطُ غضبًا، ومع غضبها يزدادُ احمرارها وحقدها على ذلكَ القمرِ المُستترِ في الأفقِ، فهيَ الآنَ مُرغمةٌ على مغادرةِ اليومِ، فدَورَ القمرُ قد حانَ ليتوبَ عنها حضورها، أنظرُ إليها تلكَ المهيبةِ وأنا أريدُ أن أصرخَ باسمها قائلهِ : (يا مانحةَ الحياةِ، كم أودُ إخبارك الآنَ بما أخططُ لهُ، ليتني أستطيعُ أن أزيلَ عنكِ غضبكِ، ليتكِ تعلمينَ أنَ بعدَ حفلِ الليلةِ سيتطلعُ لعودتكِ سائرُ الإمبراطوريةِ المصريةِ، فالليلةُ لن تنامَ مصرُ حتى تنعمينَ عليها بعطائكِ مُجدّدًا)

- " ارحلوا "

قالها الملكُ إلى حاشيتهِ بنبرةٍ صارمةٍ فورَ دخولي عليهِ خُلوتهُ ؛ غُرفةٌ مُضاءةٌ بمشعلينَ فقط، ينعكسَ ضوئهما الهزيلِ عن ماءٍ مغطسٍ استحمامٍ في منتصفِ الغرفةِ ليتراقصَ على جدرانها بخِفّةٍ

تنبعثُ مِن الغرفةِ حرارةٌ كامنةٌ مُشبّعَةٌ بروائحِ عطورٍ زيتيةٍ ذكيةٍ منثورةٍ حول أحجارِ الفحمِ الملتهبِ فتملأ الغرفةَ بالأبخرةِ

تابعتُ الجميعَ حتى خرجوا، حينها جاءني صوتهُ مستطردًا

- " الجميلةُ أنتِ "

بحثتُ عنهُ بصعوبةٍ بينَ الأبخرةِ التي بَدأت تتبددُ بعضَ الشيءِ فوجدتهُ جالسًا على مقعدٍ خشبيٍ وهوَ ينظرُ إليّ مُبتسمًا

كانَ نصفُ جسدهِ العاري يتصببُ عرقًا، فبدأ يجففهُ بهدوءٍ وهوَ يكملُ

- " كيفَ تفعلينَ ذلكَ ؟ "

- " أفعلُ ماذا يا مَولاي ؟ "

- " تجعليني أودُ ألا تقعَ عيني على أحدٍ سواكِ "

- " إنَ كنتَ أعلمُ أنَ حضوري سيبعثُ السرورُ في قلبِ مولايَ لكانَ حضوري إلزامًا عَلَيّ "

ارتفعَ حاجباه مُندهشًا وهو يقول

- " إلزامًا ؟! "

- " بكلِ تأكيدٍ يا سيدي "

- " أترينَ نفسكِ مُرغمةً على إسعادي "

اقتربتُ مِن مقعدهِ بخطواتٍ صامتةٍ حتى أصبحتُ أمامهُ مباشرةً

- " لستُ مُرغمةً يا مولايَ، بل مُلزمة "

أمسكَ أطرافَ أصابعي برِفقٍ وهوَ يسألني

- " وهل هناكَ فرقٌ ؟! "

ظللتُ ممسكةً بيَدهِ وأنا أدورُ خلفهُ ثمَ انحنيتُ قليلًا لأهمسَ في أذنهِ قائلهِ

- " الفرقُ هوَ الحبُ يا مولايَ "

إلتفتَ إليّ في مجلسهُ دونَ أن يتحدثَ، فأكملتُ وأنا أتركهُ جالسًا خلفي لأسيرَ نحوَ نافذةِ الغرفةِ المطلةِ على النهرِ العظيمِ

نهضَ مِن مقعدهِ ووقفَ خلفي ليتأملَ روعةَ ورهبةَ المشهدِ، كانت انعكاساتُ ضوءِ القمرِ ترتدُ عن النهرِ لتتجسدَ على جدرانِ المعبدِ، وكأنها ظلالُ ألفَ مقاتلٍ يتولونَ تشييدَ ذلكَ الصرحِ الخالدِ

- " هذا هو الدليلُ يا سيدي "

- " النهر ؟ "

- " بل المعبدُ، معبدُ جدكَ (تحتمس الثالث) "

- " هذا دليلُ القوةِ "

- " بل دليلُ الحُبِ "

دارَ مِن حولي في هدوءٍ ليجلسَ أمامي على النافذةِ ثمَ نظرَ إليّ في صمتٍ للحظاتٍ قبلَ أن يقول

- " كَم أتمنى لو استطعتُ أن أريكِ كم أنتِ جميلةٌ الآن "

نظرتُ إليهِ مُبتسمةً ثمَ قُلت

- " أرى انعكاسَ صوريَ على قطراتِ الماءِ المتشبثةِ بجسدكَ يا سيدي، ولا أعلمُ، هل أغارُ منها ؟، أم أشكرها ! فإن غِرتُ منها لملامستها لكَ سأجففها وإن جَفّفتها زالتَ صوريَ التي تُحصنكَ مِن غزواتِ صاحباتِ المطامعِ في البلاطِ الملكي "

ابتسمَت عيناهُ دليلاً على ابتسامِ قلبهِ، فأكملتُ

Visual Watermark

- " نعم، أغار عليك يا مولاي، ولكن غيرتي ليست من جميلاتِ القصر، بل هي من حبِ الآلهةِ لك "

أثرتْ دهشتهُ، فأمسكَ يدي مجيبًا

- " وكيف تغارينَ منهم وهم من أرسلوك إليّ "

- " بل يحاولونَ إبعادي عنك "

إبعدَا حاجباه دليلًا عن غضبٍ هادئ

- " لمَ تظنين ذلك "

- " أنا لا أظن يا مولاي، أنا ملكة، وزوجة أعظم ملوك الأرض "

اقتربتُ من أذنه لأكمل

- " وأنثى ؛ زوجة أقوى رجالِ الأرضِ وأكثرهم نفوذ "

تركتُ يده لأسير مُبتعدة عنه قائلة

- " وإن قيل أن الأنثى على حق، فالملكة على يقين !"

شعرتُ به يقتربُ من خلفي فاستدرتُ إليه قائلة

- " ألزمتُ أمامكَ بطاعتكَ عندما أحببتك، لم يرغمني أحد، بل ألزمَني قلبي تجاهكَ، بالاستسلام لكَ، بإسعادكَ، ب .. حمايتك "

نظرَ إليّ وقد ظهرَت عليه ملامح الغضبِ فتركتني ليسير نحو النافذة قائلاً

- " حمايتي ؟! "

تابعتهُ وهوَ يستقبلُ انعكاساتِ ماءِ النهر على جبهتهِ لعلّ الماءَ يخمدُ غضبه الظاهرِ على ثنايا وجهه، حين استطردَ

- " ماذا تقصدين ؟! "

اقتربتُ من خلفهِ لأشاركهُ مشهد الرصيفِ النيليِ الملحق بالمعبد حيثُ بدأت تتكدسُ السفنُ الخاصةُ برواد الحفلِ من شتى بقاع الإمبراطورية

- " مولايَ، لا خجلَ بيننا، أعلمُ أنكَ يضيقُ صدركَ بما يدورُ من خلفِ ستارِ مسرحِ الحكم "

- " إنهم أذكياء، دينهم هوَ الدهاء، يستترونَ خلف اسم (أمون) كي ينسابَ خلفهم الرَعيّةُ، ولا مكانَ لـ (أمون) سوى في بطونهم التي تَعَفّنَت بقرابينِ الفقراءِ ؛ تلك القرابين التي يأتي بها المساكين من شتى أرجاءِ المملكةِ طمعًا في كرم الآلهة "

- " الإمبراطورية يا مولايَ، لا تُقلِلْ من شأنِ ما ستصلُ إليه "

إلتفتَ ليضعَ النافذةَ بيننا قائلًا

- " كيفَ أحجّمُ سيطرةَ المعبدِ على الرعية "

- " كُن على يقين يا سيدي بأنّ مُنافسينا ليسوا هواةً، فلا يمكنُ لهاوٍ أن يَظلّ مُسيطرًا على مقاليدِ الحكمِ لعدةِ عقودٍ متتالية "

- " وما العملُ إذن ؟ "

- " أتثِقُ بعقلي ؟ "

- " ألم أجعل لكِ مقعدًا دائمٍ في مجلسِ الحربِ ؟! "

- " إذًا فالحل واضح "

قلتُها وأنا أدورُ لأجلس على حافةِ النافذة، فأصبحتُ كلوحةٍ فاتنة، النافذةُ إطارها ؛ والنهرُ خلفيتها، ثمّ أكملتُ

- " رأسُ الأفعى، يجبُ أن نقطعَ رأسَ الأفعى "

- "لا يمكنُ أن أعلنَ الحربَ على كبيرِ الكهنةِ والمعبدِ والرعيةِ من خلفهم"

- " إذا فلتُعلن (الحبُ) يا مولايَ "

تعجبَ لقولي مِمّا جعله يُردد مقولتي قائلًا

- " الحب ؟! "

حانت الحظةُ لسلاحي الأقوى ؛ جاذبيتي، فهيَ تكفلُ لي طريقَ أمن إلى قلبه، نظرتُ إليهِ بابتسامةٍ ليتغزل في شفاهي، فخلعَ عنهُ قناعَ القوةِ، وانكسرت دفاعاتُ عقله، وأصبحَ ملكًا تابعًا لعقلي، فاستطردتُ

- " الرَعيّةُ لا يتبعونَ المعبد، بل يتبعونَ (أمون)، يحبونهُ لأنهُ مانحُ الطعامِ والشرابِ والأمانِ، أما المعبدُ وكبيرُ كهنتهِ ما هم إلا أدواتٌ للتواصلِ بينَ (أمون) ورعيته، ماذا لو فعلت ما لا يمكنُ لأحدٍ من المعبدِ توقعهُ، ماذا لو سحبتُ منهم مصدرِ قوتهم، ماذا لو ..

لم يعُد هناك ..

(أمون) "

اتسعت عيناهُ من الدهشةِ ولكنهُ سرعانَ ما استعادَ رباطةَ جأشهِ وهوَ يجيبني

- " كيفَ تقولينَ ذلكِ بتلكَ البساطةِ، ألا تعلمينَ أنّ غضبَ (أمون) سيمحو أثرنا من الوجود ! "

- " أعلمُ يا مولاي "

قلتُها وأنا أمسكُ بيده ثم أكملتُ

- " ولكنني أعلمُ أيضًا أنكَ إن أعطيت الرَعيّةُ إلاهًا أكثرَ قربا لهم، إلاهًا يبسطُ يديهِ كلَ نهارٍ لهمْ بالرزقِ دونَ وسيطٍ، إلاهًا يحبونهُ لا يخافونهُ، فسوفَ يتوجهُ حبَ الرعيةِ بأكملهِ لمن جعلهمْ أقربُ لإلاههم "

Visual Watermark

- تقصدين الهنهم ! "

- " بل الإلهم يا سيدي، ولم التعدّد وتفرقةُ القوى بين الآلهة طالما نستطيعُ بناء كل شيء من جديد، بل ومباركة الآلهة ! "

نظر إليّ وكأنه يراني لأول مرة قائلا

- " أراكَ على ثقةٍ مما تقولين "

- " بل، على علمٍ، وبحث، وإتقان لفنون الدهاء يا مولاي، كحال الكهنة، ولكن الفرق هو أنك بثقتك بي ..

ستسبقهم دائماً بخطوة "

أخذتْ بيده لينظر إلى السفينة الملكية التي اقتربت لتعبرَ بنا إلى البر الثاني حيثُ المعبدُ الخالد ثم همست في أذنه بهدوء

- " اليوم هو الفاصل يا سيدي .. إما النفوذ المُطلق .. أو العدم "

اقتربت السفينة في صمتٍ، فلولا تناثُر ماء النهر عن مقدمتها لحسبتها تطفو في الهواء من شدة ثباتها، اقتربت لينبح القمرُ بدنها الخشبي المصقول بعناية فائقة، أناره ثم انعكس عن الماء ليشير إلى اسمها الذي بدأ يسطع أكثر فأكثر .. فهناء أمام القصر ..

ترسو الآن في انتظارنا سفينة (كمت) الملكية ..

السفينة (آتون) ..

روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الطفلة

المكان .. العاصمة الفرنسية (باريس)

الزمن .. عام ١٩٩٠

كم أعشقُ تلك اللحظة التي أجلسُ بها في المقعدِ الخلفي لسيارةِ أبي وأتحسسُ بيدي الصغيرة ذلك الجلد القاسي واللامع الذي يُغلّف المقعد، تكمنُ مُتعتي في أن أجثو على ركبتي عكس اتجاهِ الحركة لأتابعَ حركةَ السياراتِ التي تلحقُ بنا.

لا أرى وجهتنا و لكن أشعرُ بالأمان، فرغم أنني أدرتُ ظهري للطريق، ولكنّ الأمان يغمرني، فأنا أعلمُ أنّ أبي يقود، ليسَ السيارة فقط، بل حياتي بأكملها، دونَ تدخلٍ مني في أي من تفاصيلها.

تَوقّفت السيارةُ، تعلّقتْ بيدِ أبي لنزيحَ الثلوجُ الناعمةُ بأقدامنا ونحنُ نتوجهُ إلى أحدِ المقاهي الشهيرةِ بمنطقة (برجِ إيفل)، غمرت مظاهرُ الاحتفالِ كلّ شيءٍ، فاليومَ هوَ رأسُ السنة، كسا الأبيضُ الطرقَ والسياراتِ وواجهاتِ المحلاتِ والمقاهي، لم يسلم منهُ شيء، حتى ملابسِ العابرينَ اكتستْ بالثلجِ القطنيِ الناعم، كلّ شيءٍ تحول إلى الأبيضِ كلّ شيءٍ، عدا ذلكَ الوجهِ الخمريِ ذو الملامحِ العربية : كانت تجلسُ في انتظارنا من خلفِ زجاجِ المقهى، أراها تبتسم ولكنّني لن أبتسمُ لها، فمنذُ ظهورِ (جهادٌ) في حياتنا أصبحَ أبي شديدَ التوتر، أودّ أن تتركَ لي أبي ليعودَ إلى سابقِ عهدهُ معي، تركنا معطفينا عندَ بابِ الدخولِ كما هيَ تقاليدُ المقاهي الراقيةِ في باريس، لم نخطو سوى بضعِ خطواتٍ حتى وجدتْها أمامي جالسةً تنتظرُنا وقد مُدّتْ يدها لأبي لتصافحه مازحةً

- " سبقتكَ هذهِ المرةَ "

نظرَ أبي إليّْ مبتسمًا وهو يُجيب

- " سأتركُ لـ(جميلةَ) حريةَ التبرير، فأنا عن نفسي كنتُ مستعدًا للوصولِ منذ أكثرَ من ساعة"

قرأت (جهاد) تعبيراتِ وجهي المُمتعضة بسهولة، فبالفعلِ أنا حاولت جاهدة أن أطيلَ الوقتَ الذي أقضيه بمفردي مع والدي، فطلبتُ منه أن يتجوّلَ بالسيارةِ في أرجاءِ العاصمةِ بحجةِ أنني أريدُ أن أشاهدَ احتفالاتِ رأسِ السنة، ولكن الحقيقة هي أنني لا أريد لقائها

وجّهتُ نظري إلى أبي وأنا أجذبُ طرفَ قميصهِ لينتبهَ إليّْ

- " أبي، أنا جائعة "

أمسكَ بيدي وجلسَ في مواجهتها في حينِ أجلسني على رأسِ الطاولةِ المربعة لأواجه زجاجَ المقهى فأرى من خلالهِ مشهدٌ (برجِ إيفل) المضيء استعدادًا للحفلِ، مالت (جهاد) نحوَ أبي لتتحدثَ إليه بصوتٍ هامس، ولكنها لم تأخذ في حسبانها أنني الآنَ في أعلى درجاتِ تركيزي كأنثى، وحتى إن لم أكمل العشرةَ أعوامٍ بعد ؛ فلن أُعطي الفرصةَ لأيِ أنثى أيًا كانت في أن تأخذَ مني أبي، بدأتُ أسترقُ السمعَ لما يتهامسانِ به حينَ قالت

- " لقد عرفوا مكاني يا إبراهيم، يجب أن أعود إلى (مصر) "

- " هل جُننتِ ؟! "

- " لا، ولكن ليسَ هناكَ سبيلٌ سوى العودة "

- " وما الضامنُ أنكِ لن يصيبكِ مكروه إن عُدتِ "

صمتت للحظةٍ تسللَ خلالها التوترُ إلى ملامحها، ثمّ أكملت

- " يجبَ أن أظلّ على قيدِ الحياة "

صدمتني إجابتها ولكنّني تمالكتُ نفسي حتى لا يَكُفّا عن الكلام

- " هل ستعودين إلى ابنتكِ ؟ "

ابنتها ! هل لديها ابنةٌ ؟ ترددَ صدى السؤالِ بداخلي حتى خِفت أن يهربَ من بينِ شفاهي فأطبقتُ عليهما جيدًا، وانتظرت الإجابةُ

- " لا، ف (أماليا) لا تعلمُ أنني مازلتُ حيّة، ويجبَ أن يبقى الوضعُ كما هوَ "

- " ولم (مصر)، لماذا تعودين إلى دارِ شرورهم ؟"

- " لأنهم لن يتوقعوا عودتي أبدًا، سيظلونَ يبحثونَ عني في شتى أرجاءِ الكوكب، ولكن لن يصلَ تفكيرهم أبدًا لأنني سأعودُ واختبئ بينهم "

- " وإن كانَ ما تقولينهُ صحيح، ما الضامنُ أنّ مكاني أنا أيضا ليسَ معلومًا لهم ! "

- " لا تقلق، أنتَ و (جميلة) بأمان "

سكتنا ليعلوَ صوتُ الأغاني الفرنسيةِ القديمةِ فوقَ دقاتِ قلبي المتسارعة، نَظَرَت (جهاد) إلى البرجِ المضيء من خلالِ الستارِ الزجاجي بجانبها قرأت انعكاسَ صوتي وأنا انظرُ إليهما في ذهولٍ مما جعلها تلتفتُ نحوي وتبتسمُ، مَدّت يدها لتُمسكَ بيدي التي كانت بدأتْ تتحولُ إلى لوحٍ ثلجٍ تمّ استقطاعهُ من القطبِ الجنوبي، ليسَ بسببِ برودةِ الطقسِ ولكن بسببِ الخوفِ الذي بدأ يشقُ طريقهُ إلى قلبي، فلأولِ مرةٍ أنظرُ إلى أبي وأنا خائفةٌ، ليسَ بسببِ ما قيلَ ولكنّ السببَ أنني شعرتُ للحظةٍ أنني ؛ لا أعرفهُ !.. شعرَ هوَ أيضا بذلك، ممّا جعله ينظرُ إليّْ قائلاً

- " أعلمُ ما يجولُ بخاطركِ يا جميلتي، ولكن أقسمَ لكِ أنّ الحقّ معنا "

ثمّ نظرَ إلى (جهاد) متيحًا لها الفرصةَ لتتحدث، فنَظَرَت إليّْ وهيَ تضغطُ على يدي بحنانٍ ملحوظ قائله

- " (جميلة)، ستُثبتُ لكِ الأيامُ أننا على حقٍ، وستعلمينَ كلّ شيءٍ في حينِه، أعلمُ أنكِ لا تُحبينَ وجودي، وهذا حقك، ولكن قد تكون هذهِ هيَ المرةُ الأخيرةُ التي تَريني بها، فيجبُ أن تعلمي جيدًا أنني أحبكِ كما أحبّ إبنتي التي قد لا أراها مُجَدّدًا قط، سيأتي اليومَ الذي تعلمينَ به أنّ وجودي أمانٌ لكِ، وأنّ رؤيتي مرةً أخرى ستعني سعادةَ قلبكِ، لأنكِ إنْ رأيتني مرةً أخرى ستكونينَ في أمسّ الحاجةِ إلى وجودي بجانبكِ "

ظلّت تنظر إليّْ وقد بدأ شعوري تجاهها يتبدلُ شيئًا فشيءٍ من الغيرةِ إلى الرهبةِ، وجدتُ نفسي أذاكرُ ملامحها التي تبددت في تلاحقِ الإضاءاتُ الساطعةُ من خلفها، إضاءات الألعابِ الناريةِ حول البُرجِ الفرنسي العريق

Visual Watermark

فهناك قد بدأ الإحتفال، أما هنا فقد كبرت مائة عام

في لحظات !

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

كريمة

المكان .. الأقصر (الباخرة النيلية)

الزمن .. الآن

- " أمي .. أنا أخاف السّفن "

قالتها (سارة) وهيَ تعتصرُ يدي من التوتر بينما تمسك باليد الأخرى السور الحديدي للباخرة الذي يطلّ على نهر النيل مباشرة

نظرتُ إليها وأنا أجنُّ على يدها الصغيرة قائلة

- " لا داعي للخوف طالما نحن مَعًا "

تحركت الباخرةُ السياحية التي تقامُ عليها الرحلةُ لتُبحر من أسوان إلى الأقصر، فأخذت تشق مسارها في النهر بهدوء وثبات ليستمتع راكبيها بالمشاهد الخلابة على ضفافِ النيلِ ليلاً، جلسنا أنا و (مريم) و (سارة) على سطح الباخرة مع مجموعةٍ الرحلة، كانَ كلُّ شيءٍ حولنا غاية في الروعة، بدءًا من استقبال أهل النوبة لنا مرورًا بالممراتِ والغرف المزخرفة على الطرازِ النوبيّ ووصولاً إلى سطح الباخرة الذي يمتلئ بالسائحينَ القادمينَ منْ مختلفِ بقاعِ الأرض ليقضوا أسبوعَ بعيدًا عن أجواء بلادهم الباردة.

جلسنا جميعا لننعمَ بسحرِ القمرِ الذي يُناجي النهرَ برفقٍ، مزيجٌ من الشعورِ بالراحةِ والحماسِ معًا كوني أقتربُ شيئًا فشيئًا من عاصمةِ مصرَ القديمةِ كما شرحَ لي (منير)

* " لَم يعُد دكتور (منير) إذًا ! "

قالتها (أنا) بأسلوبٍ ساخر وهيَ تقفُ أمامي لتحجب عني ضوءَ القمرِ مِمّا جعلني أنهضُ من مكاني لأذهبَ واستندَ إلى السورِ الحديدي للباخرة، فاستَطرَدَت بعد أن تَعَمَّدتُ تجاهلها

* " لماذا لا تذهبين وتجلسين مع دكتور المُومياوات ؟ "

نظرتُ إلى حيثُ يجلسُ (منير)، كانَ أنيق، يرتدي الزيَّ الرسمي للنوبةِ ولكن يغلبُ عليهِ الطرازُ المصريُّ القديم، كم يليقُ بهِ ! أودُّ أن أجلسَ معهُ لاستكمالِ حديثنا عن (نفرتيتي) وَلَكِنّني لا أشعرُ بالراحةِ نحوَ تلكَ المرأةِ الملازمةِ لهُ كظلهِ!

* " لماذا لا تعترفين أنكِ تشعرين بالغيرة ! "

نظرتُ إلى (أنا) بحدة لأجدها تجلس على سورِ الباخرة بكلِ جرأةٍ، فأجبتها

- " ولماذا لا تسكتين وتتركيني لشأني ؟! "

* " أنتِ تعلمينَ أنكِ لن تصمدين ساعة في هذا المكان من دوني"

- " أنا لا أحتاج إليكِ، أستطيع التكفل بنفسي وبأسرتي "

* " وماذا عن (هند) مسؤولةُ الفرقةِ، تلكَ التي تتشبثُ بظل (منير) وتلاحقهُ أينما ذهبَ ؟ "

تمالكتُ ملامحَ وجهي كي لا تظهرُ عليهِ مشاعرُ الغيرةِ حينَ أجبتها

- " هي أيضا لا تهمني في شيء "

* " لماذا لا تقولينَ لها ذلكَ بنفسكِ، فهيَ تقفُ خلفكِ مباشرةً "

اتَّسَعَت عيناي من هولِ الصدمةِ وأنا أهمسُ قائلة

- " منذ متى ؟ "

جاءني صوت (هند) من خلفي وهي تقول

- " منذ أن رأيتكِ أولَ مَرّةٍ في الأوبرا"

استدرتُ إليها لأجدَ (أنا) خلفها تسخرُ مِنّي وتتراقص أثناء توجُّهها إلى حيث يجلس (منير) مِمّا جعل الغيظ يتسلل إلى ملامحي وأنا أجيبها

- " كنتِ تريدين أن تتحدثين معي بخصوص (مريم) "

- " بل بخصوصكِ أنتِ "

كانت (أنا) قد وصلت بالفعل وجلست أمام (منير) الذي إنتبه إليّ، فأشار بيده مبتسمًا، مِمّا جعلني ابتسمُ إليه بدوري بابتسامه مُرتعشة

شعَرت (هند) بتواصلي معَ (منير) الجالس خلفها فتحرّكت لتقطع خطَ التواصلِ بيننا وهيَ تنظرُ إلى النيلِ خلفي مُستطرده

- " حسنًا، يبدو أنني سأتكلمُ في صلبِ الموضوعِ دونَ تخفيفٍ "

كانت نبرةُ صوتها جافة، وكأنّ زفيرَ الكلماتِ ينحرُ بجدرانِ حنجرتها ليصقلَ الكراهيةَ التي تتكونُ تجاهي لحظةً تلوَ الأخرى، لم أعلم إن كنتَ أرغبُ في معرفةِ التفاصيلِ أم لا، فنظراتها وأسلوبها لا ينمانِ عن أي خيرٍ، ولكن فضولي جعلني أشتهي المزيد، فسألتها

- " أهو بخصوص دكتور (منير) "

ابتَسَمَت وكأنها كانت تتوقعُ سؤالي

- " نعم، ولا "

- " أنا لا أفهم "

كانت (أنا) قد عادت ووقفت خلفها ثمّ بدأت في الإشارةِ إليّ بأن أقطعَ حديثي معها لأذهبَ وأجلسَ معَ (منير) ولَكِنّني لم أعيرها انتباهي، وظلتُ أنتظر رد (هند) التي قالت

- " أنتِ تعلمينَ أنّ هناكَ حفلةً ستقامُ على سطحِ الباخرةِ في غضونِ الدقائقِ القادمة "

Visual Watermark

- "نعم، وماذا في ذلك ؟"

- " لا يجب أن تحضرين هذا الحفل "

نظرتُ إليها بدهشة في حين نظرت (أنا) إليها بغضب قائلة

" يا لها من حاقدة، إنها تعلمُ جيدًا أنّ (منير) يميل إليك يا (كريمة)"

ظلّت (هند) تنظرُ إليّ لتسمع ردّي، ولكنّني كنتُ قد عجزت عن الرد، فاستطردت دون أن تشعُر أن (أنا) بدأت في الدوران حولها وهي ترمقها بنظرات المحقق التافهة

- " (كريمة)، أرجو أن تتقبلين رفعي للألقاب "

همَسَت (أنا) في أذنها قائلة

" أنا لا أقبل، ولكن أكملي "

- " أعلمُ أنّ طلبي بألا تحضري الحفل يعتبرُ غيرَ مُبرّر، فأنتِ بالكادِ تعرفيني، ولكن ثقي بي، فهذا لمصلحتك ولمصلحةِ البنات "

نظرَت (أنا) إليها باستهزاء، وهي تقول

" أقالت (ثقي بي) ! يا لها من لعوب! "

تجاهلتُ قول (أنا) كي أمالك أعصابي، لن أسمحَ للتوتر بأن يُظلّل وجهي، ولن أُظهر ضعفي أمام (هند)

نظرتُ إليها مجيبه

- " إن شعرتُ للحظة أنّ حضوري لهذا الحفل قد يُعرّضُ مصلحة ابنتايَ للخطرفسأعتذرُ عن حضوره، ولكن لا يوجدُ أيّ سببٍ يمنعني من الحضور سوى قولك الآن، و أنا لا أرى أنّ ذلكَ سببٌ كافٍ "

تَنهّدَت دون إبداء اعتراض، ثمّ استدارت وسارت مبتعدةً وهيَ تقول

- " حسنًا، إن كانَ هذا رأيكِ النهائي، فليكن "

وقفَت (أنا) بجانبي لتتابع (هند) وهيَ تبتعدُ في هدوء، ثم قالت

- " ما الذي حدثَ الآن ؟ ! هل هددتكِ تلكَ المومياء ؟ "

- " تُرى، ماذا كانت تقصد ؟! "

تابعتها حتى اختفت عن سطح الباخرة ثمّ جاءني صوتُ (منير) من خلفي قائلاً

- " ألن تستعدوا للحفل، فالحضورُ يجبُ أن يكونَ بالملابس المصرية القديمة "

وجّهتُ إليهِ إبتسامةً زائفةً أخفيتُ بها توتري وأنا أجيبهُ

- " هل تعتقدُ أنني سأفهم ما تُريده مني (نفرتيتي) ؟ "

- " بالتأكيد، فلا أعتقدُ أنكِ قطعتِ كلّ تلكَ المسافةِ لتقضيَ الوقتَ معي "

قالها ضاحكًا ممّا جعل (أنا) تهمس في أذنهِ بصوتٍ مسموع وهيَ تنظرُ إليّ من خلفِ كتفه

" هائل، ويقرأ الطالعَ أيضا، تزوجيهِ يا كريمةُ، أو أتزوجهُ أنا "

رأني أنظرُ خلفه فالتفتَ ليجد الفراغ ثم عاد لينظرَ إليّ متسائلا

- " أنتِ بخير؟! "

- " نعم، لا تقلقي، ولكن أحتاجُ إلى الراحة، فالرحلةُ كانت مُجهدةً بالفعل"

- " قرارٌ متأخر، لقد بدأ الحفلُ بالفعل، أنظري خلفكِ "

نظرتُ إليهِ بدهشة فأنا لم أسمعْ أيّ مظاهرَ للاحتفالِ مما جعلني أتخلى عن النظر إلى هيئتهِ الجذابة والنيلِ بتلألأ منْ خلفهِ واستدرتُ لأرى ماذا يقصدُ وهنا، انطفأت الأضواء، ولم أجِد أحَد

لا أقصدُ أنني لم أجد الحفل ؛ بل أقصدُ أنني لم أجد أيّ شخصٍ خلفي، فجأة أصبحتُ بمفردي على متنِ باخرةٍ معتمة لا ينيرها سوى ضوء القمرِ الفضي!

استدرتُ مرةً أخرى لأجدَ النيلَ من خلفي وقد اختفت أضواء أعمدةِ إنارةِ الطرق في الضفةِ الشرقيةِ للنيلِ وأستُبدلت بأضواءِ مشاعلَ تتراقصُ معَ النسمةِ الليليةِ الباردة وكانت تلكَ نفسُ البرودةِ التي بدأت تسري داخلَ عروقي، فللمرةِ الأولى منذُ وقتٍ طويل لا أسمعُ سوى الصمتِ وصوتَ حركةَ الماء فقط، فلا وجود لـ (منير)، حتى (أنا) لم يعُد لها أثرٌ مُطلقًا .!

أصواتُ حركةِ أقدامٍ من خلفي جعلتني أدور حول نفسي مُجَدّدًا بُذعرٍ لأجدَ بعضَ الأشخاصِ يرتدونَ الملابس المصريةَ القديمةَ وقد بدءوا في الظهورِ على سطحِ الباخرة، كانَ بعضًا منهم يحملونَ المشاعل ويستخدمونها في إشعالِ المصابيحِ الزيتيةِ المكشوفةِ والمعلقةِ على جدرانِ السفينة!

ومعَ ازديادِ إضاءةِ النيرانِ المتراقصة على الحوائطِ بدأت معالمُ المكانِ تظهرُ تدريجيًّا، هذه ليست نفس الباخرة ! كيف لَم انتبه لذلك! هذه ليست الباخرة السياحية التي نُقام عليها الرحلة! ما الذي يحدُث لي! أنا لا أفهمُ شيئًا!

كان صوت تلاطم ماء النيلِ مع مُقدّمَة السفينةِ واضحًا فوجدتُ نفسي أذهبُ إليه، فهو الصوت الوحيد المنطقي فيما يحدُث لي الآن، أمسكتُ بالسور الخشبي جيدًا، نعم ؛ خشبي، فأنا لم أعُد أجد السور الحديدي بعد الآن.

أغمضتُ عيناي بقوةٍ لعلي أستطيعُ الهروبَ من هذا الكابوس، ولكن فيما يبدو أن الأمرَ سيطولُ فما أن فتحت عيناي حتى تبينت أينَ أنا الآنَ، فعلى طولِ النهرِ أرى مبانٍ حجريةً وطينيةً تتراصّ بنظام، يبرزُ من خلفها ذلكَ المعبدِ الساحر الشاهق في الارتفاع، وقد إنعكسَ عليه ضوء مشاعلِ الميناءِ الخشبي الذي نتوجهُ إليه في تناغمٍ رائع

حشودٌ غفيرةٌ تنتظرُ السفينةَ، بعضهم يظهرُ عليهم من أزيائهم أنهم من الحرس، أما أغلبهم فملابسهم تفضح ثرائهم، ملابس بيضاءٍ وسوداء مرصعةٍ

Visual Watermark

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

الفصل الرابع عشر

لم تتركني أكمل سؤالي وضغطت على زر التوصيل، ومع ضغطتها حدثت شرارةٌ صغيرة بطرف القلم الملاصق للزجاج مما جعلهُ يتفتتُ إلى قطعٍ صغيرة للغاية، والأهمّ أنّ ما حدثَ كانَ دونَ أدنى صوتٍ !! أخذت تدفعُ قطع الزجاج المفتت المواجه للقلب (تويا) فقط حتى لا يسقطُ اللوح الزجاجي بأكمله فينكشفُ أمرنا، ظللتُ أتابعُ ما تفعله في ذهول !

مَن تلك التي تقفُ أمامي !

هذه ليست (لبنى)، ف (لبنى) لا يمكنُ أن تعرف تلك التفاصيل الفنية بمفردها، فما كانت تحملهُ بيدها هوَ إحدى شمعات الاحتراق التي تستخدمُ في محركاتِ السيارات، وما فعلتهُ بالزجاج لا يمكنُ أن تكونَ خططت لهُ بمفردها ! كانت قد التهت فنظرتُ إليّ لأخذ القلب منها، لم يكن الأمر سهلًا، فالتطورُ السريعُ في مستوى ذكاءها أصابني بالشلل الفكري، وكأنها سرقت مني ذكائي وتركتني بلهاء للحظات.

- " ميلا "

أفاقني ندائها فنظرتُ إلى القلب الذي بيدها ثم أخذتُه منها بهدوء مما جعلها تستطرد

- " هيا بنا، فعارسك ينتظرنا عند باب خروج الطوارئ "

أقالت "فارسي"، يبدو أنها جُنّت بالفعل، فأنا ليسَ لديّ فارس !

كنا نتحركُ في الظلام بينَ المعروضاتِ وأنا أعلمُ أنّ القلبَ أرادني أن آخذهُ، لكنّ تأنيبَ الضميرِ كانَ قد بدأ في مهاجمتي، فأنا الآن سارقة ! أشعر أن كل منحوتات الأجداد تنظر إلينا، بل وتلاحقنا بأعينها! أكادُ أجزمُ أنهُ إن دَبّت الحياةُ في تلك المومياواتِ ستلتعننا كما لَعَنَت كلّ سارقي المقابرِ من قبلنا على مر التاريخ

- " لقد كنتِ في حمايةِ أجدادكِ ! "

قالها (أدهم) وهوَ يستقبلنا عندَ بابِ الطوارئ، ولكن لماذا قالَ ذلكَ الآن ؟! بدأ يُهرولُ بجانبي وهوَ يستطردُ

- " لم أظن أبدًا أن أمر السرقة بتلك السلاسة، كنت أعتقدُ أن أبسط ما قد يحدث هو أن تُصاب بلعنة المصريين القدماء ! "

أما زال يقرأ أفكاري ! يا له من وغد !

وصلنا إلى السيارة ففتح لي الباب بحركة تلقائية رائعة ! ماذا أقول ! أقصد راقية ! حركة راقية سخيفة ! بدأ يقودُ بنا مبتعدينَ عن المتحفِ المظلمِ حينَ جاءني صوتُ الجالسةِ في المقعدِ الخلفي قائله

- " (ميلا)، أمعكِ شيء يؤكل ؟ "

ها قد عادت (لبنى) التي أعرفها ..

- " ماذا سنفعل الآن ؟"

قالها (أدهم) متجاهلاً سؤال (لبنى) وهوَ يَصُفُ السيارةَ بجانبِ أحدِ ضفافِ النيلِ بعدَ أن تأكدَ أنّ لا أحد يتبعنا، فتحتُ باب السيارة وترجّلتُ لأتأمل مشهدَ سريانِ النهرِ تحتَ ضوءِ القمرِ مِمّا جعل (أدهم) يتبعني وهو يقول

- " هل فحصتِ القلب ؟ "

- " لا ليس بعد، لا أعلم لماذا ولكنّني أشعر بأنني لن أحب ما سأكتشفه من فحصه "

- " فلنفحصهُ معًا إذا "

قالها وهو يمد يدَه نحوي، ما هذا ! أيريدُ أن يُمسكَ يدي ؟! كيفَ يتجرأ ويظنُ للحظة أنني سأقبلُ بتلكَ المهزلة ! إنّ تأكدتُ أنّ هذا ما يريدهُ لن يسلَمَ من الطلقاتِ المتعددةِ التي تتجمعُ على لساني الآن

فسأ ...

- " ميلا "

قاطعني ندائه فانتبهتُ إليه وهو مازال يمد يده إليّ ويستطردُ

- " هل يمكنكِ إعطائي القلب لفحصه ؟ "

ما هذا ؟ ! إذا فهوَ لم يخطط ليُمسكَ يدي ! كل ما أراده هو ! أن أعطيه قلب (تويا)، فقط ! يا له من وغد !!

اقتربتُ منهُ وهوَ يُقلّبُ ذلكَ القلبِ الجرانيتي الأحمرِ بينَ يديهِ بهدوء، كانَ القلبُ أملسَ للغايةِ، لا تشوبهُ شائبةٌ سوى بقعةٍ صغيرة من الجهةِ الخلفيةِ للقلب، كانت البقعةُ هيَ أيضا على شكلِ قلبٍ صغير

- " ماذا تعتقدُ ؟ هل هذهِ البقعةِ مقصودة ؟ أم أنّ عواملَ الزمنِ قد أثّرت في الجرانيت ؟ "

- " لا أعلمُ ولكن أعتقدُ أنّ هذا دليلٌ على أنّ الزمن يمكنهُ أن يغيرّ ما بالقلبِ حتى وإن كانَ هذا القلبِ من الحجر "

قالها مبتسمًا لأجابةٍ في تلاعبهِ بالكلمات، ولكنّني لن أستسلم ! فأنا كما أنا، ولن يُغيّرَ ما بقلبي شيء، حتى وإن مر عَلَيّ ألف عام

- " وما هذه النقطة المحفورة أسفل البقعة؟ "

قلتها وأنا أتجنبُ النظرَ إلى (أدهم) بصورةٍ مباشرة كي لا تفضحني دقاتُ قلبي المتسارعة

- " هذه ليست بقعة على شكل قلب "

جاءت الجملةُ بصوت (لبني) من خلفنا مصحوبة بصوتِ فكها وهوَ يطحنُ ما تبقى لديها من طعام، فنظرنا إليها متعجبينَ دونَ أي أسئلةٌ مِمّا جعلها تستطردُ ببساطة

- " إنها الفيوم، فالفيومُ في الخريطةِ ترسمُ كقلبٍ في منتصفِ مصرَ "

دَرَسنا البقعة مرةً أخرى قبل أن تتلاقى أعيننا اللامعة وأنا أقولُ

- " إن كان القلب هو الفيوم ..

Visual Watermark

فتلك النقطة المُشار إليها هي .. "

قاطعني (أدهم) قائلًا

- " الأقصر، فلنذهب إلى الأقصر "

كالعادة سرق أفكاري ! ..

يا له من ...

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

جميلة

المكان .. الأقصر

الزمن .. الآن

أهو أسبوعٌ قد مضى ؟! أم هم سبعُ دقائقَ فقط ! توالت على الأيام كلحظاتٍ، لم أدرك منها سوى تلاحق إضاءة الشمس وإنارة القمر، تكدست الأوراق من حولي.. أكتب كل شيء ..أرسم كل شيء ..أحاول إعادةً بعثَ الحياةَ المُستترة في صورة نُقوش على تلك الجدران ..أشعرُ بروح (نويا) تحومُ بكل حجرٍ، وكأنها هي أيضا تُوثّق لحظات انكشاف روايتها و .. تبتسم !

أعلمُ أنها تنظرُ إليّ من عالمها وتبتسم !

- " هل أستطيعُ مقاطعتكِ لحظة ؟ "

كانَ صوتُ (أمينة) مُغَيّرًا وهوَ يرتدُّ عن جدرانِ المحكمةِ الحجرية، التفتُّ إليها دونَ أن أنهض، لا أعلمُ هل هوَ المجهودُ البدني الناتجُ عن تواجدي هنا بصفةٍ شبه مستمرة، أم أنّ أرضَ الأجدادِ هيَ التي لا تريدُ أن تتركني وتتشبثُ بي، فبعدَ أربعةِ آلافِ عامٍ مِن العزلةِ أصبحتُ أنا ملاذها الوحيدُ كي تروي أسرارها

- " بكلِ تأكيد، أنا معكِ "

قلتُها وأنا أتابعُها وهيَ تتعجبُ من هذا الكمِ الهائلِ مِن الوثائقِ وَالْمُلْخَصات المبعثرةِ حولي، ثمّ تجاوزتني لتتجهَ إلى منتصفِ القاعةِ قائلة

- " أرى أنكِ لا تُضيعين وقتكِ، هل توصلتِ لجديد ؟ "

- " أحاول توثيق كل شيء، ولكن هناك بعضَ النقاطِ الغيرِ مُتّصلة "

- " تقصدينَ أنها طُمِسَت مِن على الجدرانِ بفعلِ الزمن ؟ "

- " لا، على الإطلاقِ، بل على العكس، فكلُ شيءٍ واضح على الجدرانِ، على غيرِ المُتَوَقّع، أعتقدُ أنّ ذلكَ نتيجةٍ لعدمِ وصولِ العواملِ المناخيةِ إليها بصفةٍ مُباشرة "

ثم إبتسمتُ وأنا أكمل

- " لقد قامتْ عائلتكِ بخدمةٍ للتاريخِ بالحفاظِ عليها بداخلِ هذا المبنى المحيط "

التفتَتْ إليّ والابتسامةُ الهادئةُ تكادُ تظهر على شفتيها قائلة

- " كانَ المبنى اقتراحَ والدكِ، خدمةٌ بالفعلِ، ولكنها ليست للتاريخ "

استغربتُ إجابتها ولَكِنّني لم أوَدُّ أن أطيلَ النقاش، فأنا بالكادِ أحاولُ ربطَ الخيوطِ المتقاطعةِ لرواية (نويا) ولا أحتملُ أيَّ مجهود ذهني إضافي، ابتسمتُ لها بإيماءة بسيطة ثَمَّ عن بَيْتي في الاستمرار بالعمل ثم استدرتُ لأواجه الجدار مرة أخرى

- " لنَفسِهِ "

جاءتني الكلمةُ بصوت (مأمون) وهوَ يعبرُ بابَ الدخولِ وخلفه بعض أتباعهِ الذينَ يحملونَ الكشافات الليليةُ ذات المواصفاتِ الخاصةِ التي طلبتُها منهم ، نهضتُ وتوجهتُ إليه لأراجع أنوع الكشافات فإنّ أتوا بطرازاتٍ مخالفة ستسببُ ضررًا للألوانِ الأثريةِ على الجدران، نظر هوَ إلى (أمينة) التي رمقتهُ بنظرةِ نارية ثَمَّ عن غضبها، فتعمدتُ تجاهلَ التوترِ المُسيطرِ عليه وسألتهُ

- " ماذا تقصد بخدمةٍ لنَفسِهِ ؟ "

فعادَ بنظره إلى (أمينة) لتأذنَ لهُ بالتأكيدِ على ما انزلقَ عن لسانهِ رغمًا عنهُ، ثمّ أجاب

- " قصدتُ أنه خدمَ نفسه بإبقاءِ المحكمةِ سليمةً لتستطيعيَ فكّ رموزها، تركها إرثًا لابنتهِ بعدَ أن اضطرّ للرحيل "

انعقدا حاجباي في مزيجٍ مِن الدهشةِ والغضبِ وأنا أتساءل

- " اضطرّ ؟! "

جاءني صوتُ (أمينة) هذهِ المرةَ وهيَ تجيبني

- " لا تشغليَ بالكِ بتلكَ الأمورِ الآن، ما يهمُ هوَ أنكِ هنا لتكمليَ ما بدأهُ هوَ "

نظرتُ إليها وقد بدأ الغضبُ يتَمَلّكني، فها هوَ أسبوعٌ قد مضى ولم يأتِ أحدٌ على ذكرِ الأمانةِ التي تركها والدي (للأصلية)، مِمّا جعلني أجيبها بنوعٍ من الحدةِ

- " أريد الأمانة "

تعَجّبَت (أمينة) لقولي فأجابَت وهي تُربتُ على كتفي برفق

- " وأين نحن الآن ؟! "

- " أدركُ ذلك، ولكن أين حارسِ الأمانة، لقد قالت لي (الأصلية) أنني يجبُ أن اجتمعَ معها وحارسِ الأمانةِ كي أحصلَ عليها، ونظرًا لما حدثَ لها، وانبهاري بهذا الكشفِ الأثري لم أجد الفرصةُ لأسألكِ عن الحارس "

تقَدّم (مأمون) نحوي ببنيانهِ الضخمِ وقد حجبَ ضوءُ القمرِ الذي بدأ يتسللُ إلى داخلِ المحكمة، ثمّ قال

- " أنا الحارس "

كانَ ينظرُ إليّ بثقة، ولَكِنّني لم أكنْ أنظرُ إليه، فمعَ اقترابهُ حجب عن نظري بجسدهِ جزءٌ من جدارِ القاعةِ، مِمّا جعلني أرى رواية (نويا) بمنظورٍ مختلف، فالقصةُ ليست منقوشةً بالتسلسلِ المعتاد ، تركتهما وأعينهم تتشبثُ بي وتوجهتُ نحو جزءٍ قد لفتَ انتباهي بالجدارِ وأنا أقول

- "هذه ليست قصة واحدة، بل قصّتين ! "

Visual Watermark

تبعتني خطوات (أمينة) وهي تسألني بحذر

- " لمن القصتين ؟! "

- " الأولى لـ (نوبا) وهذا واضحٌ بكل النقوش، ولكنني لم أنتبه من قبل لتلك العلامات المتناثرة بين أجزاء القصة الأولى "

جاءني صوت (مأمون) من خلفي قائلاً

- " هذا جديدٌ، هل تستطيعين قراءتها ؟! "

تحسستُ النقوش برفق وبدأتُ تدوينها على قصاصاتٍ ورقية، ثم أخذتُ في إعادة ترتيبها ولكن دون جدوى، شعرتُ أن تلك الرموز دور في إبقاء شيئاً ما خفي في قصة محاكمة (نوبا)، ولكنني لا أعلمُ كيف إذاً تلك الشفرة المعقدة، علامات ليست بكلماتٍ أو حتى رموز من اللغة المصرية القديمة، هي أقربُ لأشكالٍ هندسية، كلُ شكلٍ به عددٌ مُختلفٌ من الأضلع.. هذا نظام ترقيم !

- " هذا نظام ترقيم !! "

صرختُ بها بعد أن تأكدتُ منها، مِمّا جعل (أمينة) تُهرول نحوي والفضول يقتاتُ على كبريائها وهي تسألني

- " ماذا تعنيَ بذلك، اشرحي لنا ماذا ترينَ الآن ! "

لم أجيبها، لا أعلم لماذا ! ولكنني لم أعُد أثقُ بأحد ..أرى روايةً (نوبا) بتسلسلٍ جديد، تسلسل يحتوي على نظام كودي يحرسها ! يحرسها !! إنه الحارس ! هذا ما كانت تعنيهُ (الأصلية) بوجودِ حارسٍ على الأمانة !

الأمانة، إنها ليست مجردَ مبنى تمّ إخفاؤهُ في وسطِ الصحراء، بل هيَ الروايةُ التي لم يستطيعَ أحد قراءتها من قبل ! انجرفتُ في مشاعري ولم أنتبه لأتباع (مأمون) وهم يملأونَ القاعة، في حينِ اقتربَ هوَ بخطواتٍ ثابتة قائلاً

- " (جميلةُ)، أرجو ألا تكررينَ أخطاءَ أبيكِ "

نظرتُ إليهِ بتعجبٍ في حينِ أجابتهُ (أمينة)

- " لا نريدُ أن نزيدَ من توترها يا أخي، أعتقدُ أنها تريدُ المساعدةُ دونَ أي ضغوطٍ "

كانت نبرتها بها تهديدٌ أجشّ كصوتها، مِمّا جعلني أنظرُ إليها وأنا على وشكِ أن أجيبها، لولا أنْ قاطعنا صوتُ انفجارٍ عنيفٍ بالخارج، اتبعَهُ أصواتُ طلقاتِ رصاصٍ متتالية مِمّا جعلهم جميعًا يهرعونَ إلى مصدرِ الصوت، ركضوا جميعا عدا (أمينة) و (مأمون) الذينَ أشاروا إلى بعضٍ من أتباعهم لكي يمسكوا بي و لكنني كنتُ قد بدأتُ بالركضِ بالفعلِ نحوَ أحدِ الكشافاتِ الليليةِ القويةِ الموضوعةِ داخلَ القاعةِ، أمسكته وباغتهم بتوجيهِ إضاءتهِ الساطعةِ إلى أعينهم مِمّا أبطأهم للحظةٍ كانت كفيلةٌ لأن أصلَ خلالها إلى بابِ المغادرة وهنا توقفتُ معَ توقفِ صوتِ الرصاص !

تسمرتُ بمكاني وأنا أرى تلكَ المرأةِ ذاتِ الملامحِ العجوزِ تقتربُ مني والسلاحُ بيدها، لم تكن توجهُ نحوي بل على النقيضِ تماماً، فبمجرد أن رأتني حتى وجّهَتْهُ أرضًا واقتربَت منيَ بهدوء، نظرتُ خلفي لأجد (أمينةُ) وأعوانها قد اختفوا تمامًا، ومعهم كلُ أوراقي وأبحاثي التي جمعتها عن جدرانِ القاعة، حتى القصاصاتِ التي احتوت على الرموزِ لم تسلم من أيديهم !

نظرتُ مرةً أخرى إلى المرأةِ المجهولةِ وألسنةُ النيرانِ تلتهمُ بوابةَ القصرِ من خلفها، لا أعلمُ كيفَ ولكنني شعرتُ بكلًا من الراحةِ والغبرةِ نحوها ، هل لأنها على الرغمِ من سِنّها الكبيرِ مازالت تحتفظُ برشاقتها وجاذبيتها ؟ نعم، فهذهِ السترةُ الجلديةُ التي ترتديها تَنُمُّ عن ..

- " هذه أنتِ بالفعل ! "

قالتها وهي تنظر إليّ بأعين أكاد أجزم أنني أرى انعكاس القمر بداخلها

- " أشعر أنني أعرفكِ ! "

قلتها وأنا أحاول دراسة ملامحها فمعَ اقترابها بدأت تظهرُ أكثرَ فأكثر، رأيتُ خصلاتٌ شعرها التي كانت تختبئُ في ضي ألسنةِ اللهبِ من خلفها، خصلات حمراءَ وبيضاء يتوجانِ رأسها، وكأنهما مَزيجٌ القوةِ والحكمةِ معًا، اتّسعَت عيناي من الدهشة وأنا أنظرُ إليها قائلة

- " لقد تذكرتكِ !! "

ابتَسَمَت وأعينها تُجاهد إبقاء الدمع بداخلها، ثم قالت

- "قُلتُ لكِ منذُ زمنٍ بعيد أنّ رؤيتي مرةً أخرى ستعني سعادةُ قلبكِ، لأنكِ إن رأيتني مرةً أخرى ستكونينَ في أمَسِّ الحاجةِ إلى وجودي بجانبكِ "

كيف ذلك ! إنها محقةٌ بكلِ كلمةٍ، فبالرغمِ من أنني لازلتُ أغارُ منها على أبي إلا أنني .. بالفعلِ، سعيدة برؤيتها ،

رؤية (جهاد)

Visual Watermark

الفصل الخامس عشر

الحفل

حياة

المكان .. المنيا

الزمن .. الآن

- " ما الذي تفعلونه هنا ؟ "

جاء صوتُ الحارسِ مباغتٍ لنا، ممّا جعل (مديحة) تختبئ خلف أحدِ الأعمدةِ الحجريةِ بالممرِ الأثري الذي نقفُ به، كانَ حجمها يكادُ يتجاوزُ حجمَ ما تبقى مِن العامودِ الأثري ولكن ربما كانَ اقتناعها بأنها نجحت في الاختباءِ هوَ ما أعمى عينَ الحارسِ عنها للحظاتٍ قبلَ أن يذهبَ إليه (مراد) وهوَ يستعدلُ نظارتهُ الطبيةَ على وجههِ قائلاً

- " نحن نبحث عن (مصيلحي) "

تلفّتَ الحارس حولهُ بحركةٍ تَنُمُّ عن الحيطةِ ثمّ أجابَ بصوتٍ منخفض

- " مَن الذي دَلَّكُم عليه "

- " صَديقٌ مِن القاهرة، قال لنا أن نأتي لمقابلته، هل تستطيع أن تأخذنا إليه ؟ "

قالها (مراد) وهوَ يَهُمُّ بإخراجِ المالِ مِن جيبهِ، ولكنّ الحارسَ نهاهُ عن ذلكَ بحركةٍ مِن يدهِ تَنُمُّ عن كوننا مراقبون، ثُمّ أشارَ بيدهِ إلى سيارةِ (مراد) الفارهةِ ذاتِ الدفعِ الرباعي، والتي تطوع أن يقومَ بإيصالنا بها إلى الصعيدِ بنفسه، كانَ الحارسُ يعني أن نذهبَ مَعًا بالسيارةِ ليوجهنا إلى حيثُ يوجدُ (مصيلحي)، ذلكَ الشخصِ المجهولِ الذي وجدنا اسمهُ ملحقٌ بتوجيهاتٍ مِن عم (جميل) لا أستطيعُ أن أصفَ لحظةَ اكتشافنا لتلكَ التوجيهاتِ المخبأةِ في أرضيةِ الغرفةِ السريةِ بمعرضِ التحفِ المحترقِ سوى أنها بمثابةِ نقطةِ انطلاقٍ في حياةٍ جديدة طالما تمنيتُ أن أحظى بها

حياة خارجَ إطارِ الروتينِ الملازمِ لي كظلي، بعيدةً كلَّ البعدِ عن نمطٍ متكرر لا يختفي سوى بإغماضِ عيني عنهُ ؛ عن واقعي المملوس، تلكَ اللحظةَ رأيتُ خلالها واقعٌ جديد في نظرات (مراد) و(مديحة) إلَيَّ، واقعٌ ينُمُّ عن كوني مميزة، ولستُ شخص مُتكرر كمثيلاتي في نمطِ الحياةِ التقليدي، لَم اضطرْ لأن أسافرَ بعقلي إلى حيثُ أشعرُ بالانتماء، فقد كفّتني نظراتهم عن الاحتياجِ لواقعٍ بديل ؛ مُؤقتًا !

أصبحتُ أنا (حياةُ)، تلكَ الفتاةِ التي حُفرَ اسمها على قطعةٍ رخاميةٍ في غرفةٍ سرية، وصاحبَ الغرفةِ شخص يتوارى عن الأنظار !

لا أعلمُ ماذا كانَ يقصدُ عم (جميل) بكلمةِ " حياة "

هل كانَ يقصدني أنا باسمي بالفعل ؟

هل كانَ يتمنى أن أجدها لهذا حاولَ التواصلَ معي قبلَ اختفائه ؟

أم هيَ رسالةٌ منهُ لأي كانَ مَن يجدها !

رسالة ليحيا !

كانت التوجيهاتُ التي وجدناها تفيدُ بالسفرِ العاجلِ إلى المنيا والبحثِ عن مكانٍ أشارَ إليهِ في خريطةٍ قديمة واسم شخصٍ علمنا بالبحثِ أنهُ قد ماتَ وتولى ابنهُ (مصيلحي) تفاصيلَ أعمالهِ

مَرّتْ ساعةٌ مِن القيادةِ في الطرقِ الأسفلتيةِ المتشابكةِ تلاها بعضُ المساراتِ الرمليةِ الغيرُ مُمهدة، ساعةٌ حاولتُ خلالها تجاهلَ كلامهِ المتواصلِ ومحاولاتهِ لاستمالةِ (مديحة) بقصصٍ خرافيةٍ عن بطولاتهِ في حمايةِ آثارِ المنيا مِن السرقةِ، وإمكاناتهُ الخارقةُ في تتبعِ اللصوصِ وأدواتهِ المميزِ بكونهِ يستطيعُ تحديدَ مواقعِ الاكتشافاتِ الجديدةِ للآثارِ، و ذلكَ طبعا بمجردِ النظرِ إلى القمرِ معَ تحديدِ اتجاهِ الريحِ وجاذبيةِ الأرضِ أثناءَ شربِ القهوةِ ليلاً معَ زوارِ العالمِ الآخر، ظَلّ الحارس يشيدُ بمستوى السيارةِ التي لم يرى مثيلتها في المنيا مِن قبل ! فكانَ (مراد) يقودُ باحترافيةٍ واضحة بالرغمِ مِن تغيرِ أنواعِ الطرق، أراه وهوَ يُرَوِّض السيارةَ كفارسِ الإسباني يمتطي ثور غاضب في حلبةِ مصارعة، وأرى نفسي أميرةً تشاهدُ فارسها وهوَ يستعرضُ شجاعتهُ أمامها، وإن تطلبَ الأمرُ سيحاربُ مِن أجلها حتى إنّ أدى ذلكَ إلى موته

- " وهل إنتَحَرَت بالفعل ؟ "

أفاقني سؤالُ (مديحة) للحارسِ لأسقطَ على أرضِ الواقعِ بعنف

الواقع الذي يجعلُ مِن المستحيلِ أن ترتبطَ فَتَاةٌ مِثلي بشخصٍ مِثل (مراد)

- " هكذا كُتِبَت الرواية "

كانَ ردُ الحارسِ مقتضبٍ، أو هكذا شعرت ! فسألتهُ وأنا أحاولُ إقناعَ الجميعِ بأنني مُلِمّة بكلِ تفاصيلِ حديثهم

- " فلتروي لنا إذا ما تعرف عن الرواية "

- "أعتقد أن (مصيلحي) هو الشخص الأنسب لذلك، خاصة أننا قد وصلنا "

أجابني وهوَ يشيرُ إلى جَمعٍ مِن الناسِ أمامنا على مرمى البصرِ، كانوا يتوسطونَ مجموعة مِن الأبنيةِ البسيطةِ المُزَيّنَة بالأضاءاتِ الملونةِ والشرائطِ العاكسةِ التي يتخللها الهواءُ فتَنثُرُ ألوانها على كلِ ما حولها في تناسقٍ خلاب.. أبطأ (مراد) السيارة وهو يسأل الحارس

- " أهذهِ الزينةِ يومية أم أنّ هناكَ سببٌ لها ؟ "

لَم يجبهُ الحارسُ واكتفى بأنْ أشارَ لنا بصَفِّ السيارةِ أمامَ المنزلِ الأكبرِ في المجموعة، لم يكن يبدو عليهِ مظاهرُ الترفِ ولكنّ الأكيدَ أنّ لساكنهِ شَأنٍ أكبرَ من سائرِ المنازلِ المحيطة

تَرَجّلنا مِن السيارةِ لأجدَ شخص ذو شاربٍ كثيف يرحبُ بنا بلهجةٍ صعيدية ويدعونا للدخولِ إلى المنزلِ فصعدتُ الدَرَجَ ومررتُ بوابةِ الدخولِ وأنا أنظرُ إلى الحارسِ الذي أجابني دون أن أنطقَ بسؤال

Visual Watermark

- " هذا (مصيلحي) "

توقعتُ الإجابة نوعا ما ولكنَ ما أدهشني هوَ حفاوةُ الاستقبالِ، وكأنهم كانوا في انتظارِ وصولنا بالفعلِ

- " حمدًا لله على سلامتكم "

جاءَ الصوتُ مباغتٌ لنا مِن بهوِ المنزلِ فنظرنا جَميعًا إلى مصدرهِ

كانَ مألوفٌ للغايةِ، ولَكِنَني لم أتوقع أن أجده هنا !

كان صوت (عم جميل) !

ابتسمَ بصدقٍ يَنمُّ عن فرحتهِ برؤيتي وهوَ يُكمل

- " لقدْ كنتُ انتظركِ اليوم، فاليومَ هوَ موعدُ الحفلِ المرتقب "

تبادلنا نظراتُ الدهشةِ فيما بيننا ثمَ عدتُ للنظرِ إليهِ وهوَ يقفُ كالمَلكِ بين حاشيتهُ، فتساءلتُ ؛ بداخلِ عقلي فقط تُرَى،

عن أي حفل يتحدث ؟!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

كريمة

المكان .. الأقصر (الباخرة النيلية)

الزمن .. الآن

بدأ الجميعُ في الجلوس في أماكنهم على سطح الباخرة استعدادًا للحفلِ الذي نظّمته الأوبرا ليُقام أثناء الرحلة، كانَ كلّ شيءٍ محسوبٍ ومُنظّم للغاية، بدأ من التزام الحاضرين بالزي المصري القديم باعتباره الزي الرسمي للحفل، مرورًا بالأعلام الرفرافة ذات الألوان النوبية التي تُزيّنُ كل ركنٍ بالباخرة النيلية ووصولاً إلى مأكولات ومشروباتِ الصعيد والتي تزيدُ مِن أصالةِ أجواءِ الحفلِ، لا أستطيعُ التغاضي عمّا حدثَ لي مِن قبل، لا أدري إن كانَ حلمٌ أم واقعٌ، كلّ ما أستطيعُ تأكيدهُ هوَ أنني لم يغمض لي جفنٌ منذُ أن وجدت نفسي على متنِ تلكَ السفينةِ الخشبيةِ في زمنٍ ما قبلَ الميلاد.. منذُ ذلكَ الحين لم أعُد أرى (نفرتيتي) في أحلامي.. تُرى هل هيَ غاضبةٌ منّي لأنني زرتُ زمنها دونَ موافقتها ؟

- " لا أعلمُ إلى أين ذهَبَت هذه المرة، ولكن مِن الواضح على ملامحكِ أنكِ لستِ معنا "

قالها (منير) وهوَ يقتربُ ليجلسَ بجانبي مُرتديًا زي مصري قديم.. يا إلهي !.. كَم هو جذّاب بهذا الزي !

وكأنّ عقلهُ قد اقتبسَ عملةً مِن اسمه، فأصبحَ ينيرُ بالجاذبيةِ، أكادُ أرى عقلهُ يتمايلُ مثل المشاعلِ التي تنيرُ أبراجَ القلاعِ ليلاً لتزيدها جمالاً ورهبة، كانت لحظةً مُمتِعة، لَم تسحقها سوى (أنا) التي كانت تتراقصُ أمامنا في المساحةِ التي تمّ تخصيصها على سطحِ السفينةِ كمسرحٍ صغير، ظلّت تتعمّد إستفزازي بنظراتها وهي تقول

- " ها قد وصل زوج المستقبل "

تجاهلتها وقلت لـ (منير)

- " أوَدُّ أن أسألكِ شيئًا "

نظر إليّ بدهشة حاول إخفائها في حينِ جاءني صوتٌ (أنا) وهيَ تحدثني بأسلوبٍ تحاولُ بهِ أنْ تُقلّدَ طريقتي في التحدُّث - فلديها صوتيٌ بالفعلِ -

- " كيفَ لعالمٍ مثلكِ ألا يتزوجَ حتى الآنَ ؟! "

رمقتُها بعنفٍ مِمّا أثار فضول (منير) فنظرَ إلى الفراغِ الذي أنظرُ إليهِ ولم يجد شيئًا، تظاهرتُ بالسذاجة وأكملت حديثي معه قائلة

- " هل تستطيع أن تصفَ لي كيفَ كانت مصرُ القديمة ؟ "

ظلّ ساكنٍ ينظرُ إليّ دون أن ينطق مِمّا جعلَ (أنا) تظهر من خلفِ أذنهِ لتُحدثني قائلة

- " لقد أحبَكِ بالفعل ! "

لم أعيرها أي اهتمامٍ، فقامت ببعضِ الحركاتِ الطفولية بوجهها تَنُمُّ عن امتعاضها من تجاهلي إياها في حينِ ظلّ (منير) ينظر إليّ مِمّا جعلني أستطرد

- " هل أخطأت بالسؤال ؟ "

شعرَ بالإحراجِ للحظةٍ على غيرِ عادتهِ لكنهُ سرعانَ ما استجمعَ أفكارهُ وأجابني

- " لا، على الإطلاق، لَكِنّني لم أتوقع سؤالكِ، وبالقطع لا أعلم كيف أجيبكِ، أو بالأحرى : قد أملك الشعور لإجابتك ولَكِنّني لا أجد الكلمات !"

- " الشعور للإجابة ! ما الشعورُ الذي قد تحتاج إليه لتصفَ لي زمنٌ لم يعرفهُ أحدٌ سوى مِن البرديات القديمة وجدرانِ المعابد "

ابتَسَم ؛ ثمّ تبدّلت ملامحَ وجههِ أثناء وصفِ كلِ شعورٍ ينطقُ بهِ قائلاً

- " الفَخر، العِزّة، القُوّة، الحُزن والحُب "

ظلّ ينظرُ إليّ وأنا يتردد داخلي صدىَ آخر كلمةٍ نطقَ بها ؛ الحُب

خفتَت الإضاءاتُ حولنا استعدادًا لبدءِ الحفلِ مِمّا جعلَ هذهِ اللحظةِ تبدو دهرًا يساعُ نشأةَ الأرضِ وتكوينها !

استجمعتُ ما لَدَيّ مِن قوةٍ لأدفعَ نفسي خارجَ حاجزِ الصمتِ وسألتهُ

- " قد أفهمهم جميعًا، عدا الحُب، كيفَ تشعرُ بالحُبِ إنّ أردتَ وصفَ مصرَ القديمة ؟! "

- " وكيفَ أصفُها إن لَم أحبُها، إن حاولتُ حتى سيصبحُ وصفي لها مجرد كلماتٍ خاوية بلا روح، كَم مِن الكلماتِ نسمعها ونقرأها ونجدها كالجسدِ الخاوي، كلمات كألواحِ الثلج، تكوينها ماءٌ ولكنها لا تروي ظمأ قلوبنا ! "

نظرتُ إليهِ كأنني أراهُ للمرةِ الأولى ثمّ سألتهُ

- " كم أشتاقُ لسماعِ كلماتٍ ذاتِ روح ! أقصد في وصفِ مصرَ بالتأكيد"

شعرَ بتوتري فحاولَ أن يشيرَ إلى أنّ الحفلَ على وشكِ البدء، ولكن فضولي لسماعِ وصفهِ جعلني أعيدهُ للنقاشِ قائلة

- " لقد رأيتُها ولا أعرفُ كيفَ أصفها "

شَقّت الدهشةُ لنفسها مسارًا واضحًا لملامحهِ، فبالرغمِ مِن كلِ ما يعرفهُ عني من أمورٍ جنونية ؛ كانت هذهِ مرحلةً جديدة بالنسبةِ لنا

أجابني في لهفة

- " ماذا رأيتِ ؟ وكيفَ ؟ هل حلمتِ بها ؟ أينَ كانَ .. "

استوقفتُ سؤاله بإجابتي

- " هنا "

- " هنا أين ؟ في الباخرة ؟ "

- " بل على سطحِ الباخرة لأكونَ أكثرَ دقة "

Visual Watermark

نظر حولهُ إلى كلِ شيء، الجالسون، البدنُ الحديدي للسفينة، الزينةُ التي تتفاعلُ مع أقل نسمة هواء، الأطفالُ التي تقاومُ محاولاتِ سيطرةِ والديهم، حتى السماء المتلألئة بنجومها لم تهرب من عينيه ثم ..

أنا

لا ليست (أنا)

بل أنا، نظر إليّ أنا مرّةً أخرى لأكمل ما بدأت من حديث، فأكملتُ

- " في لحظةٍ اختفى كلُ ذلك، كلُ ما تراهُ الآنَ، ووجدتُ نفسي على متنِ سفينةٍ خشبيةٍ قديمةٍ تُبحرُ ليلاً بينَ ضفافِ نيلٍ لا أعرفهُ، كانَ كلُ شيءٍ مختلف، ولكنَ الغريبَ في الأمرِ أنني شعرتُ حينها أنني وصلتُ إلى منزلي "

- " لم تكوني تحلُمين ؟! "

- " لم يكُن حُلم، كانت حقيقةً كتلك التي تجمعُنا الآن "

- " أراكِ على يقين ! "

- " كنتُ أشعرُ بكلِ شيء، صوتُ صريرِ الخشبِ تحتَ قدَمَيّ، حرارةُ المشاعلِ التي أنارت المكان، تصادُماتُ الأمواجِ ببدنِ السفينة، حتى روائحِ الزيوتِ العطريةِ التي كانَ يضعُها الحضورُ "

اتّسعَت عيناه وهو يقول

- " الحضور ؟! هل رآكِ أحدٌ منهم ؟ "

- " لا أعلمُ، فقد كانوا منهمكينَ في الاستعدادِ للحفل "

صمت لحظة وهو يُغمض عينيه ثم سألني

- " هل رأيتِها، (نفرتيتي) ؟! "

- " لا، ولكنهم كانوا في انتظارها "

- " هل كانَ سببُ الحفلِ واضح ؟ "

- " لِمِ السؤال ؟! "

ابتسم بلهفة وهو يُجيب

- " إن كان ما رأيتِه حقيقيًا، فهو ليس له أي مرجعٍ في كتبِ التاريخ ! "

استدار في مقعده ليواجهني بكامل جسده وهو يُكمل

- " ألا تقدرينَ تلكَ الموهبةِ التي تنمو بداخلكِ ؟ (كريمة) ؛ إنَ كانَ ما ترونه هوَ واقعٌ قد حدثَ بالفعلِ فأنتِ لديكِ موهبةٌ قد تُغيّرُ مسارَ التاريخ، فما لديكِ لا يجبُ الاستخفافُ بهِ أبدًا ! "

- " هل تعتقدُ أنَ لها يدٌ في ذلك ؟! "

- " لا أعلمُ، فكلُ هذا جديدٌ عليّ، ولكِنّني أريدكِ أن تحكيَ لي كلِ شيء، إن حدثَ ذلكَ مرةً أخرى "

ابتسمتُ إليهِ ثمّ وجهتُ نظري إلى (هند) مشرفةِ الغرفةِ التي كانت تقفُ لتُعلنَ عن اقترابِ موعدِ حفلِ الباليه الذي ستشاركُ فيهِ كُلًا من (مريم) و (سارة)

كنت أراها ولكِنّني لا أسمعُها، فكان عقلي مشغول بما قاله لي (منير)

تُرى، هل سيتكرر الأمر ؟

بدأت الموسيقى، وخفُتت الأضواءُ أكثرَ حتى اكتفوا بإضاءاتِ المشاعلِ النارية التي أخذت تنعكسُ في خمائلِ على أزياءِ البناتِ وهنَ يَخرُجن على أطرافِ أصابعهنَ في مشهدٍ يملأُ الروحَ بالزهو

استنشقتُ النسمةُ الباردة التي احتفّت بنا وبدّأت رحلتي معَ الحفلِ الذي طالَ انتظارهُ

و لكِنّني لم أتصوّر أبدًا، أنه لَن يكون ..

الحفل الوحيد !

Visual Watermark

أماليا

المكان .. الأقصر

الزمن .. الآن

وصلنا إلى الأقصر بلا ترتيباتٍ وبقرارٍ سريعا كالقطارِ الذي أتى بنا إلى هنا، كانت السرعةُ مطلوبة لنستطيعَ حضور حفلِ الأقصر، خاصةً بعدَ أن علمنا أنهُ ستتواجد به خبيرةُ آثارٍ لديها روايةٌ لكلِ قطعةٍ أثريةٍ وجدَت في مصرَ، أو هكذا تمّ توصيفها لنا، ولكنني لا أتذمرُ، فأخيرًا وجدت امرأةً صنعت لنفسها مملكةً تحكُمها، وتتفوق بها على معشرِ الرجالِ !

رِجال، رِجال، رِجال ! في كل زاويةٍ أنظرُ إليها أجد رجُلًا.. أين ذهب النساء !

كيفَ تمّ تسميتها بـ (مدينةُ الألفِ بابٍ)، كانَ يجبُ أن يتمّ تسميتها بـ (مدينةُ الألفِ رجُلٍ)!

أنظر إلى (أدهم) وأنا لا أعلم كيف آل بنا الحال إلى هنا ! كيف بدأتُ أن أتألقم مع وجوده معي فهو رجُل .رجُل !!

كمْ أودُ أن أبكيَ حالي ولكِنّني أخاف أن يراني فيفضح أفكاري كعادته

لا أعلمُ كيف يفعل ذلك!

يا له مِن وغد !

تركتُ بهوَ الفندقِ وخرجتُ إلى الشارعِ لأستمتع بمشهدِ النيلِ ليلاً

كانت الأقصرُ هادئةً، هادئةً للغايةِ !

هادئةٌ لدرجةٍ أنهُ خُيّلَ لي أنني أستطيعُ سماعَ صوتِ الكهرباءِ المغذيةِ لأعمدةِ إنارةِ الطُرُقات، لم يكن يُعَكّرُ صفوَ هذا الهدوءِ المُمتعِ سوى صوتِ فك (لبنى) وهوَ يغازلُ بعضَ حبيباتِ السودانِ الأسوانيّ المُحَمّص بمنتهى الرقي !

بالقطعِ أحترمُ اجتهادها في عدمِ إصدارِ أصواتٍ مُنَفّرة أثناءَ الأكلِ كعادتها، ولكن تحديَ هذهِ المرةِ صعبٌ للغاية، فيُغَضّ النظر عن كونِ غريزةِ الطعامِ لديها قد تفوقت على غريزةِ البقاءِ على قيدِ الحياة ؛ إلا أنها بالفعلِ تجاهدُ نفسها وتحاولُ أن تتحكمَ في جميعِ عضلاتِ وجهها لكي لا تصدرُ أصواتٌ تجعلني أنقَضّ عليها باللومِ والتعنيفِ وهذا الهدوء القاتل لا يساعدها مُطلقًا !

هدوءُ الأقصرِ ليلاً جعلَ صوتَ فكها أشبهَ بفنارِ مضيء في يومٍ سَكَنَ بهِ البحرُ وتوارى الموجُ تحتَ سطحه، فنارٌ تراهُ السفنُ مِن قبل حتى أن تُبحِرَ، فتبتعدُ ! ولكِنّني وبكل أسف لا أستطيع الابتعاد

- " لماذا تُصِرّين على الهروبِ ؟! "

قالها (أدهم) ببراعتهِ المعتادة في قراءةِ أفكاري وهو يقتربُ ليجلسَ بجانبي على أحدِ المقاعدِ الخشبيةِ المصفوفةِ للسائحينَ على ضفافِ النيل

نظرتُ إليهِ وهوَ يتابعُ حركةَ المراكبِ الشراعيةِ وهيَ تنزلقُ بسلاسةٍ فوقَ سطحِ الماءِ العذبِ للنهر.. يالهُ مِن مَشهَدٍ ساحر!.. أقصدُ النهر بكلِ تأكيد !!

أجبتهُ بصوتٍ عميق، لا يعبرُ مُطلَقًا عما يدورُ بعقلي

- " أنا لا أهربُ، هذا ليس مِن طباعِ حفيدة الملوك "

ابتَسَم دون أن ينظر إليّ مِمّا جعلني أفشل في إخفاء ابتسامتي ثم قال

- " حفيدة الملوك تخشى أن تتعلق بأحد العامة "

نظرتُ إليهِ وأنا أضيق عيني بما يعبرُ عن مزيدٍ مِن العمق وأنا أجيبهُ بخبث

- " (لبنى) ليست من العامة "

إلتَفَت إليّ بعينين يملأهما السحر وهو يقول

- " ماذا إن قلتُ لكِ يا مولاتي أنني وبالرغم من هذا المشهد الساحر الذي أمامنا إلا أنني وببساطة

لا أرى غيرك ! "

ماذا قال !

كنت أنظر إليه ولكِنّني لم أعُد أراه !

رأيتُ مستقبلي يُكَرّ أمامي كبكرةِ الصوف عندما تسقُط أرضًا وتتدحرج عكسَ قوانينِ الفيزياء، لا أعلمُ كيفَ يفعلُ ذلك ولكنه استطاعَ ببراعةٍ أن يرسمَ لنفسه طريقٍ موازي لطريقي في الحياة حتى أنني بدأتُ أنَ اقتنعَ بوجودهِ معي.. يا له مِن وغد !

- " سيبدأ الحفل يجب أن نتحرك الآن "

قيلت الجملةُ بصوتٍ أجَشّ يقتربُ بخطواتٍ ثقيلة مِن خلفنا

كانَ (خيري) زوج (لبنى) قد قرّر التفرغَ لمصاحبتها في رحلتها معنا، أو قد يكون هذا ما يحاول أن يُقنع به نفسه، لن يعترفَ رَجُلٌ أبدًا بطاعتهِ لزوجتهِ التي احتَجّت على تهربهِ منها طوالَ الوقتِ وأجبرتهُ على السفرِ معنا إلى الأقصرِ بحجةِ استعادةِ لحظاتٍ رومانسية بينهما لا أساسَ لها مُطلقًا.

نصفُ ساعةٍ مرّت كانت كافية لتصل بنا السيارة لمكانِ الحفلِ المُقام في العيدِ القومي لمدينةِ الأقصر

نصفُ ساعةٍ استرجعت خلالها مجرياتِ الأحداثِ منذُ أن رأيتُ (أدهم) لأولِ مرة في اجتماعِ فحصِ البضائعِ وصولًا لهذهِ اللحظةِ التي يجلسُ بها على مقعدِ السائقِ ويناورُ بالسيارةِ بخفةٍ على طرقاتِ مدينةِ الأقصر

تلاحَقَت الذكريات بعقلي كتلاحُقِ الإضاءاتِ الليليةِ للمدينة وهي تُغازل وجه (أدهم) برفق

ماذا أقول ! ما هذا الذي أقوله ؟!

أقصدُ أنني أشعرُ أن كلَ شيءٍ مَرّ سريعًا للغاية

Visual Watermark

صُفَّت السيارةُ بمدخل فندقٍ باهر في معماره وإضاءته المُغيِّرة عن استعداده للاحتفال بعيد الأقصر السنوي

كانَ كلُّ شيءٍ مبهر للغاية، بدءً من أزياء العاملين بالفندق ووصولًا لزينة التراس الخارجي المطل على النيل حيثُ اجتمع الكثيرون يتسامرون خلالَ الأجواء الساحرة للحفل

كانت إطلالةُ الفندق غير تقليدية، أو بالأحرى ليس لها مثيلٌ !

فعلى الضفة الأخرى للنيل، تلك الضفة المضيئة والساحرة للأعيُن بقعٌ معبد الكرنك !

يا لها من إطلالة !

أستطيعُ أن أجزم أنه ينظرُ إلينا بدوره، ويتساءل ؟!

(مَن هؤلاء ؟! لقد كنت قبلة حُجاج (كمت) ! كيف آل بي الحال إلى أن أصبحتُ مَزارَ سياحي، لهؤلاء !)

خفتت إضاءةُ التراس تدريجيًا، ومعَ خفوتها سطعت أضواءُ الكرنك أكثرَ فأكثر، حتى أصبحت تنافسَ القمر في انعكاساتها على ماء النهر

- " السادة الحضور، أرجو من سيادتكم الانتباه، أرغبُ في الترحيب بالسيد (مأمون) الذي كانَ لهُ الفضلُ الأكبر في إقامة هذا الحفل بهذه الصورة الرائعة "

قالها رجلٌ في العقد الخامس من عمره في ميكروفون الحفل فهدأ الجميعَ والتفتوا إليه تدريجيًا في حين توجهَ المدعوّ (مأمون) نحوَ إلقاء كلمة ترحيب بدوره

ولَكنّني التفتُ إلى واجهة أكثر سحرًا

لا، ليس (أدهم) بكل تأكيد

فمعَ حديث هذا الرجل بدأت إضاءاتٍ الكشافاتِ تتوجهُ خلفه نحوَ وجهٍ محفورٍ على جداريةٍ بارزة كانت مخفية في الظلام

وجهٌ لا يمكنُ أن يجهلهُ أيُ مصري، واعتبرهُ العالمُ أيقونةَ الجمالِ في جميع العصور

وجهُ ملكةٍ مُتَوَجّه، ملكةٌ ستحكمُ الحفلَ، كما حكمت مصرُ زمنًا وقلوبًا

وجهُ الملكة نفرتيتي !

Visual Watermark

الفصل السادس عشر

بداية

حياة، جميلة، أماليا، كرمة

المكان .. مصر

الزمن .. الآن، أو ربما لا !

- " (إيرادورا) : شهيدة الحب منذ ألف وتسعمائة عام مضت

تلك الجميلة التي عشقت (حابي) الضابط المصري ذو الملامح النيلية

عشقته منذ أن تلاقت أعينهم للمرة الأولى أثناء الحفل

حفل (تحوتي) رمز الحكمة والقلم

رآته بين الجموع فارس

ورآها هو : أميرة

وراءه أبوها ثم وجب التخلص منه !

ثلاثة أعوام جمعت بين العاشقين، تلاقيا خلالهم على ضفاف النهر الشاهد على نقائهم

كانت تخاف أن يمنعها الحرس بأمر أبيها إن سمعوها وهي تتسلل من القصر خلسة، فكانت تركض حافية بلا صوت : عدا صوت دقات قلبها المتسارعة !

ذلك القلب الذي تركت منه جزء ل (حابي) بعد كل لقاء بينهما

وحان آخر لقاء

كانت تعلم أنها لن تستطيع مقابلته مُجدداً

شعر هو أن لديها ما يضيق صدرها، ولا تفصح عنه، وشعر النهر أنها لن تبتعد عنه كثيراً فتلألأ بضوء القمر استعداداً لاستقبالها

غادرت بخطوات ثابتة، وعينان تعكسان صورة معشوقها التي اضمحلت تدريجيًا بابتعادها عنه

ذهبت تتوارى عن الأنظار، لتتنفس ماء النهر طواعية

علمت أن لا مفر من سطوة الأب ونفوذه، فأرادت أن تترك الحياة لتحيا

فإن لم تستطيع أن تحظى بمن تحب في هذه الحياة، لعلها تستطيع ذلك في حياتها التالية

يوم مضى ولم يلتقيا، جلس (حابي) على ضفة النهر ينتظر، غابت حبيبته لأول مرة عن لقائهما

دق قلبه في تناغم مع خرير النهر من حوله، فظل يأمل لقائها حتى تعالت أصوات الحزن في الأفق

وجدها الأب والنهر يحتضنها، ولكن قلبها كان أرق من أن يُغدر

فطفت برداء أبيض لا تشوبه شائبة، فالليلة كان غرسها على القمر

ندم الأب حتى سقطت هيبته، وأمر ببناء " قصر " لصغيرته

سألوه أم هو " قبر " لبعثها ؟ فلعل الصدمة جعلت الباء صاد

نظر إليهم نظرة مستجدي للرحمة، فكفى بموت صغيرته من عقاب

فليكن " قصر " تخلد به روحها، قصر يزورة كل عاشق مُعتبر

وكان القصر أشبه بقلعة نُقشت جُدرانها بروايتها للعبر

وفي كل ليلة تضاء لها شمعة بيد (حابي) ويجلس مُنتظر

لعلها تطل عليه من مكان لقائهما، وتبتسم فتُطفىء نار قلبهُ المُجتمر "

- " واليوم هو ميعاد الحفل ؟ "

قالتها (مديحة) لعم جميل - وهي تبكي - بعد أن قص علينا هذه الرواية على ضوء اللهب في منتصف ساحة الحفل

- " هذه ليست المرة الوحيدة التي افترق بها عاشقين يا صغيرتي، فحفل الليلة ليس ل (إيرادورا) فقط "

استعدل (مراد) نظارته الطبية على وجهه بينما انعكست ألسنة اللهب عنها في رفق لتكشف خجلة الواضح، فقال

- " وماذا إن انعكست الصورة يا عم جميل، وكان العاشق أميرٌ، وكانت حبيبته أحد العامة البسطاء "

نظر (عم جميل) إلى بإبتسامه بسيطة قبل أن يجيب

- " وتلك رواية أخرى، رواية عشق بين قائد جيش ووصيفة بالبلاط الملكي، هذه الرواية تسبق (إيرادورا) بأكثر من ألفين عام، بدأت في (طيبة) وانتهت في (أخيتاتون)"

نظرت إلينا (مديحة) وهي تجفف ما تبقى من دموعها قائلة

- " (أخيتاتون) ! أليست هي (تل العمارنة) الآن بالمنيا ؟ "

ابتسم أغلب الحضور قبل أن يُجيب (مصباحي)

Visual Watermark

- " (أخيناتون) هي حيث نجلس الآن "

نظرَ إلينا (عم جميل) ليستطرد قائلًا

- " (أخيناتون) هيَ حيثُ انتهت قصةُ (نويا) العاشقة، وصيفةُ الملكةُ الأجملُ على الإطلاق، جدتك يا (حياةُ) الملكة (نفرتيتي) "

وهنا صمتَ الحُضور جميعًا وبدأت مراسم الحفل

شعرتُ أنني أحلقُ وأرتقي بأجنحتي الذهبية في سماء المُنيا حتى رأيتُ (مصر) بأكملها، ولكنَ تركيزي كانَ منصبٌ على منطقتين ساطعتين ليلًا، رأيتهما كقلبين نابضين لجسدِ (مصر) الواحد، بينهما تزامنٌ واضح حتى شعرتُ أنني أسمعُ معازفَ الحفل منهما معا

الأولى هي (المُنيا) أما الثانية هي (الأقصر)

حيثُ يوجد ...

...

- " (جميلة) "

قالتها (جهاد) لتقطعَ عَلَيَّ سَيلِ من الذكرياتِ التي جمعتني بأبي في فرنسا

ذكريات كانت (جهاد) هيَ مُنغصها الوحيد بقوامها الممشوقِ وجاذبيتها التي لا يمكنُ تجاهلها !

والآن هيَ هنا، بعد ثلاثونَ عامًا من الاختفاءِ ظهرَت في اللحظةِ المناسبةِ لتنقذني!

ليسَ من (أمينة) و (مأمون)

بل من فضولي ! فهوَ سببُ كلِ المشاكلِ التي تحيطُ بي دوما

كانَ الوقتُ ليلًا والسماءُ صافيةً للغاية، نظرتُ إلى سماءِ (مصر) وأنا أتساءلُ بيني وبينَ نفسي، تُرى هل مَرْ ب (نويا) اصطفاقٌ للنجوم مماثل لما أراهُ !

- " (جميلة)، هل أنتِ بخير؟ "

كرَرتها (جهاد) وهي تُساعدني في ارتداءِ معطف أسود أنيق يزيدُ ذلك الرداءِ الأحمرِ الجذابِ الذي أعطتني إياهُ بريقًا، فأجبتها

- " أنا مازلتُ أحاولُ استيعاب أحداثِ حياتي منذ عودتي إلى (مصر) "

ابتَسَمَت (جهاد) دون أن تنطق بمِمَّا أثار فضولي فسألتها عن سبب ابتسامتها، فأجابتني

- " لقد قلتِ (عودتي) إلى مصر "

ارتفع حاجبي من الدهشةِ وأنا اقول

- " وما الغريبُ في ذلك "

- " تقولينها كأنكِ تتذكرينَ حياتكِ السابقةُ هنا "

- " بالتأكيد، فأنا غادرتُ وأنا ابنة الستةِ أعوام "

ابتَسَمَت مُجَدْدًا وهي تحنو بيدها على وجنتي برِفقٍ قائله

- " أتذكرك كما أتذكر إبنتي في ذلك السن، ولَكِنَّني لم أقصد تلك الحياة "

- " أي حياة تقصدين ؟! "

- " تلك التي لا تتذكرينها، لا تشغلين بالك فلنا حديث مطول بهذا الموضوع، ما يهم الآن هو محتوى الرسالة، لقد أعطتني (ماريز) فكرة عنها، ولَكِنَّني أود أن أقرأها بنفسي "

قالتها وهي تمد يدها إليَّ كي أعطيها الرسالة، لم اتردد كثيرًا، فأخرجتُ البردية من حقيبتي وناولتها إياها

تشبَّع وجهها بمشاعر الفخر وهي تقرأها قائله

- " أنا هنا

أقف مكاني وأنظر

أشعر بهم من حولي يقتربون

أرى قبور عقولهم تُفتَح لتمتَصَّني في غياهِب ظلامها

يحاولون، يحاورون، يتجادلون، يتصارعون في ما بينهم عمَّن سيُطبق براحَتَيه على عنقي فيعتَصره، لينصُر عابدي الظلام بجهلهم على مَن جلبت نور السماء إلى الأرض

حاقدون أم كارهون أم مجرد أتباع لا يفقهون !

أنا هنا

أقف بأقدام مَصقوله من أحجار معبد (أتون) المقدسة

لن أتزحزح وإن أتيتم بجميع آلهتكم إليَّ

هل أخاف وأرتعد ؟

لست خائفة

لا أهاب الموت

فما الموت لي إلا لحظة

Visual Watermark

مجرد لحظة أختلي بها بنفسي بينما تدمرون أنفسكم بأيديكم من بعدي

اقتلوني

إضربوا قلبي بسهام معتقداتكم المسمومة

قطعوا ما تبقى مني أشلاء وبعثروها بشتى بقاع الأرض

حينها

ستعتقدون أنكم إنتصرتم

ستعتقدون أنكم تخلصتم مني إلى الأبد

ولكنكم مخطئون

أخطأتم حين ظننتم أنني لم أشق بعقلي جدار أقنعتكم الزائفة، ذلك الجدار الذي شيدتموه ليكون حائلًا بيني وبينكم

إخترقته لأرى بداخلكم

وقد رأيت ما تُعدُّون

تركتكم في وَهم إنتصاركم بقتلي

وتشبثت بحقي في أن أبعث من جديد

أخطأتم عندما ظننتم أنني مُتحصِّنة فقط بجيشي

ستندهشون

وستأتي اللحظة التي بها تندمون

سأعود

عندما تدبرون ظهوركم، سأعود

عندما تأمنون في مضاجعكم، سأعود

عندما تجتمع أجزاء (عامود جد) لتنير طريق الروح إلى جسدي الفاني

سأكون قد عدت

ولن تكونوا في عتادكم

ستكونون ضعفاء

وسأحيا بأجسادي لأنتصر "

إنتَهَت من قراءة البردية ثم رفعَت عينيها لتنظر إليَّ، كنت أرى إنعكاس صوري داخلهما من كثرة الدمع المُنشبث بها، فسألتها

- " ماذا فهمتِ ؟ "

أجابتني بصوت مرتجف قائله

- " أن والدكِ لم يهدر عمره هباء، إننا على الطريق الصحيح "

تركتني مع فضولي وبدأت تسيرُ بخطواتٍ ثابتة نحو باب غرفة الفندق الذي إتضح أنها تُقيم به إقامة كاملة

فتَحَت لي الباب ومررنا من خلالهِ لتبدأ رحلةُ تأميننا أثناء سيرنا سويًا عن طريقِ أشخاصٍ من الواضح أنهم محترفينَ في مجالهم، فكانوا يتحدثونَ فيما بينهم من خلالِ سماعاتِ أذنٍ أنيقة دونَ النظر إلينا تقريبًا !

كيفَ يستطيعونَ مقاومةُ جاذبيتي بهذا الزي !

أو بالأحرى، كيفَ يستطيعونَ مقاومةُ النظر إليها هيَ !

يا لها من جذابة بالفعل !

فعلى الرغم من الفارقِ العمريّ بيننا ؛ إلا أنني على يقين أنها بسيرها بجواري ستخطفُ الأنظارَ عنّي بسهولة، فهذا الرداءُ الغايةُ في الأناقةِ والجاذبية، وهذا الحذاءُ ذو الكعبِ الرنانِ، يحددوا مكانُ مرتديهِ عن بعدِ مائةِ متر !

وصلنا إلى الترابِ المُقام بهِ الحفلُ حيثُ كانَ جميع الحضورِ ينظرونَ نحوَ مضيفهم الذي رحبَ بهم بكلماتٍ بسيطة، ثمَّ نزلَ عن المسرحِ الصغيرِ ليتجوّل بينهم

أنا أعرف ذلك الشخص جيدًا

هذا الشخص هو (مأمون)

نظرتُ إلى (جهاد) وأنا لا أفهمُ شيئًا، كيفَ تقوم بإنقاذي من بين أيديهم منذُ أيامٍ ثمَّ تعودُ بي ببساطة إلى حفلٍ من ضيافتهم !

- " وها قد إلتقينا مُجددًا، مرحبا بإبنة المُهاجر"

فاجأتني الجملة بصوتٍ خافت من خلفي، فإلتفتُ إليه لأتبيَّن مَصدَره وهو يقترب ليدخل دائرة الضوء مُكملًا

- " لا أصَدِّق أنني أراكِ هنا بعد ما حدث في القصر "

تبيَّنتُ وجهه، كان (وجيه)، ذلك الجبانِ الذي قابلتهُ في قصرِ الأصلية، نظرتُ إليه بغضبٍ واضح وأنا أجيبهُ

- " وأنا لا أصَدِّق أنك استطعتَ تجاوز تلك الحراسات من حَولي "

- " لمَا أنا فأرحَب بأهمِّ أعمدة العائلة "

Visual Watermark

قالتها (جهاد) وهي تمدّ يدها لـ (وجيه) الذي انحنى ليُقبّلها برُقيٍ بالغ، ممّا جعل الدهشة تتسلّل إلى ملامحي !

ابتسمت (جهاد) إليّ قائلة

- " (وجيه) هوَ صاحب خطة استخلاصك من أيدي جماعة (مأمون) "

ابتعدا حاجباي وأنا أسألها

- " أتقصدين جماعة (مأمون) ؟ "

- " بل جماعةُ (ما / مون) وهم (موالين أمون)، أطلقوا على أنفسهم اسم (ما مون) للاختصار، وعلى رأسهم (الأصلية) التي جاءت بكِ من القاهرة إلى هنا "

- " وكيف تعلمين ذلك ؟ "

سطعَت ابتسامتُها بأسنانها البيضاء تحت ضوء القمر وهي تُشير إلى (وجيه) مُجيبة

- " كانَ (وجيه) مُكلّف بمتابعة كل خطواتكِ منذُ وصولك إلى (مصر) "

نظرتُ إلى (وجيه) صاحب الوجه الأملس لأجدهُ يتلذذ بدور العميل المزدوج في الرواية، ثمّ عُدتُ إليها لأسألها وقد بدأت تراودني الشكوك تجاههما

- " ماذا نفعل في حفل (مأمون) إذا ؟ "

لم تُجبني ؛ بل نظرَت إلى (وجيه) لتبدأ حوارها معه

- " أين هي ؟ "

- " لقد وصَلت الحفل بالفعل مع بعض رفاقها، لن تكون بعيدة "

- " هل تحقّقتِ من رفاقها ؟ "

- " بكل تأكيد، أستطيعُ عزلها عنهم للحظاتٍ عند إشارتكِ "

صمَتَت للحظة وقد غلبها توتُّرها على غير المُعتاد، ثمّ أشارت لـ (وجيه) بموافقتها على أن يبدأ في تنفيذ إقتراحه، كانَ النقاشُ غريبًا ولكنهُ أخذ الأمر منها كالجندي الوفي وغابَ مُسرعًا في إضاءةِ الحفلِ الضعيفة

مَرّت دقائق قليلة كانت تقفُ خلالها أمامي وخلفها نقشٌ غائر في الجدارِ لأجمَل مِن حكم مصر

نقشٌ لوجهِ الملكة (نفرتيتي)

تغيُّرها المُفاجئ جعلني أحاولُ التخفيف مِن توتُّرها قليلًا بأنّ أربتُ على كتفها وأنا أشيرُ إلى وجه (نفرتيتي) الساطع خلفها قائلة بصوتٍ هادئ

- " الجميلة أتت "

كما توقّعتُ، جعلتها الجملة تنظر إليّ وتبتسم قائلة

- " أتذكرُ والدكِ حينَ كانَ يقولها، كانَ يعنيها بالفعل يا (جميلة)، فأنتِ أجملُ ما رُزقَ بهِ في حياته، كانَ يقولُ لي ذلك دومًا، تمامًا كما كنت أنا أقولُ لابنتي (أماليا) "

- " أشعرُ أنها سبب تواجُدنا هنا "

قُلتها وأنا أنظرُ إلى وجهها وقد تبدّل إلى ملامح الدهشة، تمامًا كالطفلةِ الصغيرة التي إن ذُكرت الحلوى أمامها برقت عينيها !

- " منذ ثلاثون عامًا وأنا أنتظرُ هذه اللحظة، ثلاثون عامًا كنت أبني دفاعاتي التي تؤهلني لأعود وأظهر في العلن، ما يقهرُ قلبي هو أنني كنت أتابعُ (أماليا) دون أن تشعرَ بي، وأنا أعلمُ جيدًا أنها تعتقد أنني فارقتُ الحياة، ثلاثون عامًا أرتبُ كل شيء ؛ كل شيء ؛ عدا لحظة معرفتها للحقيقة ! "

لا أعلمُ كيف ! ولكنها نجحتْ في أنْ تُبدّل مشاعر الطفلةِ الصغيرة بداخلي من الغيرة إلى الشفقة، فكرتُ في أنْ أفتحَ زِرَاعَيْ لأوحي إليها أنني أريدُ أن أحتضنها، ولكنني تراجعت عن الفكرة فورَ ظهورِ (وجيه) خلفها مصاحبا امرأةً جميلةً ورجلاً أنيق

- " سيدتي، أودُ أن أعرّفكِ بالآنسةِ (أماليا) والسيد (أدهم) "

قالها (وجيه) بصوتٍ متردد ثم صمت

أكادُ أجزمُ أنني بدأت أسمع دقات قلبها المتسارعة وهيَ تنظرُ إليّ، طبولُ حربٍ شقّت قلبها لتُخرجَ مشاعرها للنور، دمعت أعيُنها ولكنها تَشبّثت بالدمعِ بداخلها فلم تُسقِط قطرة واحدة، يا لها مِن قوةٍ تلكَ التي تمتلكها، تلكَ التي تُمكّنها مِن ملمةِ شتاتِ نفسها في موقفٍ كهذا !

- " سيدتي ! "

كررها (وجيه) بصوتٍ مرتعش، ومعَ كلمتهِ استجمَعَت شجاعتها وعادت ترسمُ الابتسامةُ المعتادة على شفتيها

واستدارت لهم ،

ورأتها !

لا لم تراها، لقد إحتضنتها بعينيها !

وجهًا لوجه، للمرة الأولى منذُ ثلاثونَ عامًا، منذُ أن كانت (أماليا) في السادسةِ مِن عمرها، والآن تقفُ هنا أمامنا كزهرةٍ كاملة الأنوثة، تقفُ أمامَ أمها وهيَ لا تعرفها، جاءت بميعادٍ مُسبقٍ معَها وهي لا تعرفُ عنها شيئًا سوى أنها خبيرةُ آثار ؛ مرّت ثوانٍ اعتقدتُها دهرًا وقفت خلالها (أماليا) أمام (جهاد) وبيدها قطعةٍ أثرية !

ما هذا، أنا أعرفُ هذهِ القطعة الحجرية جيدًا!

هذا قلبُ (تويا) جدةُ (إختاتون)!

أعلمُ أنّ هذهِ اللحظةِ المليئةِ بالمشاعرِ لا تتحملُ أن تُقطع

ولكنّ فضولي هوَ أقوى مشاعري، فكلّ ما أريدهُ هوَ أنْ أفحصَ هذا الأثر ..

Visual Watermark

الآن !

...

- " الآن أيها السيدات والسادة ضيوفنا الأعزاء على متن الباخرة السياحية (أتون)، أودّ أن أرحّب بكم جميعًا وأتمنى أن تستمتعوا بفقرات الحفل المُقدّم من دار الأوبرا المصرية "

قالتها (هند) مُشرفة الحفل وتركت الساحةُ لحظةً بدء الأوركسترا في عزف موسيقى هادئة متناغمة معَ خفوت أضواء الباخرة

اصطفّ البنات في صفين أمام الحاضرين في رُقيّ بحركاتٍ متناسقة فيما بينهم جعلتهمْ كأوراق الشجر الذي يتمايلُ معَ أرق النسائم الدافئة ليلاً

يالها من مُتعة للناظرين !

ويا لهُ من شعورٍ دافئ يدبُّ قلبي كقطعة الزبد فوق حرارة الموقد الهادئة

شعرتُ بدفء النظر إلى ابنتايَ وهما ترقصان، فعلى الرغم من كل شيء، أنا هنا معهنّ، الآنْ، رغم أنف طليقي، رغمَ أنفِ كل مَن شكك في قدراتي على تربيتهنّ، رغمَ أنف (أنا) !!

- " يجب أن تشعرين بالفخر يا (كريمة) "

قالها (منير) بصوتٍ خافت حتى لا يُزعج أيّ من الحاضرين، إلا أنّ (هند) - تلك البومةِ العجوز - قد سمعتهُ فنظرت إليّ بنظرةٍ تملأها الغيرة التي لا مبرر لها!

- " لا مُبرر لها ! يا لكِ من ساذجة ! "

قالتها (أنا) بصوتٍ رنان وهيَ تتراقصُ بينَ البنات بحركاتٍ لا تُمتُّ لفنِ البالية بصلّة، يا لها من كائنٍ عشوائي !

كائن مريض بالثقةِ الزائدةِ بالنفس، والأسوأ هوَ أنها لا تتركني لحالي أبدًا

لا هذا ليس صحيحًا !

هي تتركني أحيانًا، أو على الأصح لا تستطيعُ الوصولَ إليّ عندما أرحلُ عن هذا الواقعِ وأذهبُ إلى الخيال ؛ تُرى أهوَ خيالٌ بالفعلِ أم هوَ واقعٌ بديل، لا أدري ؟!

كلّ ما أعرفهُ هوَ أنهُ يحدث بصورةٍ عشوائية تمامًا، يا ليتني أستطيعُ التحكمُ في الأمر، أن يكون توقيت رحلتي إلى زمنِ الملكةِ باختياري

كلّ ما يمكنني أن استخلصهُ من التجاربِ السابقةِ هوَ أنّ المشترك بينهم جميعا كانَ التوتر، فكلّ مرةٍ رحلتُ بها كانَ المُحرّك هوَ توتري

تُرىَ هل أستطيع أن أصنع لنفسي مسار إلى (طيبة) الآن !

- " بالفعل، إن ذكر التوتر ذكرت (كريمة) "

قالتها (أنا) وهيَ ترقصُ أمامي مباشرةً على أنغام الحفلِ الهادئة، ممّا جعلني أغمضُ عيناي لعلها تختفي من أمامي

لقد نجحتُ ! فقد إختفّت بالفعل !

وإختفى معها كل مَن أعرفهم !

تحوّلت الباخرةُ إلى السفينةِ الخشبيةِ الأنيقةِ، تغيّرت هيئة الحضور، اختفت الكهرباءُ وظهرت المشاعلُ، لقد استطعتُ العودة إلى (طيبة)

أعشقُ هذا الهُدوء، لا ضوضاء، لا مُلوّثات، لا - (أنا) !

نظرتُ حولي أتفقدُ سادة (طيبة) وهم ينتظرونَ بدءُ الحفل، أرى الحرسَ والجيشَ والقادةُ يتسامرونَ فيما بينهم، وأرى أشخاص يغلبُ على هيئتهم الطابعَ الديني، وأرى الخدمُ وهم يُمرونَ بشفافيةٍ بينَ الجميع كأنّ لا حضورَ لهم، وأرى الوصيفاتِ وقد اجتمعنَ حولَ كرسي العرش في انتظارها

إنتظار مُؤرّقتي ولُغزي الذي أصبح يشغل الحَيّز الأكبر من حياتي الآن

إنتظار الملكة ..

أما أنا فلا أطيقُ الانتظارُ أكثرَ من ذلك، فأنا أريدُ رؤيتها الآن لأسألها إن كانت قد مَلّت من زيارتها لي ؟!

لا هذا ليس السؤال الأهم، أريد أن أسألها عمّا تريد مني ؟! لِمَ أنا بالذات ؟ وهل هناك أخريات مِثلي ؟

بدأت تحركاتٍ منظمة بينَ الحاضرين تَنُمُّ عن اقتراب حدث ما، تغيرت المعازفُ وأصبحت أكثرُ حدّة تمهيدًا لما هوَ قادم، اصطفّ الحرسُ ليصنعوا ممر بشري إلى كرسي العرش

ولاحَت هي في الأفق !

لمعَت كالنجمِ الساطعِ في ليلةٍ حالكةٍ خالية من القمر

يا لها من امرأةٍ قوية ! ويا لها من ثقةٍ تُثقلُ خُطواتها نحوَ عرشها بجوار الملكِ تحتَ أنظارِ الجميع !

كم أودّ أن أذهبَ إليها الآنَ بعدَ أن جلستَ ومن خلفها وصيفاتها، ولَكنّني لا أعتقد أنها تراني، بل أنا على يقين أن لا أحد يراني !

ظللتُ أنظرُ إليها بينما أطالت هيَ النظرُ إلى السماء، كأنها على موعدٍ معَ شيءٍ سيأتيها من النجوم !

غلبني فضولي فبدأتُ أنظر إلى السماء بدوري، ظللتُ أطيلُ النظر وأدققُ حتى بدأت عيني تحددُ شيئًا غيرَ مألوفٍ

ففي عمقِ السماءِ ومعَ التدقيقِ القوي بدأتُ أرى شيئًا يحلقُ عاليًا

طائرٌ ذهبي في ظلامِ السماءِ الدامس

قطعة من الذهبِ الساطعِ تُحَلّقُ فوقَ السفينة وكأنها تستطلعُ مُجرياتِ الحفلِ

لا ! هذا ليس طائر !

إنها أنثى !

Visual Watermark

نعم، هذه امرأةٌ ترتدي درعًا من الذهب!

وتحلق بأجنحةٍ ذهبية في سماء مصر!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الملكة

المكان .. طيبة (السفينة الملكية أتون)

الزمن .. مصر القديمة (القرن الرابع عشر ق.م.)

عرش ملكة (كمت)

عرشي، أمتلكهُ رغمَ أنفِ الحاقدين

أجلسُ على سطحِ السفينةِ الملكيةِ في انتظارِ مراسمِ وصولِ الملك، أرى الكهنةَ يتربصونَ بي في خلسةٍ وهم يتهامسونَ فيما بينهم، يلتفونَ حولَ كبيرهم الذي وعدهم بالحكمِ، لا يعلمونَ أنَّ تلكَ هيَ آخرُ لحظاتِ تواجدهم في البلاطِ الملكي، فبعدَ هذا الحفلِ لن يصبحَ لوجودهم معنى

بتوسطهم فاندهم، كبيرُ كهنةِ معبدِ آمون، أراهُ ينظرُ إليَّ محاولاً اختراقَ رأسي ليَطَّلعَ على أفكاري، أعلمُ جيدا أنه يتصنعُ تلكَ الصورةَ الثابتةَ التي يحاولُ أن يُقنعَ بها أتباعه، فهوَ كالثعبانِ الأملس، تراهُ ساكنًا ولكنَّ خوفهُ يجعلهُ دائمَ التحفزِ، وأنا أرى خوفهُ، إنهُ يعلمُ أنني على وشكِ استئصالهِ بخبثهِ من منظومةِ الحكم

نُفرتِ الأبواقُ ودُقتِ الطبول، لقد صعدَ الملكُ على متنِ السفينة، أرادُ ووزيرةُ والملكةُ الكبرى والحاشيةُ والحرسُ من حولهم يتقدمونَ نحوي في مشهدٍ يرعبُ القلوبَ ،

إلا قلبي !

فأنا قلبي متعلقٌ الآنَ بسحرِ السماء، وما ستلقي علينا من خيرات !

اقتربَ الملكُ ومعَ اقترابه هممتُ أن أقفَ إحترامًا لحضوره كما تنصُ المراسمُ الملكية ؛ إلا أنه أشارَ إليَّ بأن أظلَ جالسه، مِمَّا أثارَ غيرةَ الكهنةِ وزادَ من إبتسامةِ الوزيرِ الذي انتظرَ جلوسَ الملكِ على عرشه وحيَّاه، ثم استدارَ ليرحبَ بالحاضرين، في حينِ جلستِ الملكةُ (تي) على الجهةِ الأخرى ليصبحَ الملكُ جالسًا متوسطًا الملكات

- "هنيئًا لكِ، أعتقدُ أنكِ أعددتِ كلَ شيءٍ للحفلِ أفضلَ من الأعوامِ السابقة "

قالتها الملكةُ (تي) للملكِ بصوتٍ مسموعٍ للغايةِ في محيطِ الحاشيةِ القريبة، مِمَّا جعلَ الملكَ يبتسمُ إليها ثم أمسكَ بيدي وهو يجيبها

- " الفضلُ ليسَ لي يا أمي "

شعرتُ بالنصرِ المؤقت، ولكنَّ هذا ليسَ ما أطمحُ إليهِ إطلاقًا، فما أرمي إليهِ هوَ النصرُ الدائم

نظرَ الملكُ إلى الوزيرِ الذي كانَ قد انتهى من الترحيبِ بالحاضرينَ ثمَّ أشارَ إليهِ ببدءِ مراسمِ الحفل

بدأتِ المعازفُ والرقصاتُ على أنغامِ آلاتِ الموسيقى الملكيةِ المطعمةِ بالذهبِ والعاج، وبدأتُ معهم أهمُ مراحلِ خطتي !

جلستُ أنظرُ إلى السماءِ لأتابعَ تحركاتِ النجوم، وجلسَ الملكُ بجانبي يختلسُ النظرَ إلى ملامحي، فنظرتُ إليهِ مبتسمه وأنا أقولُ

- " سيدي، لقد حانَ الوقتُ، فلتعلنها، وستساندكَ السماء "

نظرتُ إليهِ وأنا أسترجعُ تلكَ اللحظةَ التي جمعتنا في القصرِ قبلَ أن نصعدَ إلى السفينة، لحظةُ كشفِ أوراقي أمامهُ، وذهولهُ بخطتي التي أعددتها لأخلصهِ من سيطرةِ المعبدِ، كنتُ قد اقتربتُ منهُ بهدوءٍ في ضوءِ مشاعلِ القصرِ وهوَ يرتدي زيَّ المراسم، ثمَّ أمسكتُ بيديهِ برفقٍ وشددتُ عليها بإحكامِ قائلة

- " يجبُ تهجيرُ (طيبة) من ساكنيها ؛ السادةِ وأصحابِ العلمِ والعبيد، ولكن لا تحاول أن تدعوَ سادتها إلى هجرتها، فهم قطعًا سيرفضونَ ترك ما ورثوه عن أجدادهم من سُلطة لمُجرد وعد منك بأرضٍ أفضل ،

فأنتَ حينها لا تدعوهم لهجرةِ أرض

بل هجرة سيادة ، قوة، نفوذ، مالٌ وسلطة

هجرة حياةٍ هم بها أقربُ إلى ملوكٍ، بينما لا يرقى تصنيفُ سائرِ سكانِ المدينةِ في أنظارهم لأكثرَ من عبيد، أو أدواتٍ سخروها فقط لراحتهم، هم وأبناؤهم وأحفادهم وأحفادُ أحفادهم ولا تحاولُ طردَ العبيدِ منها قهرًا فلن تكسبَ سوى تشبثهم بها، فهُم كائناتٌ لا تقودها سوى حاجتها الملحةِ في إشباعِ حقوقها الأساسيةِ في الحياة

فما يسعونَ إليهِ ليست رغباتٍ ؛ بل هيَ ضماناتٌ مؤقتة لاستمرارهم في المعيشةِ حتى غروبِ شمسِ اليوم ؛ أما عن شمسِ الغدِ، فلا ضمانات، مجردُ فتاتٍ آمالٍ خافتة يقتاتونَ عليها، تتسمرُ أعينهم بها فينشغلونَ عن طلبِ المزيد

تسللتِ الرتابةُ إلى أرواحهم حتى انعدمَ الطموح، وانحصرتِ القدراتُ في كلمتينِ همُ السمعُ والطاعة، طمعا في خبزِ اليوم

يستيقظونَ فيتحسسونَ الأرضَ بأرجلهم الحافيةِ قبلَ أن تهتزَ جفونهم، فالأرضُ هيَ الثابتُ الوحيدُ لديهم

برودتها أسفلَ أقدامهم هيَ مرجعهم لاستقبالِ يومٍ جديدٍ من الخبزِ مقابلَ الطاعة، فإن حاولتَ نزعها من أسفلهم ستستثيرُ حرارةُ الحقدِ الكامنَ في صدورهم

تلكَ الحرارةُ ستصهرُ أرجلهم بالأرضِ من تحتهم

ولن تنالها أبدًا

توقفتُ عن الكلامِ للحظةٍ فإنعقدا حاجبيهِ وهوَ يسأل

- " وما الحل إذا ؟ "

ابتسمتُ إليهِ في ضوءِ المشاعلِ قائلة

- " هجرة أصحاب العلم "

ارتفعَ حاجبيه من الدهشة، فلم يكن يتخيلُ إجابتي، فسألني في فضولٍ

Visual Watermark

- " وكيف ذلك؟ "

سعدتُ بسؤاله فهوَ يعني أنه اقتنعَ بما سمعَ حتى الآن، فأجبتهُ بجاذبية دلعت على ملامحي

- " إنهم كمنتصف حبل الميزان يا مولاي، نقطةُ التوازن بين السادة والعبيد، إن تحرك نحو أحد الكفتين تغيرت المسافةُ وثقل ميزان كفةِ عن الأخرى

فأصحابُ العلم هم سرُ التواصل الخفي بين الطرفين

هم مَن يتحكمونَ في سير الأعمال، يضعونَ الخططَ ويُدّرون الربحَ

هم مَن يراهم العبيدُ أمامهم كصورةٍ مصغرة للسادة

وهم أيضًا يدُ السادةِ المتحكمة في مقاليد الأمور

يصنعونَ الحكمةَ من عقولِ أنارتها العلوم

ويأملون يومًا بعد يوم أن يصبحوا من السادة

فلتقتلْ ذلكَ الأملِ يا مولاي

قُصّ مصادر غذائهم بالتدريج

ابدأ في زعزعة استقرار معيشتهم، ثمّ أنر لهم طريقَ الطموح إلى حيث تريد أنتَ

سيضيقُ صدرهمْ بما يطمحونَ شيء فشيء

حتى لا يجدوا سبيلاً سوى الهجرة إلى حيث تؤهلهم قدراتهم للحصولِ على مرادهم من النقود

ستجدهم في البدءِ فرادىَ في سعيهم الجديد، ثمّ سيأتونكَ ساعينَ وراجينَ للهجرة

عندئذٍ، سيتبعهم أمثالهم حتى آخرهم

حينها ، حينها فقط، ستتوقف الأعمال

ومعها سيتوقف الخبز

ويثور العبيد على الأغنياء

فيرحلونَ السادةَ بأموالهم إلى حيث تريد أنتَ

ويبقى العبيد حتى تتقلّص أبدانهم جوعًا

فينزحون تابعين السادة والعلماء إلى حيثُ استقروا

حيث أردتَ أن يكونوا "

- " وأين ذلك؟ "

- " منتصف (كمت)، أقرب إلى الشمال، حيث يمكن تأمين العاصمة (أخيتاتون) بالإستعانة بجيش الشمال "

- " (أخيتاتون) ؟! "

- " حيث سيزدهر مُلكك "

- " أراكِ واثقة ! "

- " سيدي، سيكونُ (را) قائدِ جيشِ الشمالِ حاضرًا الحفل في انتظارِ قرارك هذا "

- " والكهنة ؟! "

- " حرصتُ أن تصل إليهم معلومات بأنني لن أحضر حتى أصرف إنتباههم، سيتفاجؤن بوجودي معكَ "

- " والوزير ؟! "

- " هو مَن أعانني على ترتيب كل شيء يا سيدي "

إزدادت دهشته وهو يقترب مني حتى شعرتُ بأنفاسه على وجهي حين قال في زَهوٍ واضح

- " مَن أنتِ ؟! كيف ومتى فعلتِ كل ذلك "

تركتُ كفّيه ثم نظرتُ بداخل عينيه القويتين وأنا أتحسس زراعيه، قائلة

- " أنا زوجتكَ، وتابعتكَ، وحاميتك

أنا مَن ستجعلكَ تحكُم منفردًا في ضوء الشمس

تحت راية الإله الواحد

(آتون) "

- " ومَن سأكون ؟! "

- " ستكون زوجي، وقائدي، ومنقذي

أنتَ مَن ستجعلني أحكم بجوارك أعظمَ إمبراطورية في التاريخ

أنتَ سيدي ومولاي إمبراطور (كمت)

و أنتَ خادم (آتون)

(إخناتون) "

Visual Watermark

سمع كلماتي ولمعت عيناه، حتى شعرت أنها تنافس مشاعل القصر في ضوئها حين قال

- " لقد اخترتُ لكِ رمزَ مقعدكِ في مجلس الحرب، سأمرُ بمنحكِ رمز الأفعى، لقد استحققتيه وبجدارة "

لم تبتعد عيناهُ عني لحظة، وكأنما أراد أن يحفر تلك اللحظة في قلبه، تمامًا كما ينظر إليَّ الآن في الحفل وهو يستعد للنهوض كي يواجه الحاضرين بقراراتنا

أنظرُ إلى الحضور ولكنني لا أرى سوى الوزير وقائد جيش الشمال وهما ينظران إليَّ، أشعرُ أنهما يقفان في تحفز كفهدين على أطراف الأنامل، ينظران إلى الجميع في استعدادٍ لكلمات الملك

كنت قد اجتمعتُ ووصيفتي (تويا) بقائدِ جيش الشمال (را) قبل الحفل، كانا لا يستطيعان إخفاء مشاعرهما، فقد غلبهما العشق وربط على قلوبهم منذُ أن تقابلا في المرة الأولى التي بدأتُ فيها ترتيباتُ الحفل معهُ

أرافني شعور أنني السببُ في لقائهما، وثقت بتلك الشرارة التي انبعثت بينهما، حتى أنني أعطيتهما كنز ثمين كأمانة لديهم

كنزٌ أغلى من أن يؤتمن عليه بشر، ولكنهما أقرب إلى أنصاف آلهة في نقائهما، وكان وعدهما لي أن يحافظا على الأمانة، حتى وإن كان موتهما هو الثمن ؛ دقت الطبول وتوقفت المعازف، حينها وقف الملك ليتكلم فقال

- " حفلُ اليوم لن يمرَ كسائر الأعوام التي سبقت، فاليومَ هوَ بداية "

نظر تجاه الكهنة مُكملًا

- " بدايةُ عهدٍ لا قبلَ بهِ، عهدٌ يتساوى فيهِ الجميعُ تحتَ رايةِ الإله بلا وساطة، نعمْ، الإله وليسوا الآلهة "

همهمَ الحضورُ وعلى رأسهم الكهنة، ثمَ جاء صوتٌ خافتٌ من بينهم قائلًا

- " هذه هرطقة "

لم ينتظرهُ (را) ليكملَ جملتهُ، فأشارَ إلى الحرسِ بالتقائه من بين الحضورِ وجرجرتهِ إلى أسفلِ السفينة بعنفٍ واضح مما اسكت الجميع

أمام الملك لقائدِ جيشِ الشمالِ بمباركتهِ للمبادرةِ التي قامَ بها للتو، ثمَ نظرَ إليَّ مبتسمًا وهوَ يكملُ

- " عهدٌ يحكمهُ الحب، لا الحرب، فاليومَ سيُعاد تتويجي بمباركةِ سماءِ ليل (كمت) الساحرة"

ثمَ نظرَ إلى الملكةِ (تي) - التي بدأ يظهر عليها ملامحُ الدهشةِ والغضبِ - فقال مشيرًا إلى المعابدِ التي بجوارنا وهيَ في أبهى صورها

- " عهدٌ أكمل خلاله ما بدأهُ أجدادي، حين حلموا بالمستحيل وحولوه إلى واقع ملموس "

صمت لحظة ثم نظر إلى الحضور مكملًا

- " ولكن، ليسَ هنا، سنبدأُ من جديد في مكانٍ آخر، سنذهبُ إلى حيثُ تُبسط لنا الشمسُ زراعيها، سنستوطنُ رقعة في منتصف (كمت) "

نظر إلى الوزير الذي كان يتابع كهنة أمون وقد ملكهم الغضب، ثم قال

- " من السفينةِ الملكية (أتون)، أعلنكم جميعًا بإنهاءِ عهدِ عبادةِ الآلهةِ وعلى رأسها (أمون)، ومن الآنَ فصاعدًا سيُعبَد إلهٌ واحد، هوَ الأجدرَ بالعبادة، سيُعبَد بلا وساطة من الكهنة ؛

من الآن ستعبدون الإله .. (أتون) "

عادت همهمةُ الحاضرينَ بقوة، ثمَ خرجَ من بينهم صوتٌ آخرُ قائلاً

- " وما الذي يُثبت لنا مباركة الآلهة لهذا القرار ؟! "

هَمَّ قائدُ الجيش بالقبضِ عليه، إلا أنني أشرت إليهِ بتركهِ وشأنه، مِمَّا جعلَ الملكُ يلتفتُ إلي، فهذا هوَ السؤالُ الوحيد الذي لا يملكُ إجابة عليه

نهضتُ من مجلسي وتقدمتُ بجوارِ الملك، ثمَ نظرتُ إلى كبيرِ المهندسينَ الذي كانَ يتواجدُ بينَ الحضورِ

كنتَ قد رتبتُ معهُ كلَ شيء، حسبنا معًا موعدَ عبور وابلٍ من الشهابِ المشتعلةِ التي ستملأُ سماء (كمت) وكانَ يقفُ بينَ الحضورِ ليعطيني إشارة باللحظةِ المناسبة

وقد أشار إليَّ بها الآن، فنظرتُ إلى الحاضرين وتكلمت

وتكلمت بكل ما أوتيتُ من قوة وأنوثة معًا، فكلمتي الآن هيَ مصيرُ حكمِ إمبراطوريةٍ بأكملها

- " أغمضوا أعينكم، أحكموا إغلاقها جيدًا، وَجِّهوا رؤوسكم نحوَ سماءٍ لن تظلَ كما هيَ مُجَدَّدًا "

ترددوا قليلًا ثمَ بدءوا في تنفيذِ أوامري في توالٍ حتى سَكَن كل شيء، حتى صوتِ تلاطمِ الأمواجِ على البدنِ الخشبي للسفينةِ بدأ يخفتُ

لا نسمعُ أيَ صوتٍ مطلقًا، سوى صوتِ دقاتِ قلبي المتلاحقة، وهنا بدأت الأصواتُ تأتي من السماء، أصواتُ كتلِ النارِ وهيَ تشقُ طريقها في الهواءِ فوقنا، أثارَ الصوتُ فضولَ الجميعِ فبدءوا يفتحونَ أعينهم لتنعكس داخلها إضاءاتُ الشهابِ المتلاحقة، ذهلَ الجميعُ واقشعرت أبدانهم من هولِ اللحظة، حتى أن بعضهم بدأ يجثوا على ركبتيهِ خشيةَ غضبِ الملك، ذلك الملكُ الذي استطاعَ أن ينالَ مُباركةَ الآلهةِ في أن يتركوا أماكنهم لغيرهم، فبعثوا بقطعٍ من الشمس ليأمروا الجميعَ بإطاعةِ ملكهم في عبادتها دونَ غيرها، جثا الجميع ، حتى كهنةُ المعبدِ بدءوا يجذبونَ بعضهم للجلوس.. وهنا تكلمتُ مُجَدَّدًا

- " أعلنكم يا سادةُ (كمت) أننا الآن تحتَ رايةِ الإلهِ الواحدِ (أتون)، وأنَ ملكنا وقائدنا (إمنحوتب الرابع) سَيَتَوَّج الآنَ بمباركة (أتون)،

ليصبح بدءًا من هذهِ اللحظةِ ؛ (إخناتون).. قُلتها وجثوتُ بجانبه فأمسكَ بيدي لأقف مُجَدَّدًا وأواجهُ الحشدُ الخاضعُ أمامنا

فمن الآن ستبدأ الرحلة

ومن هنا ستكون البداية

بداية (كمت)

ورحلتها نحو:

** المصير **

Visual Watermark

سمع كلماتي ولمعت عيناه، حتى شعرت أنها تنافس مشاعل القصر في ضوئها حين قال

- " لقد اخترتُ لكِ رمزَ مقعدكِ في مجلس الحرب، سأمرُ بمنحكِ رمز الأفعى، لقد استحققتيه وبجدارة "

لم تبتعد عيناهُ عني لحظة، وكأنما أراد أن يحفر تلك اللحظة في قلبه، تمامًا كما ينظر إليَّ الآن في الحفل وهو يستعد للنهوض كي يواجه الحاضرين بقراراتنا

أنظرُ إلى الحضور ولكنني لا أرى سوى الوزير وقائد جيش الشمال وهما ينظران إليَّ، أشعرُ أنهما يقفان في تحفز كفهدين على أطراف الأنامل، ينظران إلى الجميع في استعدادٍ لكلمات الملك

كنت قد اجتمعتُ ووصيفتي (نوبا) بقائد جيش الشمال (را) قبل الحفل، كانا لا يستطيعان إخفاء مشاعرهما، فقد غلبهما العشقُ وربط على قلوبهم منذ أن تقابلا في المرة الأولى التي بدأتُ فيها ترتيباتُ الحفلِ معهُ

أراقبي شعور أنني السببُ في لقائهما، وثقت بتلك الشرارة التي انبعثت بينهما، حتى أنني أعطيتهما كنز ثمينٍ كأمانة لديهم

كنزٌ أغلى من أن يؤتمنَ عليه بشر، ولكنهما أقرب إلى أنصاف آلهه في لقائهما، وكان وعدهما لي أن يحافظا على الأمانة، حتى وإن كان موتهما هو الثمن ؛

دقت الطبول وتوقفت المعازف، حينها وقف الملك ليتكلم فقال

- " حفلُ اليوم لن يمرَ كسائر الأعوام التي سبقت، فاليومَ هوَ بداية "

نظر تجاه الكهنة مُكملًا

- " بدايةُ عهدٍ لا يُملقُ به، عهدٌ يتساوى فيهِ الجميعُ تحتَ رايةِ الإله بلا وساطة، نعمْ، الإله وليسوا الآلهة "

همهمَ الحضورُ وعلى رأسهم الكهنة، ثمَ جاءَ صوتٌ خافت من بينهم قائلًا

- " هذه هرطقة "

لم ينتظرهُ (را) ليكملَ جملتهُ، فأشارَ إلى الحرسِ بانتقائه من بين الحضورِ وجرجرته إلى أسفلِ السفينةِ بعنفٍ واضح مما اسكتَ الجميع

أماء الملك لقائدِ جيشِ الشمالِ بمباركتهِ للمبادرةِ التي قامَ بها للتو، ثمَ نظرَ إليَّ مبتسمًا وهوَ يكملُ

- " عهدٌ يحكمهُ الحب، لا الحرب، فاليومَ سيُعاد تتويجي بمباركةِ سماءِ ليل (كمت) الساحرة"

ثمَ نظرَ إلى الملكةِ (تي) - التي بدأ يظهر عليها ملامحُ الدهشةِ والغضب - فقال مشيرًا إلى المعابدِ التي بجوارنا وهيَ في أبهى صورها

- " عهدٌ أكمل خلاله ما بدأهُ أجدادي، حين حلموا بالمستحيل وحولوه إلى واقع ملموس "

صمت لحظة ثم نظر إلى الحضور مكملًا

- " ولكن، ليسَ هنا، سنبدأ من جديد في مكانٍ آخر، سنذهبُ إلى حيثُ تُبسط لنا الشمسُ زراعيها، سنستوطنُ رقعة في منتصف (كمت) "

نظر إلى الوزير الذي كان يتابع كهنة أمون وقد تملكهم الغضب، ثم قال

- " من السفينةِ الملكية (أتون)، أعلنكم جميعًا بإنهاءِ عهدِ عبادةِ الآلهةِ وعلى رأسها (أمون)، ومن الآنَ فصاعدًا سيُعبَد إلهٌ واحد، هوَ الأجدرَ بالعبادة، سيُعبَد بلا وساطة من الكهنة ؛

من الآن ستعبدون الإله ـ (أتون) "

عادت همهمةُ الحاضرينَ بقوة، ثمَ خرجَ من بينهم صوتٌ آخرُ قائلاً

- " وما الذي يُثبت لنا مباركة الآلهة لهذا القرار ؟! "

هَمَّ قائدُ الجيش بالقبض عليهِ، إلا أنني أشرت إليهِ بتركهِ وشأنهِ، مِمَّا جعلَ الملكُ يلتفتُ إلي، فهذا هوَ السؤالُ الوحيد الذي لا يملكُ إجابة عليه

نهضتُ من مجلسي وتقدمتُ بجوارِ الملك، ثمَ نظرتُ إلى كبيرِ المهندسينَ الذي كانَ يتواجدُ بينَ الحضورِ

كنتُ قد رتبتُ معهُ كلَ شيء، حسبنا معًا موعدَ عبور وابلٍ من الشهابِ المشتعلةِ التي ستملأ سماء (كمت) وكانَ يقفُ بينَ الحضورِ ليعطيني إشارة باللحظةِ المناسبة

وقد أشارَ إليَّ بها الآن، فنظرتُ إلى الحاضرين وتكلمت

وتكلمت بكل ما أوتيتُ من قوةٍ وأنوثة معًا، فكلمتي الآن هيَ مصيرٌ حكمَ إمبراطورية بأكملها

- " أغمضوا أعينكم، أحكموا إغلاقها جيدًا، وَجِّهوا رؤوسكم نحوَ سماءٍ لن تظلَ كما هيَ مُجَدَّدًا "

ترددوا قليلًا ثمَ بدءوا في تنفيذِ أوامري في توالٍ حتى سَكَنَ كل شيء، حتى صوتِ تلاطم الأمواجِ على البدنِ الخشبي للسفينةِ بدأ يخفتُ

لا نسمعُ أيَّ صوتٍ مطلقًا، سوى صوتِ دقاتِ قلبي المتلاحقة، وهنا بدأت الأصواتُ تأتي من السماء، أصواتُ كتلِ النارِ وهيَ تشقُ طريقها في الهواءِ فوقنا، أثارَ الصوتُ فضولَ الجميعِ فبدءوا يفتحونَ أعينهم لتنعكس داخلها إضاءاتُ الشهابِ المتلاحقة، ذهلَ الجميعُ وأقشعرت أبدانهم من هولِ اللحظة، حتى أنَ بعضهم بدأ يجثوا على ركبتيهِ خشيةَ غضبِ الملك، ذلكَ الملكُ الذي استطاعَ أن ينالَ مُباركةَ الآلهةِ في أن يتركوا أماكنهم لغيرهم، فبعثوا بقطعٍ من الشمسِ ليأمروا الجميعَ بإطاعةِ ملكهم في عبادتها دونَ غيرها، جثا الجميع ، حتى كهنةُ المعبدِ بدءوا يجذبونَ بعضهم للجلوس.. وهنا تكلمتُ مُجَدَّدًا.

- " أعلنكم يا سادةُ (كمت) أننا الآن تحتَ رايةِ الإلهِ الواحدِ (أتون)، وأنَ ملكنا وقائدنا (إمنحوتب الرابع) سَيُتَوَّج الآنَ بمباركة (أتون)،

ليصبح بدءًا من هذهِ اللحظةِ : (إخناتون)".. قُلتها وجثوتُ بجانبهِ فأمسكَ بيدي لأقف مُجَدَّدًا وأواجهُ الحشدَ الخاضعَ أمامنا

فمن الآن ستبدأ الرحلة

ومن هنا ستكون البداية

بداية (كمت)

ورحلتها نحو؛

** المصير **

Visual Watermark